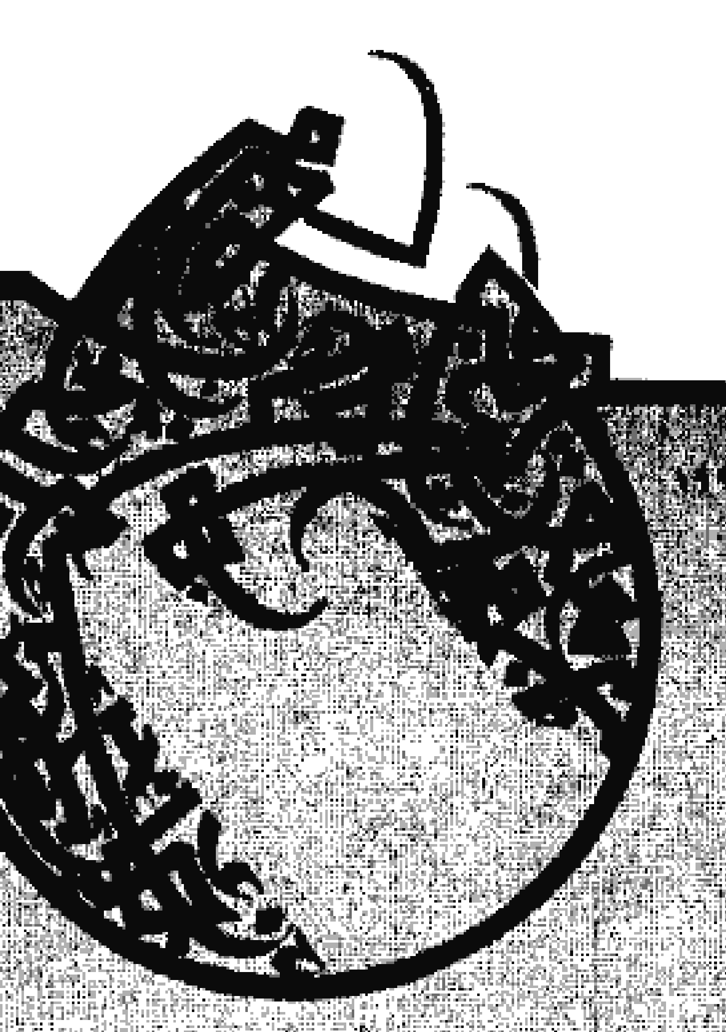


ز – ع

المعجمات العربية وتطورها

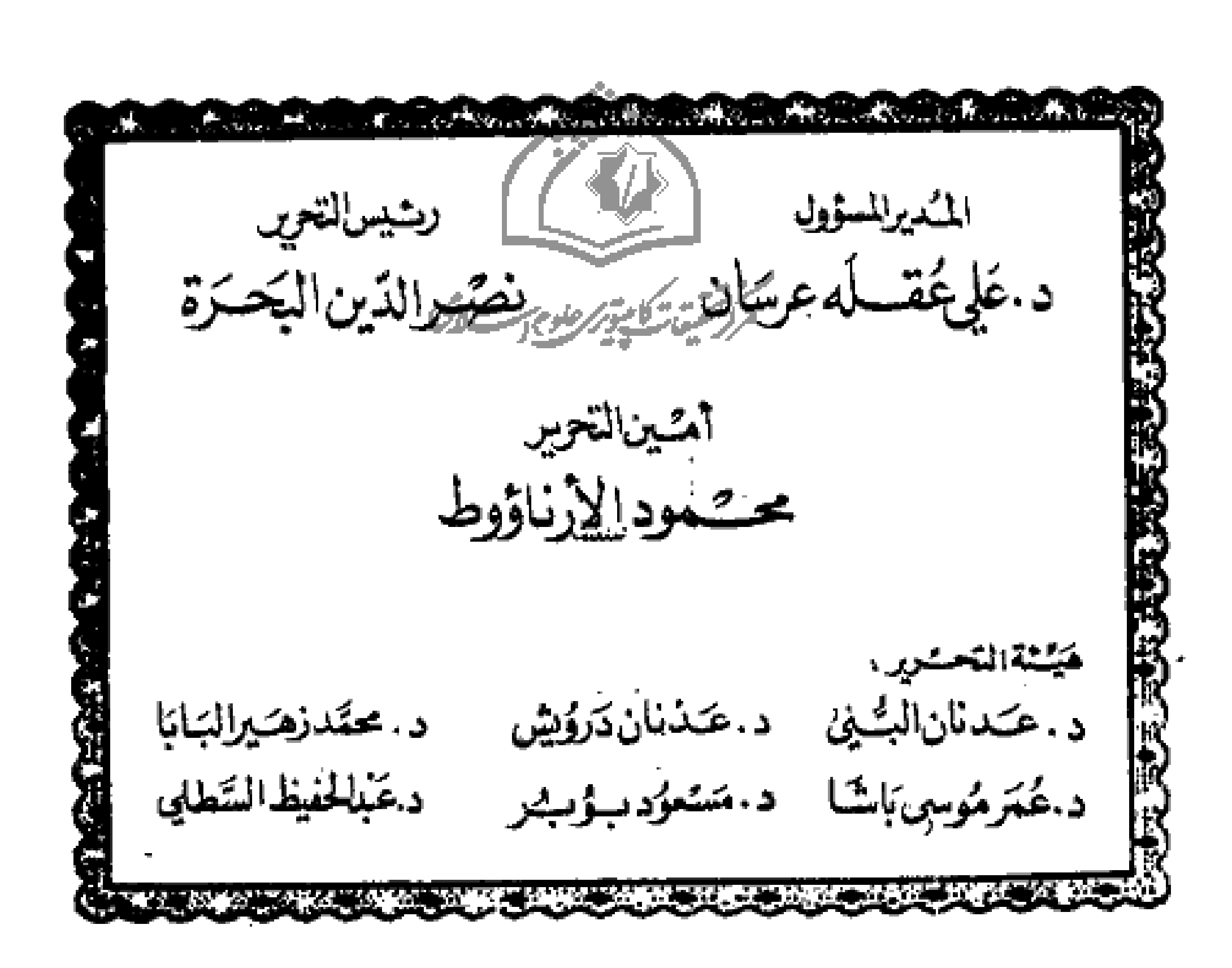
بين الصحاح والقاموس المحيط


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

العدد: ٧٧ - جمادى الأخرى - رجب - ١٤٢٠هـ - تشرين الأول - اكتوبر - ١٩٩٩ السنة التاسعة عشرة



تنويه:

إلى السادة كتاب مجلة "التراث العربي":

ترجو هيئة تحرير مجلة التراث العربي من السادة الكتاب مراعاة الأمور التالية في الموضوعات التي يرسلونها كي تنشر على صفحاتها:

- يفضل أن يكون الموضوع مطبوعاً على الآلة الكاتبة - النسخة الأولى منه، فإذا تعذر ذلك فليكن مكتوباً بخط واضح، على ان ترسل النسخة الأولى منه، في حال طبعه على آلة النسخ.
- يذكر السادة الكتاب عناوينهم التي يرون مراسلتهم عليها.
- الموضوع المرسل إلى مجلة التراث العربي، لا يجوز لكاتبه أن يبعث به في الآن ذاته إلى مجلة أخرى.
- في حال مخالفة أي من شروط النشر السابقة، يهمل الموضوع المرسل فلا ينشر.
- توجه المراسلات باسم رئيس التحرير.
- المواد التي تتلقاها المجلة لاترد لأصحابها، سواء نشرت أم لم تنشر.
- المقالات المنشورة لاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

هيئة تحرير مجلة التراث العربي

الاشتراك السنوي

داخل القطر	للأفراد	: ١٥٠ ل.س
في الأقطار العربية	"	: ٣٠٠ل.س أو (١٥) دولار أميركي.
خارج الوطن العربي	"	: ٤٥٠ ل.س أو (٢٠) دولار أميركي.
الدوائر الرسمية داخل القطر		: ٣٠٠ ل.س.
الدوائر الرسمية في الوطن العربي		: ٥٠٠ل.س أو(٢٥) دولار أميركي.
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي		: ٦٥٠ل.س أو (٤٠) دولار أميركي.
أعضاء اتحاد الكتاب		: ٧٥ ل.س .

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً بدفع نقداً إلى (محاسب مجلة التراث العربي)■

المدقق اللغوي : ممدوح فاخوري

المحتوى :

ص

◻



معجم عين الفعل*

نصر الدين البحرة

من الإشكالات التي تتميز بها اللغة العربية، تعدد الصيغ التي يتشكّل بها الفعل المضارع. وهذا يترك أثراً بيّناً في شكل الفعل ومضمونه عامة، ثم ينتهي إلى تعدد مدهش في المعاني.

ولابأس في شيء من المقارنة، كي تتضح أبعاد هذا الموضوع، ونضع يدنا على بيت القصيد. فإذا رأينا في اللغة الإنكليزية الحديثة أنموذجاً، يمكن أن نقابله بلغة الضاد، في هذا الأمر، أي: صيغتي الماضي والمضارع، وجدنا أن ثمة صيغة واحدة لكل منهما. والخلاف الوحيد بين هاتين الصيغتين في لغتنا العربية واللغة الإنكليزية، أن المضارع هو الأصل في هذه، على حين أن الماضي هوَ الأصل في لغتنا. فنحن نقول مثلاً:

- عاش –يعيش.
- هدى – يهدي.
- قرّر – يقرّر.

وهم يقولون:

- Live- Lived.
- Conduct- Conducted.
- Decide-Decided.

وهكذا نلاحظ أن الفارق بين صيغة المضارع وبين صيغة الماضي، ينحصر في إضافة لاحقة، لا تؤدي إلى تغيير في ترتيب الحروف. إنها إضافة فحسب.

أما الأفعال التي تشذ عن هذه القاعدة، في صوغ الماضي، في حيث يتغير ترتيب حروف الفعل، أو يتغير شكل الفعل جوهرياً، فإن القارئ أو المراجع يستطيع أن يعرفها حصراً في قائمة مطبوعة في ختام أي معجم للغة الإنكليزية، تحت عنوان: أفعال غير قياسية Irregular Verbs، مثل:

- يذهب– ذهب. *Go - Went.*
- يتعلم – تعلم. *Teach- Taught.*

معجم عين الفعل*

نصر الدين البحرة

من الإشكالات التي تتميز بها اللغة العربية، تعدد الصيغ التي يتشكّل بها الفعل المضارع. وهذا يترك أثراً بيّناً في شكل الفعل ومضمونه عامة، ثم ينتهي إلى تعدد مدهش في المعاني.

ولابأس في شيء من المقارنة، كي تتضح أبعاد هذا الموضوع، ونضع يدنا على بيت القصيد. فإذا رأينا في اللغة الإنكليزية الحديثة أنموذجاً، يمكن أن نقابله بلغة الضاد، في هذا الأمر، أي: صيغتي الماضي والمضارع، وجدنا أن ثمة صيغة واحدة لكل منهما. والخلاف الوحيد بين هاتين الصيغتين في لغتنا العربية واللغة الإنكليزية، أن المضارع هو الأصل في هذه، على حين أن الماضي هو الأصل في لغتنا. فنحن نقول مثلاً:

- *عاش - يعيش.*
- *هدى - يهدي.*
- *قرّر - يقرّر.*

وهم يقولون:

- Live- Lived.
- Conduct- Conducted.
- Decide-Decided.

وهكذا نلاحظ أن الفارق بين صيغة المضارع وبين صيغة الماضي، ينحصر في إضافة لاحقة، لا تؤدي إلى تغيير في ترتيب الحروف. إنها إضافة فحسب.

أما الأفعال التي تشذ عن هذه القاعدة، في صوغ الماضي، في حيث يتغير ترتيب حروف الفعل، أو يتغير شكل الفعل جوهرياً، فإن القارئ أو المراجع يستطيع أن يعرفها حصراً في قائمة مطبوعة في ختام أي معجم للغة الإنكليزية، تحت عنوان: أفعال غير قياسية Irregular Verbs، مثل:

- يذهب- ذهب. *Go - Went.*
- يتعلم - تعلم. *Teach- Taught.*

- يمزق- مزّق. Tear- Tore.

ولدى العودة إلى تعدد الصيغ التي يتشكل منها المضارع في العربية، وفي أثناء بحثنا، وتقليبنا صفحات المعاجم المختلفة، نفاجأ أيضاً بمسألة، ربما كانت خاصة بالعربية، هي أن الكلمة العربية عامة، سواء أكانت اسماً أم فعلاً، تخضع لتغير معناها بتغير شكلها- شكلها بالحركات- ويتغير المعنى أحياناً دون تغيير "التشكيل"، ولكن المصدر يتغير في بعض الحالات.

وهذه أمثلة من الأسماء، ثم الأفعال:

الأسماء:

- (حَرْف) كل شيء: طرفه وشفيره وحدُّه. الجمع: أحرف وحروف .
- (فلان على حَرْف من أمره) أي ناحية منه، إذا رأى شيئاً عدل عنه. ومنه قول القرآن "ومن الناس من يعبد الله على حَرْف"(١) أي إذا لم ير مايحب انقلب على وجهه، فيعبده في السرّاء لا الضرّاء.
- (الحَرْف) مسيل الماء والناقة الضامرة الصلبة، شُبّهت بحرف الجبل في شدتها وصلابتها. قال ذو الرمة:

جمالية حَرْفٌ سناة يشلُها وظيفٌ أزجُ الخطو ظمآن سَهوَق

- والحَرْف: واحد حروف الهجاء. وهو مأخوذ من معنى الطرَف والجانب... الخ.
- (الحُرْف) قال أبو حنيفة هو الذي تسميه العامة: حَبّ الرشاد. الواحدة (حُرْفة) وفي الأساس أنه: الخردل. و-الحرمان، وهو اسم من قولك:"رجل محارَف" أي منقوص الحظ لا ينمو له مال....(٢). الخ.

الأفعال:

- (دَبَر) النهار والصيف دُبوراً: إذا انصرم و-السهمُ: خرج من الهدف.

دبر الرجل دَبْراً: مات. و-فلاناً: تبعه من ورائه. و-الحديث عن فلان: حدّثه عنه بعد موته. و-الرجلُ: شاخ. و-الريحُ: تحولت دَبوراً.

- (دَبَرني فلان) جاء بعدي وخلفي.
- (دُبِرَ) على المجهول: أصابته الدبور.
- (دَبّر) الأمر: نظر في عاقبته وتفكر. و-اعتنى به. و-رتّبه ونظمه.

و- الحديث: نقله عن غيره. و-على هلاكه:احتال عليه وسعى فيه.

أسماء من الجذر نفسه (دبر):

- (الدُّبْر) جماعة النحل والزنابير، الواحدة (دَبْرة) ج: أدبُر ودُبُور.
و-مشارات المزرعة. و-أولاد الجراد. و-خلف الشيء. و-الموت. و-الجَبَل. و-رقاد كل ساعة. و- قطعة تغلظ في البحر كالجزيرة يعلوها الماء. وينضب عنها. و-المال الكثير.
- (الدَّبْر) جماعة النحل والزنابير، وأولاد الجراد، والمال الكثير.
- (الدُّبْر والدُّبُر): نقيض القُبُل. و-من كل شيء: عقبه ومؤخره.
و(دبر الصلاة): انقضاؤها.
- جئتك دُبُرَ الشهر، وفي دُبُرِه، وعلى دُبُرِه: أي آخره.
- (الدُّبْر): زاوية البيت.-ج أدبار.
- (الدَّبِر) كَكَتِف: ذو الدبر، وهو المعقور(٣).
وهذا مثال آخر، لجذر لغوي آخر، تختلف فيه المعاني عامة باختلاف الفعل والاسم، وهو (سكر).

الأفعال:

- (سَكَرَ) الإناءَ سَكْراً: ملأه. و-النهرَ: سدَّ فاه. و-الريحُ سُكُوراً وسَكَراناً: سكنت بعد الهبوب. و-عينه: تحيرت وسكنت عن النظر. و-الحرُّ والحارُّ: فتر.
- (سَكَر البابَ وسكَّره): سدَّه.
- (سُكِرت أبصارنا وسُكِّرتْ): حُبست وحُيِّرت.
-(سَكِرَ فلان على فلان) غضب واغتاظ؛ "لهم عليَّ سَكَرٌ" أي: غضب شديد.
و-من الشراب سَكْراً وسَكَراً وسُكْراً وسُكُراً وسَكَراناً: نقيض صحا.
- و(سكَّره) خنقه.

الأسماء:

- السُّكْر: بَقْلة من الأحرار.
- السِّكْر: الاسم من سكر النهر، أي سدَّه. و-ما سُدَّ به النهر.
- السُّكْر: حالة تعترض بين المرء وعقله.
- السَّكَر: الخمر. و-نبيذ يتخذ من التمر والكشوث. و-كل ما يُسكر. و-ماحُرِّم من ثمره. و-

الخل. و –الطعام.

– السُكْرة: الشدة والغشية واختلاط العقل(٤).

يبدو مما تقدم اختلاف معاني الكلمة باختلاف حركتها، وخاصة وسطها، سواء أكانت فعلاً ماضياً أم اسماً. فكيف الحال، إذ يكون الفعل مضارعاً، وإذ تختلف حركة عينه؟! لا يقتصر الأمر إذاً، على مسألة ضبط عين الفعل، بل يتجاوزها إلى اختلاف معناه باختلاف حركتها وتشكيلها. "
وكم من يوم أحصينا فيه المرات التي عدنا فيها إلى المعجمات، فإذا نسبة كبيرة منها، كانت في سبيل ضبط عين الفعل. وأنت حين تبحث عن عين الثلاثيّ في معجم، تطمئن نفسياً إلى أنك أمنت الزلل، وتجنبت الخطل، فتثق بما تكتب وتقرأ، لكن للاطمئنان مدارج، فثمة شك آخر يساورك، وقلق آخر يستبد بك، حين ترى عين الفعل موضع تجاذب بين معجم وآخر، من معجماتنا المعاصرة. وأمثلتها ثلاثة هي: "المعجم الوسيط" و"المنجد في اللغة"، و"الرائد" فماذا تعمل في حال كهذه"(٥).

إذاً، كيف السبيل للوصول إلى ضبط عين المضارع، هل ثمة سوى المعاجم؟!

بادئ ذي بدء، لابد من صرف النظر تماماً، عن الركون إلى السماع، في هذا الأمر، فقد تركن الأذن إلى مايمكن أن تكون قد ألفته من غلط شائع. وفي الإمكان، أن نلاحظ في أسىً الفارق الشاسع بين لغة العرب اليوم، وبين لغتهم أمس. "لقد فشا اللحن في لغة الضاد. وكاد السماع يصبح قياساً والشذوذ قاعدة. فكم من فعل خاله القارئ مضموم العين، فإذا هو مفتوحها. وكم من فعل تداولته الألسن والأقلام، على أنه مفتوح العين، فإذا هو خلاف ذلك.(٦)".

إن الباحث، وهو يتابع موضوع "عين المضارع" مقلّباً صفحات هذا المعجم أو ذاك، لابد أن ينتبه إلى أن هذه المسألة تتخذ إشكالاً خاصاً. فالفعل الواحد، قد تكون له أكثر من صيغة في المضارع، ومع تغيُّر الصيغة وتغيُّر الشكل– التشكيل– يتغير المعنى، مع الأخذ بعين الاعتبار اشتقاق المعاني المجازية. وما أكثر الأمثلة التي نقرؤها في "معجم عين الفعل". **فإن للجذر (أثر) في حالة الماضي والمضارع معاني مختلفة:**

١– أثر –ُ ِ أثراً أو أثارةً أو أثرة الحديثَ: نقله ورواه عن غيره.

وأثره: تبع أثره.

٢– أثر –ُ ِ أثراً أو أثرةً السيفَ أو غيرَه: ترك فيه علامة يُعْرَف بها، وأثر فلانٌ أن يفعل كذا: اختار فعله.

٣ – أثِرَ –َ أثراً أو أثرَة أو أثْرَة أو أثرى عليه: فضّل نفسه عليه في النصيب.

٤– أثِرَ –َ أثراً على الأمر: عزم عليه، و– للأمر: تفرّغ له.

و– يفعل كذا: شرع يفعله(٧).

وفي الباب نفسه نقرأ المثال الآتي، في الجذر (أدم):

١– أدَم –ِ أدْماً الخبزَ: خلطه بالإدام، أي بما يوافقه من طعام.

٢- أدَمَ -ُ أدْماً أهلَه: صار لهم أسوة. و- المتخاصمَيْن: وفّق بينهما.

٣- أدِمَ -َ أدَماً: اشتدت سُمْرته.

٤- أدُمَ -ُ أدْمَةً: اشتدت سمرته(٨).

وفي المثالين الأخيرين، اختلفت عين المضارع، واختلفت صيغة المصدر، لكن معنى الفعل ظل واحداً.

وشبيه بهذا نلحظه في الجذر (أرك) كما يلي:

١- أرِكَ -َ أرَكاً الجملُ: اعتل بطنه من أكل الأراك.

٢- أرَكَ -ُ -ِ أرُوكاً أو أرْكاً الجملُ: رعى الأراك، وهو نوع من الشجر.

٣- أرِكَ -َ أرَكاً الجرحُ: برئ.

٤- أرَكَ -ُ أرُوكاً الجرحُ: برئ(٩).

وفي باب الباء، نتابع معاني الجذر التالي (بطل) ونرى اختلافها باختلاف عين المضارع والمصدر أيضاً:

١- بَطَلَ -ُ بُطْلاً وبُطُولاً وبُطْلاناً: ذهب ضياعاً. فسد. سقط حكمه.

٢- بَطَلَ -ُ بَطالةً وبِطالةً العاملُ: تعطل.

٣- بَطَلَ -ُ بَطالةً في حديثه: هزل.

٤-بَطِلَ -َ بَطالةً في حديثه: هزل.

٥ - بَطُلَ -ُ بُطُولةً: شجُع واستبسل، صار بطلاً(١٠).

إن عين المضارع في الأمثلة الأربعة السالفة، ظلت على حالها، لكن صيغة المصدر وحدها، هي التي اختلفت، والمعاني اختلفت أيضاً، من الذهاب ضياعاً إلى البطولة.

وأمامنا مثال آخر من باب الثاء، لم تتغير فيه عين المضارع، إلا أن المصدر هو الذي تغير، لكن المعنى كان شيئاً آخر: (ثقب).

١- ثَقَبَ - ثَقْباً الشيءَ: خرقه. و-ت الناقة: غزُر لبنها. و- رأيُه: نفذ.

٢- ثَقَبَتْ -ُ ثُقوباً النارُ: اتقدت. و-النجمُ: أضاء. و- الطائرُ: ارتفع. و- ت الرائحةُ: انتشرت.

٣- ثقب -ُ ثَقابةً: أشبه لهبَ النار في شدة حمرته، فهو ثَقيبٌ.(١١).

ونقرأ في باب الجيم أمثلة متعددة، يتبين فيها تعدد معنى الكلمة، مع تغير شكل عين المضارع، ودون أن يتغير هذا الشكل أيضاً. وهاهو ذا جذر (جد):

١- جَدَّ - ِ جَدّاً : عظُم، صار ذا حظ.

٢- جَدَّ - ِ جِدّاً فلان: لم يهزل. و- في الأمر: اجتهد.

٣- جَدَّ -ِ جِدَّةً: حدث بعد أن لم يكن. صار جديداً.

٤- جَدَّ -ُ جَدّاً أو جِداداً الشيءَ: قطعه فهو مجدود أو جَديد.

٥ - جَدَّ -َ جَدَداً (باب فرح يفرح) الثديُ: يبس فهو أجد(١٢).

ونلاحظ بالطبع تعدد المصادر (جَدّاً- جِدّاً- جِدَّة- جَدَداً- جِداداً).

ونفاجأ في باب الراء بأن للجذر (روح) عشر حالات مختلفة متعددة، نعرضها كما يلي:

١- راحَ -ُ رَواحاً: جاء أو ذهب في الرواح (العَشِيّ) (ويستعمل لمطلق الذهاب والمضيّ) عمل فيه.

٢- راحَ -ُ رَواحاً أو رَوْحاً القومَ أو إليهم أوعندهم: ذهب إليهم في الرواح: ذهب إليهم مطلقاً.

٣- راحَتْ -َ (تَراحُ) رائحةُ الإبلُ: ارتدّت في الرواح (العشيّ) إلى المُراح.

٤- راحَ -ُ رَوْحاً اليومُ: كان رَيِّحاً.

٥- راحَ - يَراحُ رَيْحاً اليومُ: كان رَيِّحاً. و-البيتُ: دخلتهُ الريح. و- ت الريحُ الشيءَ: أصابته. و-القومُ الريحَ: دخلوا فيها.

٦- رِيحَ (بالبناء للمجهول): أصابته الريح، فهو مَرُوح أو مَرِيحٌ.

٧- راحَ -َ يَراح راحةَ الشيءَ: وجد رائحته. و- للمعروف: أسرع إلى فعله فَرِحاً. و-ت يده للأمر: خفت. و-منك معروفاً: ناله. و-الشجرُ: اكتسى ورقاً بعد إدبار الصيف.

٨- راحَ -ِ رَيْحاً الشيءَ: وجد ريحه.

٩- راحَ -َ يَراحُ رَواحاً أو راحاً أو راحةً أو رِياحةً أو رُؤوحاً أو أرْيَحيَّةً للأمر: فرح به وأقبل عليه.

١٠- رَوِحَ - (يَرْوَحُ) رَوَحاً: اتسع(١٣).

ومن الواضح تغير مصادر الفعل، مع تغير معاني الفعل.

ونقرأ أخيراً في باب القاف، في الجذر (قَبَّ= قَبَبَ):

١- قَبَّ -ُ قَبّاً النباتُ: يبس. و- الشيءَ: جمع أطرافه. و-القُبَّةَ: بناها.

٢- قَبَّ -َ (باب فَرِحَ -) قَبَباً الخصرُ أو البطنُ: دق وضمرُ.

٣- قَبِبَ -َ (يَقْبَبُ) قَبَباً: قَبَّ -َ.

٤- قَبَّ -ِ قُبوباً القومُ: رفعوا أصواتهم في الخصومة.

٥- قَبَّ -ِ قَبّاً أو قَبيباً الأسدُ أو الفحل: سُمِعَتْ قعقعةُ نابه. و-طيَّ الثوب: أدمجه.

٦- قَبَّ -ُ قَبّاً يدَ فلان: قطعها.(١٤).

لقد أشار مؤلفا معجم عين الفعل إلى الينابيع التي اعتمدا عليها، وهي معاجم "لسان العرب"

و"تاج العروس" و"الصحاح"... الخ، في الوقت الذي أرادا فيه أن يوضحا لقارئهما أنهما أراحاه من هذا العناء قائلين: "وهنيئاً إذ ذاك- أي لدى العودة إلى المراجع المذكورة- لمن كان في عجلة من أمره، لأنه سيضيع بين سطورها".

لقد ضَمَّنَ المؤلفان هذا المعجم المختص الفريد الأول من نوعه في اللغة العربية زهاء خمسة آلاف جذر لغوي، هي الأصول الثلاثية في لغة الضاد. وها هما ذان يقولان "نحن لم نهمل منها شيئاً، ولم نتجاوز جذراً لحساب آخر، إلا مامات منها وأهملته المعجمات القديمة والحديثة، بيد أننا راعينا فيه التبسيط ما أمكن.(١٥)".

وراعيا أيضاً في مواد معجمهما الترتيب الألفبائي للجذور الثلاثية، كما جاءت في أصول اللغة، دون قلب أو ضبط بالشكل. واتبعا في هذا المجال الأصول المألوفة لدى البحث في المعجمات الأخرى، عن كلمة ما "لذا كان على كل من يطلب فعلاً معتل العين أو اللام أن يرده أولاً إلى أصله الواوي أو اليائي".

وشرحا منهجهما في تأليف هذا المعجم، وهو يقوم أولاً على ضبط عين الفعل. وعلى ذكر مصدره أو مصادره المسموعة ثانياً، وعلى شرح معناه ثالثاً. وقد يستطردان "بعد الشرح والتفسير، وحيث تدعو الحاجة إلى ذكر بعض الصفات مذكرةً يليها المؤنث أحياناً، ومفردة يليها الجمع أحياناً. فإن اختصت الصفة بالمعنى الأخير وحده تبعته دون فاصل بينهما. وإن عمت معاني الجذر كلها، أو اختصت بفقرة منه أي بواحد من فروعه، فصل بينها وبين المعنى الأخير بفاصلة.". وقد عالجا الصيغ المختلفة لحركة عين الثلاثي فقلبا "الفعل على وجوهه المعروفة كلها في فقر مرقمة وصلت إلى عشر في بعض الأفعال"- كما تقدم.. لدى عرض الأمثلة-

وحرصاً منهما على الوضوح وعدم الوقوع في اللبس فإنهما اضطرا أحياناً "إلى إثبات عين المضارع بين قوسين. وأكثر مايكون هذا في معتل، حرف العلة فيه متحرك.(١٦)"

بلى، إن القياس في العربية سهل، أما السماع فصعب عويص. وإذا كان هذا يحول دون الاعتماد عليه في معرفة عين الفعل، فقد غدا ذلك عقدة العقد، لأن عين الثلاثي ومصدره قياسيان لا يخضعان لقياس مطلق. ومن هنا تجيء أهمية هذا المعجم، وهو الأول في لغة الضاد. وقد ظل المؤلفان تراودهما فكرته ويسعيان إلى تنفيذها طوال خمسة عشر عاماً.

وإذا كان هذا الكتاب يسد فراغاً في المكتبة العربية، فإنه يعين كل العون "من كان غيوراً على لغة الضاد، وكان فصيح اللفظ هاجسه، فما يقرأ الكلمة إلا بعد أن يطمئن إلى حسن لفظها وإعرابها، ولا يكتب الكلمة إلا بعد أن يطمئن إلى سلامة نحوها وإملائها".

ولاشك أنه سيريح هذا العربي الغيور على لغته ويعفيه من أن تلازمه المعجمات عن يمينه وشماله.

□□

☐ الهوامش:

* تأليف: د.جوزيف الياس- جرجس ناصيف- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الأولى - ١٩٩٥ - ٥٦٢ صفحة- من القياس الكبير.

(١) سورة الحج- الآية١١.

(٢) أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد - تأليف: سعيد الخوري الشرتوني- مطبعة مرسلي اليسوعية - بيروت ١٨٨٩ - الصفحة١٨٦- الجزء الأول.

(٣) المرجع السابق - ص ٣١٦-٣١٧.

(٤) المرجع نفسه-ص ٥٢٧.

(٥) معجم عين الفعل - ج. الياس- ج.ناصيف- ص٥.

(٦) المرجع السابق- ص ٦.

(٧) المرجع نفسه - ص ١٠.

(٨) المرجع السابق- ص١١.

(٩) المرجع نفسه-ص ١٣.

(١٠) المرجع نفسه-ص٣٣.

(١١) المرجع السابق- ص٥٠-٥١.

(١٢) المرجع نفسه- ص٥٧.

(١٣) المرجع السابق- ص١٧٩-١٨٠.

(١٤) المرجع نفسه-ص٣٦٢.

(١٥) المرجع نفسه-ص٦.

(١٦) المرجع السابق- المقدمة.

☐☐☐

المعجمات العربية نشأتها وأطوار التأليف فيها

أ.د. عبد الحفيظ السطلي

تمثل *المعجمات العربية مصدراً هاماً للباحث في الدراسات اللغوية والأدبية، ولا سيما بعد أن ظهرت المعجمات الكبرى، واتسع منهجاً ليشمل كثيراً من شؤون الحياة العربية لغوياً وأدبياً وفكرياً وتاريخياً وما إلى ذلك بالإضافة إلى الهدف الأساسي وهو جمع ألفاظ اللغة وتحديد صيغها ومعانيها وما يَعْرِض لها أحياناً من اختلاف بين لهجات القبائل، أو اختلاف بين آراء أهل اللغة، أو ما أشبه ذلك.*

ونشأة هذه المعجمات لم تحدث إلا بعد ظهور أنماط مختلفة من التأليف، كانت تحاول أن تجمع فئات معينة من ألفاظ العربية، وهذا يعني أن جمع ألفاظ اللغة كلها في كتاب واحد لم يأتِ طفرةً دون تدرّج وبحث عن المنهج القادر على ذلك، ولهذا يمكن أن نحدد مرحلتين هامتين لجمع ألفاظ العربية، الأولى تمثل مجرد نشأة التفكير في جمع ألفاظ معينة من اللغة في كتاب، والثانية تمثل النضج في هذا التفكير، والاتجاه إلى استيعاب ألفاظ اللغة كلها في كتاب واحد تبعاً لمنهج وغاية معينة أيضاً، فإن كانت الغاية هي تقديم معاني الألفاظ وضبط صيغها لمن يطلب هذه المعاني والصيغ، كان منهج التصنيف يُبْنَى على أساس لفظي، وهذا ما عُرِفَ بمعجمات الألفاظ، وإذا كانت الغاية هي تقديم كلمة لمعنى يدور في خلد المرء دون أن يجد لديه كلمة تعبر عنه، كان منهج التصنيف يُبْنَى على أساس الموضوعات والمعاني، وهو ما عُرِفَ بمجمعات المعاني.

وحسبنا في هذا الحديث[1] أن نوجز القول في نشأة التفكير عند العرب حول جمع بعض ألفاظ اللغة ضمن أنماط مختلفة من المناهج، وهو ما يمثل المرحلة الأولى من التأليف المعجمي، ثم نتحدث

[1] أوجزت القول في هذا الحديث، وثمة تفصيل له في كتابي "المصادر الأدبية واللغوية" الذي طُبِع أمليةً لطلاب السنة الأولى من قسم اللغة العربية في جامعة دمشق سنة ١٩٦١، وفي هذا الكتاب أوردت تفصيلاً من القول حول المعجمات وأصحابها وخصائصها، وأوردت نصوصاً كثيرة منها للموازنة بينها، أو لإيضاح مناهجها وأطوار التأليف فيها.

عما تبعها في المرحلة الثانية من تأليف معجمات الألفاظ، وأما معجمات المعاني فنرجو أن نفردها في حديث آخر إن شاء الله تعالى.

المرحلة الأولى:

منذ جعلت الفتوح تهدأ رويداً رويداً، اتجه علماء العربية إلى المحافظة على لغة القرآن وما لها من تراث، إذ شرعوا بوضع علم النحو لضبط اللغة وما يَعْرض لها[2] ولا سيما أن العربية جعلت تحتك بلغة الأعاجم بعد الفتح، وأخذ يتسرب إلى بعض الناطقين بها شيء من عوارض اللحن.

واهتمام العلماء بوضع علم النحو جعلهم يهتمون بجمع اللغة لاستنباط القواعد منها، وجمع اللغة دعا إلى جمع الأدب الجاهلي من صدور الأعراب وغيرهم ليتاح لعالم اللغة أن يستند في قاعدته على شاهد ثابت موثّق[3] ثم لم تلبث هذه الحركة أن تناست الغاية الأولى، وأصبح همها جمع اللغة والأدب لمجرد المحافظة عليها. وكان الأعراب ضمن شروط معينة من المصادر الأساسية لجمع اللغة، سواء أكان ذلك بالاتصال بهم في صحرائهم، أم كان ذلك بالاستماع إليهم لدى وفادتهم على المدن والأمصار[4]، وكانت هنالك مصادر أخرى من أبرزها القرآن الكريم، والحديث[5]، والأدب الجاهلي، وكلام العرب، وما إلى ذلك.

ولا ندري كيف كان يُدوّن العلماء عن الأعراب، ولا سيما حين نسمع أن أحدهم قد رحل إلى البوادي فأنفد كيت وكيت من زجاجات المداد، على أنه ينبغي أن نتصوّر أن ذلك التدوين كان يتم دون أي تنسيق، إلاّ أن الحاجة فرضت على العلماء فيما بعد أن يوجدوا شيئاً من التنسيق ولو يسيراً، لتسهل العودة إلى ما جمعوا والاستفادة منه.

ولهذا بدأ الرواة العلماء في القرن الثاني يؤلفون رسائل صغيرة في اللغة، محاولين في كل منها إيجاد رابطة بين زمرة من الألفاظ، تمكن من تصنيفها في هذه الرسالة أو تلك، ولهذا نشأت رسائل لغوية ذات أشكال مختلفة تمتاز كلها بطابع العفوية والبساطة، وهو ما يتسم به كل عمل في مراحله الأولى، وكانت أنماطها متداخلة متعاصرة أحياناً في زمن ظهورها، بل ربما نجد أحد العلماء نفسه يؤلف رسائل لغوية متعددة يختلف فيها منهج التصنيف من واحدة إلى أخرى.

ومن أبرز الروابط اللغوية التي اتُخِذَتْ لمناهج التصنيف في هذه المرحلة:

١- *الندرة والغرابة*: إذ لجأ بعض العلماء إلى رابطة الندرة والغرابة في بعض الألفاظ، فجمعوا الألفاظ الغريبة النادرة في كتاب واحد دون تنسيق أو ترتيب، فإذا احتاج المرء

[2] ارجع لتفصيل ذلك إلى كتاب: في أصول النحو للأستاذ سعيد الأفغاني ١٥٢-١٦٣ وانظر فيه بحث الاحتجاج ٦-٦٦

[3] ثمة أسباب أخرى لجمع الشعر الجاهلي، انظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ١٠٧-١٨٣، ولا سيما ص ١٥٠ وما بعدها

[4] انظر مثلاً مراتب النحويين ٧٤، وأخبار النحويين البصريين، ٦٦-٦٧، والفهرست ٤٧

[5] قلّ الاستشهاد بالحديث عند النحاة الأوائل، ولكنهم لم يمتنعوا عن ذلك امتناعاً كما حاول أن يصور ذلك بعض النحاة المتأخرين. أما أهل اللغة فكان الحديث من مصادرهم الهامة.

إلى معنى كلمة غريبة أو نادرة، كان عليه أن يطالع ذلك الكتاب كله حتى يجد ضالته فيه.

ويمثل هذا النمط من التأليف أبو زيد الأنصاري (٢١٥هـ) في كتابه "النوادر في اللغة"[٦]، وكتاب النوادر مؤلف من أبواب متعددة جاءت بعنوانات: "باب الشعر" أو "باب الرجز" أو "باب النوادر"، وهذه الأبواب تتعاقب دون تنسيق أو تبويب، فقد يأتي باب شعر ثم يليه باب رجز، وقد يأتي باب شعر فباب نوادر، أو باب رجز فباب رجز مثله، وهكذا.. وكلها تأتي بألفاظ نادرة، فتُشرَح ويُستَشهَد عليها أحياناً بالشعر وأقوال العرب.

٢-*الموضوعات والمعاني*: ومن أنماط هذه المرحلة تلك الرسائل الصغيرة التي جَمَعَتْ بعض ألفاظ اللغة ورتبتها تبعاً لموضوع من الموضوعات أو معنى من المعاني العامة، ومن ذلك "خَلْق الفرس" لقطرب (٢٠٦هـ)، وكتاب خَلْق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء، وكتاب خَلْق الفرس، وكتاب الإبل، وكتاب الشاء، وكتاب النخل والكرم، وكتاب النبات والشجر، للأصمعي (٢١٣هـ)، وكتاب القوس والرمح، وكتاب المياه، وكتاب اللبأ واللبن، وكتاب المطر، لأبي زيد الأنصاري (٢١٥هـ) وكتاب الرحل والمنزل المنسوب إلى ابن قتيبة (٢٧٦هـ)، والأرجح أنه لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤)[٧].

وهذه الكتب عبارة عن رسائل صغيرة حاولت أن تجمع الألفاظ التي تختص بمعنى من المعاني، كالألفاظ التي تتصل بالنبات، أو التي تتعلق بالإبل، أو التي تختص باللبن، وغير ذلك.

٣-*الأضداد*: وهذا النمط من الرسائل بُني على جمع الألفاظ التي تُعبِّر عن المعنى وضدّه، كالأضداد للأصمعي (٢١٣هـ)، والأضداد لابن السكيت (٢٤٤هـ) والأضداد لأبي حاتم السجستاني (٢٤٨هـ)، إذ تُذْكَر الكلمة بمعنى مع شاهد يؤيد ذلك، ثم بالمعنى الآخر مع شاهد يؤيده أيضاً، كقول الأصمعي في أضداده مثلاً: "عَرَّد النجمُ إذا ارتفع، وعَرَّد إذا مال للغروب، قال الراعي بالمعنى الأول:

بأطْيَبَ من ثوبَيْنِ تأوي إليهما سعادُ إذا نجمُ السِّماكَيْنِ عَرَّدا

وفي المعنى الثاني قال ذو الرمة:

---

[٦] ومن العلماء من عمل على التأليف في غريب الحديث، ومنهم قطرب (٢٠٦هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ)، ولكل منهما كتاب في "غريب الحديث".

[٧] لأن أحداً ممن أورد مصنفات ابن قتيبة من القدماء لم يذكر فيها هذا الكتاب، في حين نجد معظم ما في الكتاب قد نقله اللسان والمخصص، وهما ينسبان ذلك إلى أبي عبيد القاسم بن سلام، والله أعلم.

وهَمّتِ الجَوْزاءُ بالتغريدِ"(٨)

وهذا النمط يأخذ بالرابطة المعنوية المتضادة بين الألفاظ، ولكنه يشعرنا بشيء من التنبه على لفظ الكلمة، وإن كان بسيطاً إلى حد ما، لأنه يراعي اللفظ الواحد للكلمة مع وجود معنيين لها ضدين.

٤-مثلث الكلام: ويراد بالمثلث الألفاظُ التي وردت على ثلاث حركات بمعان مختلفة، ومن أمثلة ذلك: السِّهام بالكسر: النبال جمع السَهم، والسُّهام بالضم: الضمُور، أو داء يأخذ الإبل، والسَّهام بالفتح: وهَجُ الصيف. والصِّرة بالكسر: شدة البرد، والصُّرة بالضم: كل ما يُعْقد حفظاً للأشياء أو النقود، والصَّرة بالفتح: الصياح الشديد.

ولعل أول من ألف في مثلث الكلام قطرب (٢٠٦ هـ) في كتابه المعروف بـ "مثلثات قطرب". ونلاحظ في هذا النمط أن الرابطة المعنوية ما تزال قائمة، ولكنها ترافق رابطة لفظية تبرز في صيغة الكلمة وما يطرأ عليها من تبدل في الحركات.

٥-الأفعال ذات الاشتقاق الواحد: وسبق إلى جمع اللغة على هذا النمط قطرب (٢٠٦ هـ) في كتابه "فَعَل وأفْعَل"، ثم ألف الزجّاج (٣١٠ هـ) فيما بعد كتابه "فَعَلْتُ وأفْعَلْت" فكان لكتابه شهرة واسعة للتأليف على هذا النمط، وهنا أصبحت صيغة الألفاظ هي الرابط الوحيد في تصنيفها. والتنبه على صيغة الكلمة ثم جَعْلها رابطاً لجمع الألفاظ وتصنيفها يُعَدّ من الأنماط الهامة التي بدأت تمهد لقيام مرحلة أوسع في جمع اللغة.

٦-الحروف: وآخر ما نجده من أنماط هذه المرحلة، هو تأليف بعض الرسائل التي جمعت الألفاظ ورتبتها بحسب الحروف، ويمثل ذلك كتاب الهمز لأبي زيد الأنصاري (٢١٥ هـ) والكتاب مقسم إلى أبواب لا تسمية لها، وكل باب يورد الألفاظ التي تنتهي بالهمز، ولكن الأبواب لم ترتب على حروف المعجم، وإنما وردت على هذا النحو: "الألفاظ التي تبدأ بالنون وتنتهي بالهمز"، ثم (الألفاظ التي تبدأ بالباء وتنتهي بالهمز)، ثم (الألفاظ التي تبدأ بالراء)، ثم (التي تبدأ بالزاي)، (ثم التي تبدأ بالذال) فالدال فالسين فالشين فالكاف.. الخ.

ولكن الباب قد لا يستقر على ألفاظ تبدأ بحرف واحد، وإنما يستطرد من حرف إلى حرف، حتى يتحول الباب إلى ألفاظ لا جامع بينها غير الانتهاء بالهمز، وأما الأبواب التي تبدأ بحرف وتنتهي بالهمز،، فالألفاظ فيها لا تُرتّب على حروف المعجم وإنما تُصنف دون أيّ تنسيق.

ومهما يكن من أمر هذا الكتاب فهو أقرب أنماط هذه المرحلة إلى المنهج العام للمرحلة التالية،

---

(٨) كتاب الأضداد ٦١ (مجموعة هفنر).

لأنه لا يقيم الترابط بين الألفاظ على أساس المعنى أو الندرة أو الغرابة، وإنما يوجه الانتباه إلى بنية الكلمة وما تضمه من حروف.

المرحلة الثانية:

في المرحلة الأولى رأينا أنماطاً مختلفة من الرسائل الصغيرة، تحاول كلٌ منها أن تجمع بعض ألفاظ اللغة في زمرة يربط بينها رابط يتفاوت في إحكامه ودقته من واحدة إلى أخرى، أما المرحلة الثانية فتمتاز بالتوجه إلى جمع اللغة كلها في كتاب واحد، وهذا ما كان يحتاج إلى منهج لهذا الكتاب يعنى عناية دقيقة بالتنسيق والتبويب، ليصبح من اليسير أن يستفاد منه، ولم يصل الفكر العربي إلى منهج مُيَسَّر إلاّ بعد أن سار في طرق شتّى، وسلك في تصنيف اللغة مسالك متعددة، ولذلك نجد في هذه المرحلة أنماطاً متعددة المناهج، يمكن أن نصنفها في ثلاثة، ونرتبها زمنياً حسب أوّل من ابتدع كلاً منها، وبذلك نجد الأمر قد بدأ بمنهج صنّف أصول الألفاظ حسب مخارج الحروف، وكان غاية في التعقيد، هو ما جاء به الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ) في كتاب العين، ثم تطوّر الأمر إلى منهج آخر رتب الألفاظ على حروف المعجم، وراعى أوائل الأصول، وهو ما جاء به ابن دريد (٣٣٢هـ) في كتاب الجمهرة، ثم كان من بَعْدُ نهج ثالث رتب أصول الألفاظ على حروف المعجم، وراعى أواخر الأصول، وهو ما ظهر على يد الجوهري (٣٩٣هـ) في الصحاح.

ودراسة هذه الأنماط من المعجمات توضح مناهج كل منها، وتكشف عن التطور الذي رافق البحث عن المنهج المُيَسر، وتُبيِّن ما حققه كلٌ منها للغة العربية وأصحابها من فائدة ما زالت تُقطَف ثمارها حتى اليوم.

آ-المعجمات التي رتّبت أصول الألفاظ بحسب مخارج الحروف:

يعود الفضل في هذا النمط من المعجمات إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ)، لأن من المحقق أنه كان أسبق علماء العربية إلى وضع منهج لاستيعاب اللغة كلها في كتاب واحد، والمعجم المنسوب إلى الخليل هو كتاب "العَيْن"[٩].

وأوّل ما تنبه عليه الخليل أن ضابط الألفاظ هو الحروف التي تتألف منها، ولذلك بَنى كتابه على الحروف التي تتألف منها الألفاظ، وهذه البادرة هي التي أفادت منها المعجمات العربية كلها فيما بعد.

ولم يأخذ الخليل بترتيب الأصول حسب الترتيب الهجائي (أ، ب، ت، ث..) لأنه أدرك أن الألف

[٩] ثمة خلاف بين القدماء، حول نسبة كتاب العين إلى الخليل، فمنهم من أنكر أن يكون الكتاب من عمل الخليل أو مروياً عنه، ومنهم من ردّ على ذلك وأثبت نسبة الكتاب إلى الخليل نفسه، ومنهم من رأى أن الخليل وضع منهج الكتاب وشرع فيه ثم هلك دونه، فأتمه تلميذه الليث ابن المظفر. انظر مقدمة ابن دريد لكتابه الجمهرة ٣، والخصائص ٣/٢٨٨، ونزهة الألبا ٥٥، ووفيات الأعيان ١/١٧٠، والمزهر ١/٣٩ - ٤٠ وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢/١٢٢-١٢٤، وضحى الإسلام ٢/٢٦٦-٢٦٩ وكتاب العين طبع سنة ١٤١٤هـ، ولكنهم غيّروا منهج تصنيفه تسهيلاً للعودة إليه، ولو حافظوا على منهجه وجعلوا له فهرساً لغوياً كما صُنِع في طبعة جمهرة اللغة، لكان ذلك أكثر محافظة على الكتاب تراثياً.

حرف علة لا يبقى في الكلمة على حال واحدة، وإنما يكثر تغيُّره، وهو يريد أن يبتدئ بحرف لا يعتريه التغيّر في بنية الكلمة، "فلمّا فاته أول الحروف، كره أن يجعل الثاني أوّلاً وهو الباء إلا بحجة"[١٠]، وحين تخلّى عن الترتيب الهجائي، تدبّر ترتيباً آخر، واهتدى بعقليته الرياضية واللغوية إلى مخارج الحروف، فرتب الحروف بحسب مخارجها مبتدئاً بأقصاها في الحلق، ثم تدرج بعد ذلك إلى الأقرب فالأقل قرباً من مخرج الحرف من الحلق، فرأى أن العَيْن أقصاها وأدخلها في الحلق، فبدأ كتابه بها وسماه باسمها. وإذا كانت الهاء أعمق مخرجاً في الحلق من العين، فقد اعتذر الخليل لذلك بأن الهاء مهموسة خفيفة لا صوت لها، ثم ختم الكتاب بحروف العلة لأنها لا تستقر على حال، وإنما يعتريها تبدل كثير.

ثم قسم اللغة إلى ثنائي[١١] وثلاثي ورباعي وخماسي وصنف أبواب الكتاب على ذلك، ثم اعتمد على ما يسميه علماء اللغة بـ "الاشتقاق الكبير"[١٢]، فراح بقلب الثنائي والثلاثي والرباعي على أوجه حروفها المختلفة، وربما كانت غايته من ذلك حصر أبنية العربية وتمييز المستعمل من المهمل مما يتركب من تقليب الأصل الواحد على حروفه المختلفة. ومثال ذلك أنه إذا ذكر "عَقّ" أورد بعدها "قَعّ" على تقليبّ الثنائي، وإذا ذكر "ضرب" أورد بعدها: ضبر، ربض، رضب، برض، بضر، على تقليب الثلاثي، وإذا ذكر "عبقر" ضرب العين بالأوجه الستة التي تتكون من (ب ق ر) وهي: عبقر، عبرق، عقرب، عقبر، عربق، عرقب، ثم ضرب الباء بالأوجه الستة التي تتكون من (ع ر ق) وهي: بعقر، بعقر، بقرع، بقعر، برعق، برقع. ومثل ذلك ما يفعله مع القاف والراء بحيث يكون مجموع ما ينتج عن هذه التقاليب أربعة وعشرين وجهاً أكثرها مهمل. وإذا ذكر كلمة خماسية ضرب كل حرف منها بتقاليب الحروف الأربعة الأخرى، ليكون مجموع هذه التقاليب مائة وعشرين وجهاً أكثرها مهمل أيضاً. والخليل لا ينص إلاّ على المستعمل في اللغة فحسب.

وعمد الخليل إلى تصنيف أصول الألفاظ في كل باب من أبواب الكتاب آخذاً بأواخر الأصول تبعاً لترتيب مخارجها، وأما ترتيبها داخل الباب الواحد فكان يلاحظ فيه أوائل الأصول تبعاً لترتيب مخارجها أيضاً، فيقدم الأقرب من الحلق ويؤخر الأبعد فالأبعد، فمثلاً ترد كلمة (قرم) قبل (ضرم) وهذه قبل (رزم) وهذه قبل (برم)... لأن ترتيب مخارج الأوائل هو (ق، ض، ر، ب...) وفي تصنيف الأصول لا يذكر بعد الحرف إلاّ الحرف الذي يليه، فإذا انتهى إلى آخر الحروف عاد فذكر ما تركه في البداية من ألفاظ بحسب ترتيب المخارج دائماً.

وبذلك كله أصبح طلب كلمة في كتاب العين يحتاج إلى صبر وأناة وتمرس بمنهج الكتاب، ومع

---

[١٠] الفهرست ٤٣، ومعجم الأدباء ٦/٦٦٧.

[١١] يريد بالثنائي: الثلاثي المُضعّف مثل حَدّ وعَقّ وما إليه، وتسميته بالثنائي يشير ضمنياً إلى ما يراه من تطور حدث في العربية من الطور الثنائي إلى الطور الثلاثي، وهذا ما نلمحه أيضاً فيما بعد عند ابن فارس في المجمل والمقاييس من وجه آخر.
انظر التخصيص ٦/١٣٣-١٣٩، وأصول النحو ١٢٧/ وفقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي ١٧٤، ودراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ٢٠٤.

[١٢] انظر ما قاله ابن ولاّد (٣٣٢هـ) في كتابه المقصور والممدود ٣- وانظر المزهر ١/٤٦.

ذلك أثر هذا المنهج في بعض أهل اللغة، فكان أساساً لما وضعوه من معجمات هامة، وإن كان ثمة بعض الاختلاف اليسير أحياناً، كالذي نجده في معجم تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن احمد الأزهري (٣٧٠هـ)، والمحكم لابن سيده علي بن اسماعيل الاندلسي (٤٥٨هـ)، وهكذا كانت هذه المعجمات تمثل الطور الأول على ما فيه من تعقيد.

ب-المعجمات التي رتبت أصول الألفاظ بحسب الترتيب الهجائي وراعت أوائل الأصول:

إن تعقيد منهج الخليل ومن تبعه في الطور الأول، جعل الفكر العربي يبحث عن مناهج أخرى لترتيب ألفاظ اللغة كلها في كتاب أسهل مُتناولاً مما ورد عند الخليل، ولا سيما أن القدماء أدركوا ما في منهجه من تعقيد، ولهذا اتجه علماء اللغة إلى منهج آخر لتصنيف المعجمات، يُعنى بترتيب أصول الألفاظ بحسب النظام الهجائي مع مراعاة أوائل الأصول، ولكن هذا المنهج الجديد لم يخرج من التعقيد إلى التبسيط إلاّ بشيء من التدرج أو التطور ضمن أدوار ثلاثة: الأول كان ما يزال معقداً يشبه منهج كتاب العين مع شيء يسير من التبسيط وهو ما ظهر في كتاب الجمهرة لابن دريد (٣٢١هـ) والثاني قطع مرحلة واسعة نحو التبسيط، ولكنه احتفظ بشيء من رواسب منهج الجمهرة، وهو ما ظهر في كتابي مجمل اللغة ومقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٥هـ)، والثالث بلغ غاية التبسيط تبويباً وتصنيفاً، وهو ما ظهر في كتاب أساس البلاغة للزمخشري (٥٣٨هـ). ونظرة إلى مناهج هذه الكتب تجعلنا نقف على التطور الذي حدث في الطور الثاني من تأليف المعجمات العربية.

١-جمهرة اللغة لابن دريد (٣٢١هـ):

فابن دريد في الجمهرة سار بمنهج الخليل نحو التبسيط، إلاّ أنه لم يقطع شوطاً بعيداً في ذلك، ففي مقدمته أشار إلى من تقدّمه، ثم ذكر الخليل مُتلطّفاً، فقال: "وقد ألّف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي رضوان الله عليه كتاب العين، فأتعب من تصدى لغايته، وعَنّى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغلب معترف، والمعاند متكلف، وكلُّ ما بعده له تَبَعٌ، أقرّ بذلك أم جحدَ. ولكنه رحمه الله ألف كتابه مُشْكِلاً لثقوب فهمه وذكاء فطنته، وحدّة أذهان أهل عصره"[١٣].

فهو يعترف بالفضل والسَّبْق للخليل بن أحمد، ويشير إلى احتذاء منهجه، ولكنه يتلطف في ذكر ما في الكتاب من إشكال، يسنده إلى ذكاء الخليل وحدة أذهان تلامذته، وكأنه يشير بذلك الإشكال إلى تصنيف "العين" بحسب مخارج الحروف، ولهذا يقول في مقدمة الجمهرة أيضاً: "وأمللنا هذا الكتاب.. فسهّلنا وعره.. وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعبَق[١٤]، وفي الأسماع

---

[١٣] مقدمة الجمهرة ١|٣.

[١٤] عَبِقَ به عَبَقاً: لزمه، وريحٌ عَبِقٌ: لاصق، ورجلٌ عَبِقٌ: إذا تطيّب وتعلق به الطيب فلا يذهب عنه ريحه أياماً

أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة، وطالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة، مُشفياً[15] على المراد.."[16].

فابن دريد تخلى عن التصنيف بحسب مخارج الحروف، واتخذ منهجاً أسهل في رأيه، وهو التصنيف بحسب الترتيب الهجائي، ولا شك أن هذا يمثل خطوة هامة من التطور نحو التبسيط في تأليف المعجمات، ولا سيما أنه زاد من ذلك في مراعاته مبدئياً أوائل الأصول لا أواخرها، ولكن ابن دريد أبقى على مظاهر التعقيد الأخرى التي كانت في منهج الخليل إذ احتفظ بما كان عند الخليل من تقسيم ألفاظ اللغة إلى أبواب الثنائي والثلاثي والرباعي.. الخ، واحتفظ أيضاً بتقليب الأصل الواحد على وجوهه المختلفة حسب الاشتقاق الكبير، واتفق مع الخليل أيضاً بأنه لا يذكر بعد الحرف إلاّ الحرف الذي يليه حتى لا يقع تكرار في تصنيف الألفاظ.

وبذلك أبقى ابن دريد على أمور جوهرية هامة في منهج الخليل، ولا سيما أنه لم يقف في تقسيم الكتاب على الثنائي والثلاثي والرباعي وما فوق الرباعي فقط، وإنما جعل يقسم كلاً منها إلى أبواب متشعبة أو متداخلة أو مضطربة أحياناً[17]، مما يشكل على غير المتمرس الاهتداء إلى موضع ضالته من كلمة يبحث عن معناها أو مبناها، وهذا يعني أن كتاب الجمهرة سار شوطاً نحو التبسيط في منهج التأليف، ولكن الأمر ما يزال بحاجة إلى جهود أخرى من علماء اللغة بحثاً عن طور آخر يزيل شيئاً من معالم التعقيد في المناهج السابقة.

٢ -مجمل اللغة، ومقاييس اللغة، لابن فارس (٣٩٥هـ):

وكان لابن فارس أن يضيف تطويراً آخر يجعل منهج التصنيف أكثر سهولة ويسراً في معجميه المجمل والمقاييس، والمجمل كتاب مختصر، أما المقاييس فأكثر اتساعاً، وابن فارس صنف الكتابين على أسس واحدة[18]، وكانت غايته منهما هي تبسيط المنهج الذي سار عليه من تقدمه في هذا المضمار، ولهذا نراه يخاطب قارئه في مقدمة المجمل فيقول: "فإنك لما أعلمتني رغبتك في الأدب، ومحبتك لعرفان كلام العرب، وأنك شامَمْتَ الأصول الكبار، فراعك ما أبصرتَه من بُعْد تناولها، وكثرة أبوابها وتشعب سبلها، وخشيتَ أن يلْفِتَكَ ذلك عن مرادك، وسألتني جَمْعَ كتاب يُذلّل لك صعبه، ويسهل عليك وعره، أنشأتُ كتابي هذا.."[19].

وواضح أن ابن فارس يأخذ على من تقدّمه صعوبة طرائقهم وكثرة الأبواب وتشعبها، ولهذا

---

(15) أشفى على الشيء: أشرف عليه.

(16) مقدمة الجمهرة ١/٣

(17) وهذا أخذ عليه ابن جني "اضطراب التصنيف وسوء التصريف"، انظر الجمهرة ٣/٣٨٨.

(18) فالحديث عن منهج أحدهما يغني عن الحديث عن منهج الآخر

(19) مقدمة مجمل اللغة ٢

أراد في كتابيه أن يتجه إلى منهج يمتاز بضم ما كان يتفرق في أبواب كثيرة متشعبة، وتصنيف أصول الألفاظ على نحو أيسر ترتيباً، وأسهل متناولاً.

ولهذا تخلى عن تقليب الكلمة بحسب الاشتقاق الكبير، فأزال التعقيد الذي كنا نراه في كتاب العين أو في كتاب الجمهرة، واقتصر على ترتيب الألفاظ بحسب أوائل أصولها، وبذلك أصبحنا نجد (ضرب) في باب الضاد، و(رمز) في باب الراء، في حين كنا في كتاب الجمهرة نبحث عن الأولى في (برض)، وعن الثانية في (رزم).

ولم يصنف اللغة على أبواب الثنائي والثلاثي والرباعي، كما فعل الخليل وسايره على ذلك ابن دريد، لأنه لاحظ أن هذه الطريقة تؤدي إلى التعقيد وتشتيت الأصول المتقاربة، إذ تصبح أمثال (أ بّ، أتّ..) في باب، و(أسَن، أسف..) في باب آخر، ولهذا قسم ابن فارس أصول اللغة على عدد حروف المعجم، وأفرد لكل حرف باباً[20] خاصاً، فالكلمات التي تبدأ أصولها بالهمزة يصنفها في باب الهمزة، والتي تبدأ أصولها بالباء يذكرها في باب الباء، وهكذا..

وكل باب يجعله في ثلاثة أقسام متتالية، فيذكر أولاً المضعّف مثل (أبّ، أتّ)، ثم ينتقل إلى الثلاثي فيقول مثلاً: "الهمزة والباء وما يثلثهما" و"الألف والتاء وما يثلثهما" و"الألف والثاء وما يثلثهما"[21].. الخ، ثم يورد بعد الثلاثي ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف. وبذلك نجد في الباب الواحد كلّ الألفاظ التي تبدأ بحرف واحد، إذ نجد في باب الباء من المجمل مثلاً "بَتّ، بثّ.. بَتَر، بَتَع.. بلعوم، برشاع.."، وكنا في الجمهرة نجد هذه الألفاظ موزعة على أبواب متفرقة متباعدة.

على أن هذا المنهج الذي أراد التسهيل وحقق ما أراد، لم ينج من بعض رواسب المناهج السابقة، إذ بقي ابن فارس لا يذكر بعد الحرف إلاّ الحرف الذي يليه في الترتيب الهجائي، فإذا انتهى إلى آخر الحروف عاد إلى ما أسقطه من الأصول، ومثال ذلك ما أورده في باب "الباء والقاف وما يثلثهما" في المجمل، فهو يبدأ بـ "بقل، بقم، بقي"، وذلك لأن اللام تأتي مباشرة بعد القاف، وبعد أن انتهى إلى "بقي" عاد فذكر الأصول التي تقع حروفها قبل اللام فذكر "بقر، بقع"[22] لأن الراء والعين قبل اللام في الترتيب الهجائي.

ووقع منهج ابن فارس في خلل آخر، إذ كان يُنهي كلّ باب بالألفاظ التي تقع في كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف، ولم يرتب هذه الألفاظ على نسق معين، وإنما كانت تُرْصَف دون أي ترتيب، وربما كانت قلتها هي التي صرفت ابن فارس عن مراعاة ترتيبها على نسق ما تقدمها في

---

[20] يسميه ابن فارس باسم الكتاب، فيقول "كتاب الراء" و"كتاب اللام" و"كتاب النون".

[21] ربما وجدنا التفاتاً ضمنياً من ابن فارس إلى أصل اللغة الثنائي قبل أن تصل إلى مرحلة الأصل الثلاثي حين يكرر مثل عبارته "الهمزة والباء وما يثلثهما"، فيذكر دائماً الحرفين الأولين من الثلاثي وكأنهما أصل لمعنى عام، ثم يورد الحرف الثالث وكأنه ينشح عنه معنى خاص ضمن التطور اللغوي.

[22] انظر مجمل اللغة ١/٧٨-٨٠

المضعف والثلاثي، ومع ذلك فهي سمة تعوق التيسير الذي أراده ولو كانت إعاقة يسيرة.

وبذلك ندرك أن ابن فارس قد سار فعلاً بتطوير منهج المعجمات إلى طور هام من التبسيط، ولكنه مع ذلك بقيت لديه رواسب طفيفة كانت تحتاج إلى من يحاول التخلص منها في معجمات أخرى، ليكون المنهج خلواً من كل تعقيد.

٣-أساس البلاغة للزمخشري(٥٣٨هـ):

وكان ذلك على يد الزمخشري في كتابه أساس البلاغة، إذ أشار في مقدمته إلى ما قصده من تبسيط، فقال: "وقد رُتب الكتاب على أشهر ترتيب مُتداوَلاً، وأسهله مُتناوَلاً، يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف الثُمام وحبل الذراع[٢٣]، من غير أن يحتاج في التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاع،[٢٤] وإلى النظر فيما لا يوصل إليه إلاّ بإعمال الفكر إليه، وفيما دقّق النظر فيه الخليل وسيبويه"[٢٥].

فالزمخشري ينتقد مناهج بعض الكتب التي تقدمته، لأنها تُحوج إلى إعمال الفكر للتنقير عن كلمة تُطلب في هذا الكتاب أو ذاك، ولهذا يأخذ بالترتيب الأشهر متداولاً، والأسهل متناولاً، وهو ترتيب ابن فارس في كتابيه السابقين، وهو يقوم على ترتيب الأصول بحسب أوائلها مع مراعاة الترتيب الهجائي في تصنيف أبواب الكتاب.

إلاّ أن الزمخشري تخلّى عن أمرين من منهج ابن فارس، إذ لم يقسم الفصل الواحد إلى ثنائي وثلاثي وما فوق الثلاثي، وإنما ذكر الألفاظ بترتيب أوائل الأصول مع مراعاة الترتيب نفسه في بقية حروف كل أصل، دون النظر إلى أنها ثنائية أو ثلاثية أو غير ذلك. ولم يلتزم بذكر الحرف ثم الحرف الذي يليه كما فعل ابن فارس، وإنما صنف الأبواب حسب الترتيب الهجائي بادئاً بأول الحروف في كل باب ومنتهياً بآخرها.

وبذلك تحرّر نهائياً من رواسب الجمهرة التي بقيت عند ابن فارس في كتابيه المجمل والمقاييس، وأصبحت طريقة الزمخشري في الأساس أسهل طريقة وأبسطها في تصنيف المعجمات، بل إن طريقته هي الطريقة المتبعة اليوم في تصنيف المعجمات العربية الحديثة.

ولكن أساس البلاغة له خصائص ينفرد بها، لأن صاحبه قد أشار في مقدمته إلى أنه قد بناه على أسس بلاغية حتى يتعرف الناظر فيه المُتداوَلَ من ألفاظ العرب، والمستجادَ عندهم، مما يعينه على إدراك ما هو أوقَفُ على وجوه الإعجاز، وأعرَفُ بأسراره ولطائفه، ولهذا تفرد الأساس بخصائص هامة، أبرزها أنه لا يشرح الكلمة إلاّ نادراً، وبدلاً من ذلك يدخلها في جملة أو عبارة، أو

[٢٣] تقول العرب للشيء الذي لا يعسر تناوله: هو على طرف الثُمام، والثُمام: نبت في البادية لا يطول فيشقُّ تناوُلُه. ويقولون: هو لك على حبل الذراع، أي مُعَدٌّ حاضر، والحَبْل: عِرْقٌ في الذراع.

[٢٤] الإيجاف: سرعة السير. والوَضْع والإيضاع: أهون سير الإبل، يقال: وضع البعيرُ إذا عدا، وأوْضَعْتُه، إذا حَمَلْتَه عليه.

[٢٥] مقدمة أساس البلاغة: ص(د).

مَثَل أو شعر يُفْهَم معناها من سياق استعمالها، وهي طريقة فيها إبداع، لأنها لا تشرح الكلمة مُجرَّدةً عن الاستعمال، وإنما تشرحها ضمن استعمالها في كلام العرب، ولهذا استكثر الزمخشري في كتابه من العبارات البليغة، والأقوال الفصيحة، التي "تَمْلُح وتَحْسُن ولا تنقبض عنها الألسن" كما قال في المقدمة، وتخير من جيد الشعر ما يُعين على بيان دلالة الألفاظ واستعمالها.

وإضافة إلى هذا جعل يميز الحقيقة من المجاز، إذ يذكر المعاني الحقيقية التي وُضِعَتْ لها الألفاظ، ثم يذكر المعاني المجازية لها، إن وَجَد للكلمة استعمالاً مجازياً، ولا شك أن هذه مزية هامة في دراسة تطور الدلالة لألفاظ اللغة.

ولكن اهتمام الزمخشري بالجوانب البلاغية، جعله يتخلّى عن ألفاظ كثيرة، لأنها لا تحقق الغرض الذي أراده لكتابه. ومع هذه الخصائص التي تفرد بها "الأساس"، فقد أعطى الزمخشري المنهج الأسهل والأبسط، وهذا ما جعله يؤثر فيمن جاء بعده، إذ أغفلوا تلك الخصائص البلاغية وأخذوا بمنهجه في تصنيف اللغة، ومن أبرزهم الفيومي (٧٧٠هـ) في كتابه "المصباح المنير".

ج- المعجمات التي صنفت أصول الألفاظ بحسب الترتيب الهجائي وراعت أواخر الأصول:

ومهما رأينا من تطوير لدى الزمخشري (٥٣٨هـ) في الأساس، فثمة من سبقه إلى ما رأيناه لديه من تيسير في التصنيف، وإبعاد له تماماً عن مناهج الخليل وابن دريد، إلا أنه صنّف أصول اللغة بحسب أواخرها، وهذا ما فعله الجوهري (٣٩٣هـ) في "الصحاح"، وربما كان الزمخشري قد تأثر به حين تخلى عن بعض الرواسب التي وجدناها في منهج ابن فارس. وبذلك يكون الجوهري إماماً لمرحلة ثالثة تخلّت عن منهج الخليل وابن دريد وما فيه من تعقيد، وسهّلت منهج التصنيف ولكنها أخذت بأواخر الأصول، وهو أمر لا يختلف كثيراً عن الأخذ بأوائلها.

والمعجمات التي صُنِّفت في هذه المرحلة، ونَحَت في تصنيفها هذا النحو، قد اتبعت كلها منهج الجوهري في الصحاح، وإذا كان من اختلاف بينها فذاك في مدى الشمول والاتساع، أو الإيجاز والاختصار، لا في المنهج والطريقة، وإذا وقفنا على منهج الجوهري وتعرفناه، فذلك يعني أننا وقفنا على المنهج الأساسي لها جميعاً.

وإذا سألنا الجوهري عن منهجه في كتابه، رأيناه يوجز ذلك في مقدمته، فيقول: "أما بَعْدُ فإني أودعت هذا الكتاب ما صَحّ عندي من هذه اللغة، التي شرّف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها، على ترتيب لم أُسبَق إليه، وتهذيب لم أُغلَب عليه، في ثمانية وعشرين باباً، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً، على عدد حروف المعجم وترتيبها.."[٢٦].

ومن الواضح أن الجواهري يرى في منهجه منهجاً جديداً لم يُسْبَق إليه، وهذا صحيح لأنه تخلى

---

[٢٦] الصحاح ٣٣/١

عن طرائق من تقدمه أو عاصره من أصحاب المعجمات، إذ رتّب أصول اللغة بحسب أواخرها على ثمانية وعشرين باباً بعدد حروف المعجم وترتيبها، أوّلها باب الهمزة، وآخرُها باب الواو والياء. ورتّب أصول الألفاظ داخل كل باب بمراعاة أوائلها، فقسم كلّ باب إلى ثمانية وعشرين فصلاً بعدد حروف المعجم وترتيبها[٢٧]، فالألفاظ التي تنتهي بالميم مثلاً وتبدأ بالهمزة ترد في "باب الميم فصل الهمزة"، والتي تنتهي بالميم وتبدأ بالباء ترد في "باب الميم فصل الباء"، وهكذا حتى ينتهي باب الميم بـ "باب الميم فصل الواو والياء".

وداخل الفصل الواحد يرتب أصول الألفاظ بمراعاة الحرف الثاني منها، فإن كانت رباعية الأصل، نظر إلى الحرف الأوّل والثاني لتعيين الأصل الثلاثي الذي سترد بعده، ثم راعى الحرف الثالث لترتيبها إن كانت هنالك عدة أصول رباعية في هذا الموضع. ومثال ذلك (دِلْقِم) وهي العجوز أو الناقة المسنة، فهي ترد في (باب الميم فصل الدال) وترد مباشرة بعد (دلم)، وكذلك (عِظْلِم)، وهو صبغ أحمر، فهي في (باب الميم فصل العين) وترد بعد (عظم).

وطريقة الجوهري ليست من الصعوبة في شيء كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هي سهلة ولا سيما بعد الاطلاع على منهج الكتاب، وإذا وقفنا على نصوص منه، لاحظنا أنه يجمع بين شرح معاني الألفاظ والاستشهاد عليها بكلام العرب شعره ونثره، ولكن حديثه يبقى موجزاً لا نجد فيه تطويلاً واستطراداً واسعاً كالذي نجده في اللسان أو التاج.

ولكن الجوهري عمل على إثبات ما صَحّ لديه عن العرب، ورأيناه يشير إلى ذلك في مقدمته حين قال: "إني أودعت هذا الكتاب ما صَحّ عندي من هذه اللغة"، وهذا ما جعله يتخلى عن كثير من ألفاظ اللغة، لأنه اشترط أن يُثْبِت الصحاحَ فحسب، وبها سمّى كتابه "تاج اللغة وصحاح العربية"، وبذلك فالأمر ليس كما صوّر صاحب القاموس فيما بعد، حين زعم أن الجوهري قد فاته نصف اللغة "بإهمال المادة أو ترك المعاني الغريبة النادّة"[٢٨]، فلكل منهجه وطريقته، ولو نظرنا في مادة "القاموس" لوجدنا صاحبه يتكثّر بذكر اللغات الرديئة إلى جوار اللغات الجيدة دون تمييز غالباً بين هذه وتلك.

فحسب الجوهري أنه رسم المنهج، ووضع كتاباً كان قُدْوَةً لكل من أسهم في صنع المعجمات التي أخذت بمنهجه، فكانت الأوسع شمولاً في جمع اللغة وما يتصل بها من روايات أو أخبار أو أيام أو تراجم أو نحو أو صرف أو ما أشبه ذلك.

وأبرز هذه المعجمات "لسان العرب" لابن منظور (٧١١هـ)، و"القاموس المحيط" لمجد الدين الفيروز أبادي (٨١٧هـ)، و"تاج العروس من جواهر القاموس" للمرتضى الزبيدي (١١٧٠هـ). فهذه المعجمات أخذت بمنهج "الصحاح" ثم امتازت بالشمول ضمن خصائص يتفرد بها كلّ منها. ونظرة إلى اللسان مثلاً تجعلنا نجد أنفسنا أمام صحاح الجوهري منهجاً وترتيباً، ثم نجد في مضمونه غزارة

---

[٢٧] قد تنقص فصول بعض الأبواب عن هذا العدد، وذلك حين لا تكون هنالك ألفاظ تنتهي وتبدأ بحروف معينة.

[٢٨] مقدمة القاموس ٣- وانظر تعليق الأستاذ نصر الهوريني على كلام المجد في شرح ديباجة القاموس ١٧

تجعل منه "موسوعة" شاملة، إذ يورد الأصول اللغوية، وكل ما لها من فروع، فيعرض اللهجات المختلفة، ويستشهد بالشعر وكلام العرب، وقد يروي نظائر بعض الشواهد، وقد يستطرد إلى الحديث عن أصحاب الشواهد أو مناسبة بعضها، وإذا به يذكر شيئاً عن أيام العرب أو عاداتهم أو أخبارهم أو الحوادث التي ارتبطت بهذا أو ذاك، وربما وقف على أوجه الخلاف حول صيغ بعض الألفاظ ولا سيما في بعض الشواهد، أو إعراب ما أشكل فيها، وبذلك يتحول اللسان إلى مصدر هام للدراسات في اللغة والأدب والأيام والأخبار والأنساب والأعلام وما إلى ذلك، وبالإضافة إلى هذا كله فهو يوثّق مادته، ويحدد مصادر روايته، ويميز كلامه من كلام مَنْ ينقل عنه.

وبهذا يكون الجوهري في الصحاح "قد أعطى منهجاً دقيقاً لتصنيف المعجمات التي أخذت بأواخر الأصول، كما قدّم الزمخشري في "الأساس" المنهج الدقيق أيضاً للمعجمات التي أخذت بأوائل الأصول، وكلا المنهجين يلتقي الآخر في تسهيل المنهج، وقرب المتناول، ولم يصل علماؤنا إلى هذا المنهج المُيَسَّر إلاّ بعد مراحل طويلة من التطور والارتقاء بمناهج التصنيف.

وهذا يعني أن العرب لم يتأثروا في وضع معجماتهم بمؤثرات أجنبية، سواء على يد الخليل، أو على يد من جاء بعده[29]، ذلك لأن الإغريق قد تقدموا على العرب في وضع المعجمات، وألف علماؤهم عدداً منها قبل أن يطل الإسلام على آفاق الجزيرة، وكانت هذه المعجمات سهلة الترتيب، تأخذ بتصنيف الألفاظ على حروف المعجم، ونذكر منها معجم بامفيليوس pamphilius ومعجم هيلاديوس Helladius ومعجم هيزيشيوس Hesychius وكلهم من علماء الاسكندرية.

ووجود هذه المعجمات عند الإغريق، قد يثير الشك بتأثر العرب بها، ولكن ثمة أدلة تنفي ذلك عند التحقيق، فالخليل لا يستطيع الاطلاع على معجمات الإغريق، لأنه يجهل اليونانية، وحركة الترجمة لم تنشط إلاّ في عصر الرشيد، والرشيد بويع له بالخلافة سنة (١٧٠هـ)، وهي السنة التي يُرَجَّح أن يكون الخليل قد توفي فيها، ولو أن الخليل اطلع على منهج هذه المعجمات وما فيه من سهولة ويسر، لما رسم منهج كتاب العين على ما رأيناه فيه من تعقيد.

ثم إن الترجمة حين نَشطت أيام الرشيد وبعده لم تكن تُعْنَى بترجمة كتب الإغريق في الأدب واللغة، لأنهم لم يتذوقوا أدب الإغريق ليترجموه[30] وإنما اجتذبهم فكر الإغريق، فشُغِلوا بترجمة ما لديهم من طب وفلسفة، وهذا يعني أن علماء العربية ما كان لهم أن يطلعوا على معجمات الإغريق بعد الخليل، ولو أن أحدهم اطلع عليها لما ادعى أن الخليل في صنع كتابه "العين" كان له السّبْق منذ خلَق الله الدنيا، إذ نجد حمزة بن الحسن الأصفهاني (٣٦٠هـ) يقول: "صنع صاحب كتاب العين ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا.. من تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة"[31].

---

[29] انظر بحثاً قيماً للدكتور يوسف العش في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق: المجلد (١٦) سنة ١٩٤١ ص ٥١٢-٥٢١.

[30] انظر النقد الأدبي لأحمد أمين ٨٣

[31] وفيات الأعيان ١/١٧٣.

ومما يؤيد ذلك أن المعجمات العربية لم تبلغ حدّ الكمال تصنيفاً وترتيباً إلاّ بعد مراحل طويلة من التدرج والانتقال من طور إلى طور، ولو أنهم اطلعوا على معجمات الإغريق، لاستطاعوا أن يبدأوا بالطريقة السهلة الواضحة، التي تقرب من فهم الخاص والعام، ولم يمرّوا بتلك المراحل المتعددة قبل أن يصلوا إليها، ولم يتجشموا عناء البحث عن طريقة أفضل كلما ظهرت طريقة جديدة بين أيديهم. وبذلك تكون المعجمات العربية على اختلاف أنماطها من إبداع الفكر العربي، ونتيجة لجهود علمائنا منذ القرن الثاني الهجري.

❑

❑ ثبت المصادر والمراجع

-أخبار النحويين البصريين: للسيرافي أبي سعيد الحسن بن عبد الله (٣٦٨هـ): بيروت ١٩٣٦.

-أساس البلاغة: للزمخشري محمود بن عمر (٥٣٨هـ): دار الكتب المصرية ١٣٤١هـ /١٩٢٣م.

-الأضداد: للأصمعي عبد الملك بن قريب (٢١٦هـ) طبعها هفنر في كتاب واحد: بيروت ١٩١٢.

-الأضداد: لابن السكيت يعقوب بن اسحق (٢٤٤هـ) طبعها هفنر في كتاب واحد: بيروت ١٩١٢.

-الأضداد: لأبي حاتم السجستاني سهل بن محمد (٢٤٨هـ) طبعها هفنر في كتاب واحد: بيروت ١٩١٢.

-بغية الوعاة: للسيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ): مصر ١٣٢٦هـ

-البلغة في شذور اللغة: الأب لويس شيخو وأغست هفنر: بيروت ١٩٠٨

-تاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزبيدي محمد بن محمد (١٢٠٥هـ): مصر ١٣٠٦هـ

-تاريخ آداب اللغة العربية: لجرجي زيدان (١٩١٤م): مصر ١٩١١

-جمهرة اللغة: لابن دريد محمد بن الحسن (٣٢١هـ): حيدر آباد ١٣٤٤هـ

-حركة التأليف عند العرب: للدكتور أمجد الطرابلسي: دمشق ١٣٧٦هـ /١٩٥٦م.

-الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ): دار الكتب ١٣٧١هـ /١٩٥٢م.

-دراسات في فقه اللغة: للدكتور صبحي الصالح: دمشق ١٣٧٩هـ /١٩٦٠م.

-الصحاح: للجوهري اسماعيل بن حماد (٣٩٣هـ): مصر ١٣٧٦هـ /١٩٥٦م.

-ضحى الإسلام: لأحمد أمين: القاهرة -الطبعة السادسة.

-فعلت وأفعلت: للزجاج أبي اسحق إبراهيم بن محمد (٣١٠هـ): القاهرة ١٣٦٨هـ /١٩١٩م

-فقه اللغة: للدكتور علي عبد الواحد وافي / القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

-الفهرست: لابن النديم محمد بن اسحق (٣٨٥هـ): المكتبة التجارية- دون تاريخ

-فوات الوفيات: للكتبي محمد بن شاكر (٧٦٤هـ) بولاق ١٢٨٣هـ

-في أصول النحو: للأستاذ سعيد الأفغاني: دمشق ١٣٧٦هـ /١٩٥٧م

-القاموس المحيط للفيروز أبادي محمد بن يعقوب (٨١٦هـ): المكتبة التجارية بمصر – الطبعة الخامسة

-كتاب العين: المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ): انتشارات أسوة- ١٤١٤هـ

-لسان العرب: لابن منظور محمد بن المكرم (٧١١هـ) بيروت ١٣٧٤هـ /١٩٥٥م

-مثلثات قطرب أبي علي محمد بن المستنير (٢٠٦هـ): ألمانيا ١٨٥٧م

-مجلة مجمع اللغة العربية: دمشق -المجلد (١٦) -سنة ١٩٤١م

-مجمل اللغة لأحمد بن فارس (٣٩٥هـ): مصر ١٣٧١هـ /١٩١٣م

-المخصص: لابن سيده علي بن الحسين (٤٥٨هـ): بولاق ١٣١٦هـ

-مراتب النحويين: لعبد الواحد بن علي اللغوي (٣٥١هـ): مصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م

-المزهر: للسيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ): دار إحياء الكتب العربية ط١ -دون تاريخ

-المصادر الأدبية واللغوية: للدكتور عبد الحفيظ السطلي: جامعة دمشق -(أملية) ١٩٦١

-مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية: للدكتور ناصر الدين الأسد: دار المعارف بمصر ١٩٥٦م.

-المطر: لأبي زيد الأنصاري سعيد بن أوس (٢١٥هـ): بيروت ١٩٠٥م

-معجم الأدباء (إرشاد الأريب): لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ): مصر بعناية مرغليوث- دون تاريخ

-مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) مصر ١٣٦٦هـ

-المقصور والممدود / لأبي العباس أحمد بن محمد بن ولاد (٣٣٢هـ): مصر ١٣٢١هـ /١٩٠٨م

-النبات والشجر: للأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قريب (٢١٦هـ): بيروت ١٩٠٨م

-النخل والكرم: للأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قريب (٢١٦هـ): بيروت ١٩٠٨م

-نزهة الألبا في طبقات الأدبا: للأنباري عبد الرحمن بن محمد (٥٧٧هـ): مصر ١٢٩٤هـ

-النقد الأدبي: لأحمد أمين: القاهرة ١٣٧٦هـ /١٩٥٧م

-النوادر في اللغة: لأبي زيد الأنصاري سعيد بن أوس (٢١٥هـ): بيروت ١٨٩٤هـ

-الهمز: لأبي زيد الأنصاري سعيد بن أوس (٢١٥هـ): بيروت ١٩٠٥م

-وفيات الأعيان: لابن خلكان أحمد بن محمد (٦٨١هـ): دار المأمون ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م.

□□□

في نظام المعجم العربي

د. جعفر دك الباب

أولاً: آراء العلماء في المعجم العربي

يشتمل *النظام اللغوي بشكل عام على نظام صوتي ونظام صرفي ونحوي (قواعدي).*

وتوجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية في علاقة تأثير متبادل فيما بينها، ويحتل مستوى البنية الصوتية فيها مرتبة المستوى الأساسي والموجه بالنسبة إلى بقية المستويات، ولدى البحث في النظام الصوتي للعربية يظهر أن أصوات المد هي إشباع للحركات، وأن الحركات ليس لها وجود منفصل عن الأصوات الصامتة التي تلفظ قبلها وتتصل بها(١).

وقد انعكست هذه الخصائص المميزة للنظام الصوتي العربي بوضوح على المبدأ الذي يقوم عليه المعجم العربي، وتجلى ذلك في الرجوع إلى الأصل الثلاثي (أو الرباعي) المجرد من حروف الزيادة والمؤلف من أصوات صامتة فقط تشكل المادة الأصلية للكلمة ومشتقاتها.

١- هل المعجم العربي مجرد قائمة من الكلمات؟

يقوم المعجم في اللغات الأوربية على تصنيف المفردات بحسب تسلسلها الأبجدي، لذا يعتبر قائمة من الكلمات التي لا تنتظم في نظام واحد.

أما المعجم العربي فلا يقوم على تصنيف المفردات بحسب تسلسلها الأبجدي، وإنما يقوم على مبدأ آخر هو تصنيف الألفاظ العربية بحسب موادها وأصولها. ويحدد الاشتقاق الصغير (أو العام) أصل الكلمة أو مادتها الأصلية. فهل يعتبر المعجم العربي قائمة من الكلمات- الأصول التي لا تنتظم في نظام واحد؟ يرى الدكتور تمام حسان أن "اللغة العربية مكونة من ثلاثة أنظمة- نظام صوتي وصرفي ونحوي- وقائمة من الكلمات التي لا تنتظم في جهاز واحد"(٢).

يرتبط كل أصل ثلاثي في اللغة العربية بمعنى عام واحد على الأقل وضع له. ويتحقق هذا المعنى في كل كلمة توجد فيها الأصوات الصامتة الثلاثة مرتبة حسب ترتيبها في الأصل الذي أخذت منه.

ويحدد الاشتقاق الصغير أصل الكلمة. والاشتقاق الصغير هو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف (الأصوات الصامتة) وترتيبها. ويتم بحثه في علم الصرف. وبحث علماء العربية في نوع آخر من الاشتقاق سموه الاشتقاق الكبير. وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف (الأصوات الصامتة) والمعنى دون الترتيب، كما في (جذب) و (جبذ). وقد بحث ابن جني في التقليبات الستة للكلمة الواحدة وأشار إلى أنه يجمع بينها معنى مشترك. كما بحث علماء العربية نوعاً آخر من الاشتقاق سموه الاشتقاق الأكبر. وهو حين يكون بين اللفظين تناسب في المخرج- نحو (نهق) و (نعق)- فمعنى هذين اللفظين متقارب وكل منهما يدل على صوت منكرٍ، ولا اختلاف بينهما إلا بالحرف الثاني، وهو حلقي في كليهما.

وهكذا نرى أن المعجم العربي لا يتألف من مجرد قائمة من المفردات- الأصول، بل يؤلف كل أصل منها أسرة (أو عنقوداً) من الكلمات التي تشتق منه. وتشتمل كل كلمة في العنقود على الأصوات الصامتة نفسها مرتبة حسب ترتيبها في الأصل.

فالمعجم العربي -والحال كذلك- نظام مؤلف من مجموعة أنظمة، لأن كل أصل فيه يؤلف بدوره نظاماً كاملاً، ولا يظهر نظام المعجم العربي فقط لدى طرح سؤال حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين مجموعة الأصوات الصامتة التي تتألف منها الكلمات في العنقود الواحد وبين معانيها، بل يظهر أيضاً لدى طرح سؤال أوسع حول وجود علاقة مناسبة طبيعية حين عدم التقيد بترتيب الأصوات الصامتة التي تتألف منها الكلمات في أكثر من عنقود، أو حين يتم التقيد بترتيب تلك الأصوات الصامتة بنوعها العام فقط.

٢- نظرية الأصل الثنائي:

كتب الأستاذ زكي الأرسوزي: "كنت أتساءل هل الأمة محصلة للظروف التاريخية؟ أم هي عبقرية تبتدع مظاهرها ومؤسساتها كاللغة والفنون والعرف والأخلاق... الخ وتوجهها في الوجهة التي ترفع بأبنائها نحو غاية مثلى؟ وبينما كانت متحيراً في أمري متردداً بين دراسات الفن والتشريع، علّي أجد فيها قبساً يخرجني من الحيرة، إذا بصدفة سعيدة تدلني على مكمن السر: اللغة. وأما الفرصة السعيدة فهي أنني عندما كنت أتصفح القاموس رأيت الصلة بين الأفعال المتسلسلة ذات طبيعة مزدوجة: صوت وخيال مرئي، وعندما رأيت الأفعال تنتهي بصوت طبيعي كصوت خرير الماء مثلاً، وبخيال مرئي هو الماء في مجراه، هو السبب في حدوث الصوت، أدركت السر في نشأة اللغة ودهشت لمّا بدا لي شمول المبدأ الكلمات العربية جميعها"(٣).

وكتب الأستاذ محمد المبارك حول النظرية الثنائية أنه يوجد كثير من الألفاظ التي تشترك في حرفين دون الثالث وفي معنى عام يجمعها وينظم مفرداتها. وبذا يتم اكتشاف صلة جديدة بين المجموعات الثلاثية التي تشترك في حرفين من أصولها وفي فكرة كلية تجمعها، وتتكون بذلك مجموعات ثنائية كبيرة. ولتعليل هذه الصلة نجد أنفسنا أمام عدد من الاحتمالات:

أ- *يمكن القول إن الأصل في اللغة هو المجموعات الثلاثية. فالمادة الأصلية في الكلمات العربية تتألف من حروف ثلاثة، ولكن قد يعتري أحد هذه الحروف تبدل صوتي بتوالي الأزمان أو باختلاف القبائل والبيئات، ولذلك تتكون هذه المجموعات الثنائية ويكون هذا الاشتراك بين المجموعات الثلاثية في حرفين دون ثالث. ولكن هذا القول لا يمكن تعميمه.*

ب- *ويرى عدد من الفقهاء قديماً وحديثاً أن الألفاظ العربية ترجع في منشئها التاريخي القديم إلى أصول ثنائية زيدت حرفاً ثالثاً في مراحل تطورها التاريخي. وقد جاء هذا الحرف الثالث منوعاً للمعنى العام الذي تدل عليه الأصول الثنائية. وأكثر الذين يقولون بالأصل الثنائي للألفاظ العربية يقولون كذلك أن هذه الأصول الثنائية نشأت عن حكاية الأصوات الطبيعية المقارنة للفعل أو الحدث الذي تدل عليه تلك الأصوات. ويتفرع عن هذا الرأي القول بتقارب معاني الألفاظ لتقارب أصواتها. وقد عقد ابن جني في (الخصائص) فصلاً خاصاً عنوانه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) وفصلاً آخر عنوانه (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني).*

ويتابع الأستاذ المبارك: وإذا صح أن الأصل من الحروف الثلاثة حرفان والثالث منوع للمعنى العام ومخصص له، فأين يقع الحرفان من الثلاثة؟ وأين يقع الحرف المضاف؟ إن أكثر الأمثلة التي أوردها الباحثون تدل على أن الحرف المضاف هو الأخير. ولكنهم كذلك أوردوا أمثلة يقع فيها الحرف الثالث في وسط الكلمة الثلاثية أو في أولها.

ويعلق الأستاذ المبارك على هذا الموضوع بإعلان موافقته على رأي الأستاذ العلايلي الذي يتلخص في استقرار العربية على الأساس الثلاثي واعتباره الأصل الثنائي مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجدياً إلا ضمن هذا الاعتبار التاريخي(٤).

ويؤيد الأمير مصطفى الشهابي النظرية الثنائية فيقول: "والمرجح أن العربية الأولى تكونت مثل غيرها من اللغات، من أصول قليلة ثنائية البناء- أي مركبة من حرفين- تحاكي الأصوات التي ينطق بها الإنسان البدائي على مقتضى غريزته. ثم تعددت الكلم بإضافة حرف أو أكثر إلى الأصل الثنائي.."(٥).

أورد الأمير مصطفى الشهابي المثالين التاليين على اشتقاق الألفاظ من أصول ثنائية:

أ- *لفظ (صلْ) أحادي الهجاء- أي المقطع- مؤلف من حرفين متحرك فساكن. وهو صوت مادة يابسة إذا تحركت. فالعرب شددت اللام، أي اشتقت من اللفظ الثنائي فعلاً ثلاثياً يدل على*

هذا الصوت وهو الفعل (صَلَّ) ثم زادت صاداً ثانية ولاما ثانية أي كررت الثنائية (صل) فصار لها فعل رباعي هو الفعل (صَلْصَل).

ب- لفظ (قَطْ) ثنائي يحاكي صوت المقطع، أي أنه إبانة بعض أجزاء الجسم عن بعض. فقد شددوا الطاء فكان لهم الفعل الثلاثي (قطّ). أبدلوا من الطاء الثانية عيناً فصار الفعل (قطع) ولاما فصار (قطل) وفاء فصارت (قطف)... الخ. وكلها تأتي بمعنى فصل بعض أجزاء الجسم عن بعض، مع بعض تفاوت قليل في المعاني(٦).

وعن (منشأ اللسان العربي) كتب الأستاذ زكي الأرسوزي أن اللسان العربي اشتقاقي البنيان، ترجع كل كلماته إلى صور صوتية- مرئية، مقتبسة مباشرة عن الطبيعة:

أ- عن الطبيعة الخارجية تقليداً للأصوات الحاصلة فيها، مثال ذلك (ترّ)، (فقّ)، (خرّ)، (خشّ)، (زمّ).

ب- أو عن الطبيعة الإنسانية بياناً لمشاعرها، مثال ذلك: (أنّ)، (أهّ)(٧).

وهكذا يتبين أن الثنائية المؤلفة من مقطع صوتي واحد (صِلْ، خَرْ) لا توجد إلا في الطبيعة نفسها. وحين يحاكي الإنسان هذه الأصوات الطبيعية ليشير بذلك إلى الفعل (صَلّ، خرّ) ينطق كل كلمة في مقطعين صوتيين (صَلْ+لَ، خرْ+رَ). فالإنسان ينطق أولاً المقطع الصوتي الذي يقتبسه من الطبيعة، وينطق بعده مباشرة مقطعاً صوتياً جديداً يبتدعه بلفظ صوت صامت من نوع الصامت الذي توقف عليه في المقطع الأول، لكنه يختلف عنه من حيث كون الثاني متحركاً.

وإذا نطق الإنسان أولاً المقطع الصوتي الذي اقتبسه من الطبيعة ونطق بعده مباشرة الصوتين الصامتين نفسيهما مع تحريك الثاني منهما (خرْ+خ+رَ)، يكون بذلك قد أضاف إلى الأصل الطبيعي (المؤلف من مقطع واحد) مقطعين صوتيين آخرين.

وميز الدكتور صبحي الصالح، حين تطرق إلى الثنائية وعلاقتها بالمناسبة الطبيعية، بين الثنائية التاريخية والثنائية المعجمية، وأشار إلى أن الثنائية قد اتخذت في أذهان القائلين بها صوراً مختلفة وأشكالاً متنوعة: فكانت الثنائية التاريخية ذات المقطع الواحد، والثنائية المعجمية التي ضعّف حرفها الثاني فأصبحت ثلاثية بوساطة الشدة. والثنائية المعجمية التي كرر مقطعها بكلا حرفيه فأصبحت رباعية بطريقة المضاعفة والتكرار(٨).

وهكذا نرى أن أول سؤال يطرحه المعجم العربي يدور حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة لمحاكاة أصوات الحيوان والطبيعة. ويعني ذلك أن دراسة المبدأ الذي يقوم عليه المعجم العربي تحيل إلى البحث في الطور الأول من نشأة الكلام الإنساني ويفضي هذا الأمر إلى طرح سؤال ثان حول أسبقية الفعل العربي (أي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل) على المصدر.

٣- المصدر أسبق أم الفعل؟

إن المبدأ الذي يقوم عليه المعجم العربي هو الرجوع إلى الأصل الثلاثي (أو الرباعي) المجرد من حروف الزيادة. ويتطابق هذا الأصل مع صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر.

ولدى البحث في المعجم العربي، نجد أن علماء العربية مختلفون حول موضوع التقدم بين المصدر والفعل. فيرى علماء البصرة أن المصدر يتقدم ويجعلونه أصلاً في الاشتقاق، في حين يرى علماء الكوفة أن الفعل يتقدم ويجعلونه أصلاً في الاشتقاق.

يقضي المنهج التاريخي العلمي الذي نتمسك به باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية ترتبط بالتفكير منذ بداية نشأتها، ولم تنشأ اللغة مكتملة دفعة واحدة، كما لم يكتمل التفكير دفعة واحدة، وتم اكتماله بالانتقال من المشخص المحسوس إلى المجرد العام. لذا فإن اللغة قد نشأ أصلها وتشكل منه بالتدرج نظام لغوي مكتمل، على نحو مواز لنشأة التفكير الإنساني وتشكّل نظامه واكتماله. وعليه فإن الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الإخبار (التي تفيد الإسناد والزمن) أكثر تشخيصاً من صيغة المصدر (التي لا تفيد الإسناد والزمن، بل تفيد معنى الحدث مجرداً عن فاعله وزمانه). ومن ثَم فإن الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي أسبق في الظهور من المصدر.

ويسعى من يقولون بتقدم المصدر على الفعل إلى عدم الإقرار بأن نظام المعجم العربي يبنى على أساس الانطلاق من الفعل. فيقولون إن نظام المعجم العربي يقوم على الرجوع إلى المادة الأصلية أو الحروف الثلاثة الأصلية. ويزعمون أن تلك المادة الأصلية ليست صيغة الفعل الماضي نفسها للشخص الثالث المفرد المذكر، وإنما هي مادة مجردة يتم الحصول عليها بالاستنباط الصرفي الذي يحدده الاشتقاق الصغير، وأن الأصل في الاشتقاق هو المصدر.

كتب الأستاذ زكي الأرسوزي مايلي: "إن الصوت يستدعي إليه الانتباه ويبعث في الوجدان معنى معاً. فإذا كان الذهن العربي قد صنع أول ما صنع الأفعال بالشدة أو بالتكرار (نحو خرّ الماء خريراً، أو خرخر) ثم اشتق الأسماء والمصادر من الأفعال، فإن هذا لا يعني أن الفعل يتقدم على الحدس المعبر عنه بالمصدر إلا من حيث الظهور. أما من حيث الحقيقة فإن الحدس يتقدم على الفعل، لأن الفعل ذاته ليس غير الحدس وقد انتشر في الزمان عندما تبناه الوجدان. ووجهة النظر هذه تحل المشكلة التي دار حولها الخلاف في القرون الوسطى، مشكلة التقدم بين المصدر والفعل(٩).

إننا نوافق على النتيجة التي توصل إليها الأستاذ الأرسوزي التي تقول إن الفعل يتقدم على المصدر من حيث الظهور. هذا وكتب الدكتور ربحي كمال عن مميزات اللغات السامية مايلي: "إن لمعظم الكلمات في هذه اللغات مظهراً فعلياً، حتى في الأسماء الجامدة والألفاظ الأعجمية المعرّبة. ويرى بعض علماء اللغة العربية أن المصدر الأسمى هو الأصل الذي تشتق منه أصول الكلمات و الصيغ، بيد أن هذا رأي خاطئ لأنه يجعل أصل الاشتقاق مخالفاً لما هو مألوف في سائر اللغات

السامية. وقد يكون أولئك العلماء متأثرين بالفرس الذين بحثوا في اللغة العربية بعقليتهم الآرية، والمصدر الاسمي هو أصل الاشتقاق عند الآريين"(١٠).

إننا نؤيد ما ذكره الدكتور ربحي كمال من أن الفعل هو أصل الاشتقاق في العربية وليس المصدر.

ويؤكد ذلك أن المعجم العربي لا يقوم على الرجوع إلى المصدر، بل يقوم على الرجوع إلى الأصل المجرد من حروف الزيادة. ولو كان الأصل في الاشتقاق هو المصدر، لأوجب ذلك أن يبنى المعجم العربي على أساس الانطلاق من المصدر. ولكننا لا نؤيد اتهامه علماء العربية– الذين قرروا أن المصدر هو الأصل– بأنهم قد تأثروا بالفرس في ذلك، ونرى أن السبب الذي حملهم على هذا الاعتقاد يعود إلى أن دراستهم للموضوع لم تكن تاريخية (تطورية) ولا بد لتحديد أسبقية المصدر أو الفعل من القيام بدراسة تاريخية (تطورية) للغة في ارتباطها بالتفكير ووظيفة الإبلاغ.

ثانياً: نظام المعجم العربي يشير إلى أصالة اللسان العربي وبدائية نشأته.

حين نصف لساناً ما بالأصالة نقصد أنه يتوافر فيه عنصران هما: الإيغال في القدم من ناحية، والاستمرار في الحياة من ناحية أخرى.

وعليه فإن بنية اللسان الأصيل بهذا المعنى يجب أن تتمتع بجملة خصائص من حيث المفردات والأصوات والصرف والنحو تشير إلى إيغاله في القدم. وأول قرينة على إيغال لسان ما في القدم هي وجود شبه بين ألفاظه وأصوات الحيوان والطبيعة، لأن هذا الشبه يدل على محاكاة الإنسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة. ويؤكد من ثم بدائية نشأة ذلك اللسان.

إن الخاصة المميزة للبنية الصوتية العربية (التي تتجلى في المبدأ التالي: لا وجود بشكل منفصل للصوت الصائت– القصير أو غير القصير أي الحركات والمدات– عن صوت صامت يلفظ قبله ويتصل به) تعكس طور محاكاة الإنسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة(١١)، وتؤكد من ثم بدائية نشأة اللسان العربي.

انعكست الخاصة المميزة للبنية الصوتية للعربية في طريقة تحديد أصل الكلمات في العربية.

وظهر ذلك في تمتع البنيية الصوتية لمعجم مفردات العربية بخاصة مميزة تجلت في أن أصل المفردات في المعجم العربي يتحدد على أساس الأصوات الصوامت التي يشتمل عليها فقط(١٢). وبذا يطرح المعجم العربي سؤالاً حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة لمحاكاة أصوات الحيوان والطبيعة.

ونستنتج من ذلك كله أن اللسان العربي لسان أصيل بدائي النشأة.

١- لماذا يتحدد أصل المفردات في المعجم العربي على أساس الأصوات الصامتة التي يشتمل عليها فقط؟

كتب الأستاذ زكي الأرسوزي:

"وأما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي ترجع كلماتها جميعاً إلى أصوات الطبيعة... وفضلاً عن أن اللسان العربي بدائي النشأة، فإن كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفوياً من انبثاق المعنى دون طائلة العقل. هذه الحقيقة تدل عليها أمور مختلفة، منها أن أصوات الهيجان الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق لمعظم كلماتنا تشير إلى العلاقة بين اللغة الطبيعية واللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة، ونحن نستخلص من ذلك أن معاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلاً مستقلاً عن اجتهاد المجتهدين. فما للذهن إلا أن يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي أنشأها"(١٣).

وعن خصائص اللغة العربية كتب الأستاذ زكي الأرسوزي: "إنه لمن الثابت بحكم التاريخ أن اللغات الإفرنسية والإيطالية والإسبانية قد حصلت من تحول اللغة اللاتينية، وكان ذلك بتأثير عوامل سياسية اجتماعية، وإنه لمن الثابت بحكم التاريخ أيضاً أن اللغة الإفرنسية هي لهجة منطقة باريس، المنطقة التي طبعت مقاطعات فرنسا الأخرى بطابعها السياسي والثقافي فجعلت لهجاتها تتراجع أمامها فتندثر.

وإنه على هذه الدراسة قد قام الزعم بأن العلاقة بين اللسان العربي واللغات السامية الأخرى علاقة أخوة ترجع بأصولها إلى اللغة الأم التي هي لغة سامية بائدة، وإن ثمة لهجات عربية تقلصت أمام طغيان لهجة قريش، لهجة الديانة والسياسة.

إن الكلمات العربية ذات أصول في الطبيعة، وإن مبدأ الصحة فيها قد تعين من قبل الفطرة لا من قبل العرف والعادة. ثمة خطأ شائع بين اللغويين وهو أن العلاقة بين المعنى واللفظة في اللسان العربي على مثال العلاقة بينهما في اللغات الحديثة- علاقة اصطلاحية. بمعنى أن اللفظة تشير إلى معناها إشارة فقط بيد أن اللسان العربي ذو بنيان عضوي تنم فيه الكلمة عن المعنى وتوحي به إيحاء حتى إن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب على اللفظة مما يجعل صاحبه أكثر استعداداً من غيره لفهم الأخلاق والديانة. إنما هو منظومة صوتية تعبر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلت عليه(١٤).

أوجد الأستاذ عبد الحق فاضل في كتابه "مغامرات لغوية (ملكة اللغات)"(١٥) فرعاً جديداً في علم اللسان سماه (الترسيس) ويميز الأستاذ فاضل دراسة أصول الكلمات أو التأثيل Etymology عن الترسيس. فالترسيس هو إعادة اللفظة إلى جدتها الأولى في صورتها التي نطق بها الإنسان الأول (البدائي) تقليداً لأحد الأصوات المسموعة مثل محاكاة أصوات الطبيعة أو الحيوانات، مع تعقب المراحل التطورية التي قطعتها تلك اللفظة حتى وصلت إلى الصورة التي نعرفها في إحدى اللغات أما التأثيل (أي دراسة أصول الكلمات) فهو رد الكلمة إلى أمها المباشرة أو جدتها المباشرة أو القريبة.

وكان الأستاذ فاضل قد ذكر أمثلة عن الترسيس في مقالته بعنوان: "آثار حيوانية في اللغة العربية"(١٦).

يرى الأستاذ فاضل "أن اللغة العربية مازالت تحتفظ بالألفاظ البدائية -الرسية- الأولى إلى جانب الألفاظ الراقية الحضارية المتفرعة منها. فهي لذلك تمكننا من إقامة علم (نشأة اللغة) على أركان وطيدة بالطريقة الترسيسية. وهي وحدها تمدنا بمادة (علم الترسيس) بينما جميع بناتها الساميات والحاميات والآريات وغيرها من لغات بني آدم لا تكفي إلا للتأثيل(١٧)

كما يرى الأستاذ فاضل أنه "لما كان الترسيس هو الأساس الذي سيقوم عليه علم (نشأة اللغة) وما يتصل به من علوم اللغة، وبما أن الترسيس سيهدم كذلك بعض النظريات اللغوية السائدة ويجلو بعض الغوامض ويملأ بعض الثغرات في (فقه اللغة) البشري. فإن اللغة العربية وتطوراتها وتفرعاتها وهجراتها ستكون الأساس المكين لعلم (فقه اللغة) العالمي العام الذي سيعاد النظر فيه بجملته ومختلف فروعه ويعاد تخطيطه وتشييد صرحه على تصميم جديد من قوانين اللغة العربية وإيحاءاتها. وسيتضح كم سيرتقي (علم اللغة) ويصحح الكثير من أخطائه ويقضي على الكثير من تلكئه هنا وتردده هناك.

وبأي سرعة، حالما يأخذون بسلوك الطريق الاستقرائي العلمي الصحيح في دراسته ابتداء من اللغة العربية" (١٨).

وكتب الأستاذ عبد الحق فاضل مقالة بعنوان: "حول (المغامرات اللغوية)"(١٩) جاء فيها "المعروف أن اللغات البدائية هي التي يقترب الشبه بين ألفاظها والأصوات الطبيعية التي نشأت منها.

أما اللغات الراقية فقد ذهبت أصواتها وبقيت الكلمات الحضارية الراقية التي تولدت منها، لا سيما أن الأمم المتحضرة قد تنقلت منذ أقدم العصور من مكان إلى مكان واختلطت لغاتها بغيرها. ولكن العربية وحدها تقدم لنا أرقى الكلمات الحضارية والثقافية مع الحلقات المتسلسلة التي تقودنا إلى البدايات الأولى. وسبب ذلك هو الظروف الفريدة التي تلابس الجزيرة العربية، فقد بقي وسطها الرملي المجدب محافظاً على حياة البداوة والبدائية على حين راحت أطرافها المتحضرة تصنع من تلك الخامة اللغوية مفردات حضارية باذخة، وإذ بهذه العربية تغدو لغة الراعي والفيلسوف في وقت واحد".

وأشار الأستاذ فاضل في تلك المقالة إلى أن العلماء قرروا أن اللغة البشرية تكونت من أصول خمسة بوجه العموم نجدها كلها صريحة واضحة في العربية، على حين أن أية لغة حية أخرى لا توجد فيها إلا بعض هذه الأصول إن وجدت. والواقع أنهم إنما توصلوا إلى هذه الأصول الخمسة من استقراء عدد غير قليل من اللغات البدائية التي لا تزال تحتفظ بجذورها الصوتية لعدم ارتقائها وابتعادها عن صورة ولادتها. وهذه الأصول الخمسة هي:

١- محاكاة أصوات الطبيعة: وكمثل نذكر صوت الماء (شلشل) ومنه ترشرش الماء، ثم رش ورشاش، ثم رذ ورذاذ، ثم ذر وذرى ومذراة وذرة...

٢- تقليد أصوات الحيوانات: ونذكر من الأسماء التي سميت بأصواتها: البلبل واللقلق والجدجد والصرصر.

٣- تقليد الأصوات المصطنعة: أي الأصوات التي يحدثها الإنسان في بعض أعماله، مثل صوت القطع (قط)و (وصج) و (طق).

٤- تقليد الإنسان لنفسه: في الأصوات الطبيعية التي تصدر عنه تلقائياً في مختلف حالاته، مثل (قهقه) و (قاء) و (أنّ) و (عطس).

٥- تقليد أصوات الطفل: (لغ لغ) و (بابا) و (تاتا) و (دادا). إننا نرى أن الأستاذ عبد الحق فاضل بنى نظريته القائلة بأن اللغة العربية (ملكة اللغات) بعد دراسة صوتية مقارنة للفظ كلمات مفردة في عديد من اللغات بالطريقة الترسيسية. وقد سمى كتابه (مغامرات لغوية) لأن النظرية التي يقترحها تحتاج من أجل تدعيمها إلى الكشف عن حقائق في اللغة العربية نفسها تؤكد أنها اللغة الإنسانية الأولى، وتبين نشأتها ومراحل اكتمال نظامها اللغوي.

٢- العلاقة بين الأصل في المعجم والأصل في الاشتقاق في العربية.

قرر علماء العربية أن المبدأ الذي يقوم عليه نظام المعجم العربي هو الأصل المجرد من حروف الزيادة. ويتحدد وفق قواعد الاشتقاق الصغير (في علم الصرف) كيف يتم الحصول على الأصل المجرد من حروف الزيادة. فهل يعني ذلك أنهم قرروا أن الأصل في المعجم هو الأصل في الاشتقاق؟

من أجل الحصول على الأصل المجرد من حروف الزيادة، توجب قواعد الاشتقاق الصغير - بالنسبة إلى الأصل غير السالم- رد الحرف المعل أو المبدل فيه إلى أصله وفك الإدغام فيه (قال قوَل، مدّ مدَد). فهل يعني ذلك أن الصيغ - الأصول غير السالمة- هي صيغ لغوية حقيقية، في حين أنها تعتبر بعد رد حروف العلة إلى أصلها وفك الإدغام صيغاً مثالية مفترضة (غير حقيقية) وغير مرتبطة بوظيفة الاتصال؟

قد يتوهم بعض الباحثين أن صيغ الأصول غير السالمة (التي ردت حروف العلة فيها إلى أصلها وفك ادغامها) كانت في وقت مضى صيغاً لغوية حقيقية ثم انصرف عنها فيما بعد. أفرد ابن جني فصلاً في "الخصائص" للإجابة عن هذا السؤال بعنوان: (باب في مراتب الأشياء وتنزيلها تقديراً وحكماً لا زماناً ووقتاً)(٢٠). قال فيه: "هذا الموضع كثير الإبهام لأكثر من يسمعه، لاحقيقة تحته.وذلك قولنا: الأصل في قام قوَم، وفي باع بيَع، وفي طال طوُل، وفي خاف ونام وهاب، خوِف ونوِم وهيِب، وفي شدّ شدد... فهذا يوهم أن هذه الألفاظ وما كان نحوها - مما يُدّعى أن له أصلاً

يخالف ظاهر لفظه- قد كان مرة يقال. حتى إنهم كانوا يقولون في موضع قام زيد: قوَم زيد، وكذلك نوِم جعفر، وطوُل محمد، وشدد أخوك يده، واستعدد الأمير لعدوّه، وليس الأمر كذلك بل ضده.

وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه.

وإنما معنى قولنا: إنه كان أصله كذا: أنه لو جاء مجيء الصحيح ولم يُعلّل لوجب أن يكون مجيئه على ما ذكرنا. فأما أن يكون استعمل وقتاً من الزمان كذلك، ثم انصرف عنه فيما بعد إلى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده أحد من أهل النظر...".

لقد رفض ابن جني رفضاً قاطعاً القول بأن صيغ الأصول غير السالمة (التي ردت حروف العلة فيها إلى أصلها وفك إدغامها) كانت في وقت ما صيغاً لغوية حقيقية.

يوجد اتجاهان في تحديد العلاقة بين الأصل في المعجم العربي والأصل في الاشتقاق في العربية:

الأول: اتجاه علماء البصرة: يقوم بتمايز الأصل في المعجم عن أصل الاشتقاق في العربية فبالنسبة إلى أصل المعجم العربي، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأصل في المعجم مادة مجردة (الحروف الثلاثية الأصلية) يتم الحصول عليها بالاستنباط الصرفي وليس الأصل صيغة لغوية حقيقية. وبالنسبة إلى أصل الاشتقاق في العربية يرون أن أصل الاشتقاق هو المصدر وهو الصيغة اللغوية الأولى التي يتولد منها النظام اللغوي.

الثاني: اتجاه علماء الكوفة والمستشرقين وعلماء الساميات: يقول بعدم تمايز الأصل في المعجم عن أصل الاشتقاق في العربية. فبالنسبة إلى أصل المعجم العربي، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأصل صيغة لغوية حقيقية هي صيغة الفعل الماضي المجردة المسندة للشخص الثالث المفرد المذكر. وبالنسبة إلى أصل الاشتقاق في العربية، يرون أنه الأصل المعجمي نفسه.

وكنا نتبنى الاتجاه الثاني.

وبنتيجة التعمق في دراسة المادة اللغوية للعربية باستخدام المنهج التاريخي العلمي، تأكد لنا تمايز الأصل في المعجم العربي عن أصل الاشتقاق في العربية. وقررنا رأياً خاصاً بنا بشأن العلاقة بين الأصل في المعجم وأصل الاشتقاق اللغوي، هو التالي: الأصل في المعجم اللغوي الإنساني رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها مفردات اللغة من ناحية أولى، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية. والأصل في الاشتقاق في النظام اللغوي الإنساني هو الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى التي ولد تطورها النظام اللغوي الإنساني في جميع مستوياته.

لذا نقرر أن الأصل في المعجم العربي (ك. ت. ب.) رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها المفردات العربية من ناحية وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية. ويعني هذا أن الأصل في المعجم العربي ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر/ كتب (هو)/. ويظهر ذلك

أن علماء البصرة أصابوا حين قرروا أن الأصل ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر نفسها. ولكن علماء البصرة لم يصيبوا حين قرروا أن الأصل مادة أصلية ويقصدون بذلك الحروف المجردة أي صيغة افتراضية (مجردة) لأن الأصل الأول في المعجم اللغوي الإنساني صيغة صوتية (مادية) ترتبط بالنشأة الصوتية للغة الإنسانية بنتيجة محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة.

٣- تحليل الأصل الثلاثي صوتياً وكيف كان ينطق؟

إذا حللنا الفعلين (شحج) و (نزب) من الناحية الصوتية، نجد أن كلاً منهما يتكون من ثلاثة مقاطع صوتية (شَ+حَ+جَ) (نَ+زَ+بَ)، أي أنها لا يمكن أن تكون محاكاة لأصوات الحيوان، لأن الحيوان لا يستطيع نطق أصوات متميزة بعضها عن بعض في مقاطع صوتية منفصلة، بل ينطق أصواتاً مبهمة في وحدة مندمجة.

وما دام الأمر كذلك، فما هو السبب في أن نظام المعجم العربي قد بني انطلاقاً من الأصل ثلاثي الأصوات الصامتة (المتطابق مع صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر)؟ ولماذا يعتبر ذلك الأصل خوارزماً رياضياً لاشتقاق كلمات وصيغ جديدة منه؟ ولماذا حافظ هذا الأصل الثلاثي على لحمته دون تغيير على مر القرون؟ لا شك أن هناك سراً يرتبط بطبيعة الأصل العربي ثلاثي الأصوات الصامتة! فما هو ذلك السر؟! وكيف نكشفه؟.

من الرجوع إلى الدراسات الصوتية في علم اللغة العربية وعلم اللغة العام وعلم اللغة المقارن، تبين لنا ما يلي:

١- كشف الأكاديمي فارتوناتوف، في دراسة صوتية مقارنة للغات الهندية الأوربية القديمة، أن اللغة الهندية الأوربية - الأصل كانت تشتمل على الصوت (a) القصير جداً والذي يتميز عن الصوت (a) القصير بأنه لا يشكل مقطعاً صوتياً(٢١).

٢- توجد نظرية في علم اللغة العام (قال بها ف. ليمان) تفترض بأن اللغة الهندية الأوربية الأصل كانت تشتمل فقط على صوت صائت واحد غير محدد (أي لا يشكل مقطعاً صوتياً وتنحصر وظيفته في تسهيل نطق الكلمات المؤلفة من أصوات صامتة).

وترى تلك النظرية أن الأصوات الصامتة كانت كثيرة ومن بينها عدة أصوات حلقية(٢٢).

٣- يذكرنا ذلك بما نقله سيبويه على لسان الخليل حين قال: "وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به"(٢٣).

٤- وذكر ابن جني في (الخصائص) ما يلي: "حدثني أبو علي رحمه الله قال: دخلت هيتا وأنا أريد الانحدار منها إلى بغداد. فسمعت أهلها ينطقون بفتحة غريبة لم أسمعها قبل فعجبت منها. وأقمنا هناك أياماً إلى أن صلح الطريق للسير فإذا أنني قد تكلمت مع القوم بها. وأظنه قال لي: إنني لما بعدت عنهم أنسيتها"(٢٤).

٥- وأشار ابن جني إلى الزمزمة في اللغة العجمية: "... قال وإنما خفي حال هذا في اللغة العجمية لما فيها من الزمزمة، يريد أنها لما كثر ذلك فيها ضعفت حركاتها وخفيت"(٢٥).

٦- هذا وقد ذكر علماء العربية غمغمة قضاعة فقالوا: "وكانت قضاعة إذا تكلموا غمغموا، فلا تكاد تظهر حروفهم" ويعرفون الغمغمة بأنها الكلام الذي لا يبين.

من كل ذلك نستنتج أن الأصل في المعجم. المؤلف من ثلاثة أصوات صامتة (شحج، نزب) كان الإنسان البدائي القديم يلفظه في مقطع صوتي واحد لأنه يحاكي فيه أصوات الحيوان، فلا تتميز فيه أصوات منفصلة بعضها عن بعض في مقاطع مستقلة، بل تتصل بكل صوت صامت فيه فتحة خفيفة لتمكّن فقط من النطق به.

ويدعم ما ذهبنا إليه إشارة علماء العربية الأوائل إلى أن الفتحة أخف الحركات الثلاث. كما أن الرجوع إلى أوزان الفعل الثلاثي يرجح الاستنتاج الذي وصلنا إليه. فللفعل الثلاثي ستة أوزان هي:

١- باب (نَصَرَ- يَنصُر) فتح ضم

٢- باب (ضَرَبَ- يضرِب) فتح كسر

٣- باب (فَتَحَ- يفتَح) فتحتان

٤- باب (فَرِحَ- يفرَح) كسر فتح

٥- باب (كَرُمَ- يكرُم)ضم ضم

٦- باب (حَسِبَ- يحسِب).كسرتان

ويتدرج هذا الترتيب للأوزان حسب كثرة الأفعال في كل باب. فأكثر الأبواب أفعالاً باب نصر، فضرب، ففتح، ففرح، فكرم. وأقلها باب حسب. يبلغ مجموع حركات الأصوات الصامتة في أوزان الفعل الثلاثي(١٨) حركة -منها (١٥) حركة فتح، وحركتا كسر، وحركة ضم واحدة. وإذا أخذنا بالاعتبار أن الكسرة والضمة لا تظهران إلا في أبواب (فرح، كرم، حسب)- التي تتميز بقلة أفعالها من ناحية، وبأن غالبية الأفعال التي تدخل فيها ذات معنى عام ومجرد من ناحية أخرى- يتأكد لنا أن الفتحة هي أولى الحركات ظهوراً في النظام الصوتي للعربية. لذا اقترحت اعتبار حركة الفتحة أصلاً بالنسبة للحرف العربي الذي يشير إلى صوت صامت ولا حاجة بالتالي لتثبيتها في الكتابة.

وطالبت بإلزام شكل جميع الحروف الصامتة الساكنة أو المتحركة بغير الفتحة في جميع الكلمات. ودعوت إلى اعتماد هذه الطريقة في تعليم التلاميذ مبادئ الكتابة والقراءة العربية وفي صفوف محو الأمية للكبار(٢٦).

إن النتيجة العلمية التي توصلنا إليها والتي تقول: إن الأصل في المعجم المؤلف من ثلاثة أصوات صامتة (شحج، نزب) كان يلفظ في مقطع صوتي واحد، تشير إلى أن هذا الأصل كان يلفظ كذلك لأنه كان يحاكي أصوات الحيوان في النطق الحيواني.

وبما أن نظام المعجم العربي يقوم بشكل أساسي على الرجوع إلى الأصل ثلاثي الأصوات الصامتة، فمن الطبيعي أن يبرز السؤال التالي: هل ظهرت جميع الأصول الثلاثية في المعجم العربي نتيجة لمحاكاة الإنسان أصوات الحيوان؟

ويرتبط بهذا السؤال سؤالان آخران: الأول- أين تقع في نظام المعجم العربي الأصول التي ظهرت نتيجة لمحاكاة لإنسان أصوات ظواهر الطبيعة؟.

والثاني: أين تقع في نظام المعجم العربي الأصول التي ظهرت نتيجة انعدام المحاكاة وإقامة علاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول؟

ثالثاً: رأينا في الأصل في المعجم العربي.

١- رأينا في نشأة اللغات الإنسانية (٢٧).

يستند رأينا في نشأة اللغات الإنسانية إلى المبادئ التالية:

١) القانون الأساسي في جميع اللغات الإنسانية هو مبدأ تقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع صوتية متميزة يتألف منها الكلام الإنساني.

٢) لم تخضع نشأة اللغة الإنسانية لقوانين المنطق، بل كانت خاضعة لقانون صوتي يرتبط بقدرة الإنسان على التقطيع الصوتي وتطور تلك القدرة.

٣) تلازم النطق والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة اللغة الإنسانية.

وانطلاقاً من هذا التلازم، نربط نشأة اللغة الإنسانية بنشأة الإنسان نفسه. وتجلى التلازم من خلال علاقتين مترابطتين بعضهما مع بعض:

أ- علاقة النطق بالتفكير التي تتمثل في تلازم المبنى (اللفظ) و (المعنى) الذي يحمله.

ب- علاقة التفكير بوظيفة الإبلاغ التي تتمثل في تلازم (المعنى) و (وظيفة الإبلاغ).

٤) المنهج الوصفي الوظيفي قادر على وصف البنية اللغوية وبيان وظيفتها الإبلاغية اعتباراً من اكتمال النظام اللغوي (الصوتي والصرفي والنحوي) الذي يرتبط بالتفكير المجرد وعمل قوانين المنطق. أما تفسير أسباب تمتع لغة ما بخصائص بنوية، فلا يصلح له المنهج الوصفي الوظيفي لأن الأمر يتعلق بمرحلة ما قبل اكتمال التفكير المجرد (المنطقي) وهي في الوقت نفسه مرحلة ما قبل اكتمال النظام اللغوي بمستوياته المتدرجة.

والمنهج التاريخي العلمي هو المنهج الذي يبين كيف اكتمل النظام اللغوي بربطه بتطور قدرات الإنسان على التقطيع الصوتي وقدرته على الانتقال من التفكير المشخص إلى التفكير المجرد.

٥) يجب تمييز الأصل في المعجم اللغوي الإنساني عن أصل الاشتقاق في النظام اللغوي.

(أي القواعدي: الصرفي والنحوي) الإنساني. ويستتبع ذلك ضرورة فصل دراستهما بعضهما عن بعض. ونرى أن الأصل في المعجم رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها مفردات اللغة من ناحية، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية أخرى.

وأصل الاشتقاق في النظام اللغوي (القواعدي) هو الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى التي ولد تطورها النظام اللغوي الإنساني في جميع مستوياته.

٦) في الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى التي استخدمت في بداية التخاطب الإنساني اللساني كانت تتوافر بالضرورة الشروط الأربعة التالية:

أ- أن تكون لفظة مؤلفة من مقطعين صوتيين متميزين بعضهما عن بعض، لأن النطق الإنساني تميز عن النطق الحيواني بتقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع متميزة.

ب- أن تكون كلمة تفيد جملة ضمن سياق استخدامها.

جـ- أن تعبر عن بداية التفكير القائم على إدراك مشخص.

د- أن تؤدي أول وظيفة إبلاغية للغة الإنسانية، وهي برأينا وظيفة الطلب (الأمر) إذ إن الطلب يعبر عن الرغبة في التعاون المشترك بين الناس.

ولا تتحقق هذه الشروط جميعاً إلا في الصيغة العامة للطلب (الأمر) للمواجه (الشخص الثاني). لذا نقرر أن الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى كانت الصيغة العامة للطلب (الأمر) للشخص الثاني.

٧) كان إدراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه البداية الأولى من تكوّن التفكير الإنساني، ويعني ذلك بالضرورة أن الكلام الإنساني قد مرّ في نشأته بطور أولي كان أصل المعجم اللغوي فيه عبارة عن محاكاة لأصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، لأن تلك المحاكاة كانت بمثابة قرينة ساعدت الإنسان القديم في الإدراك الذهني للعلاقة بين الصوت والمدلول الذي يشير إليه.

وعقبه طور ثان انعدمت فيه محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، وظهر فيه أصل جديد للمعجم اللغوي كانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع الإنساني.

٢- نظرتنا الصوتية الجديدة في دراسة الأصل في المعجم العربي.

لدى دراستنا الأصل في المعجم العربي قدمنا نظرة صوتية جديدة في دراسته. وتقوم نظرتنا الصوتية إلى المعجم العربي على القانون التالي: الأصل الحقيقي في المعجم العربي (الذي هو رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها المفردات من ناحية، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية أخرى)

هو ذلك الرصيد الذي يشتمل على الحد الأدنى من الصوامت المشتركة بين جميع الكلمات التي تدخل في العنقود الاشتقاقي الواحد وبالترتيب نفسه.

تُميز قواعد الصرف العربي في الأصل المعجمي الثلاثي بين السالم وغير السالم. ولا تميز في الأصل المعجمي الرباعي بين السالم وغير السالم. ونرى أن السبب في ذلك يعود إلى أن الأصل الثلاثي السالم المجرد يرجع إلى الأصل المعجمي الأول (التاريخي الحيواني) لنشأة اللغة العربية (شحج، نزب) الذي لم يكن صيغة لغوية أولى أصلاً في الاشتقاق في النظام القواعدي للعربية. لذا فإن المبدأ الأول الذي قام عليه المعجم العربي هو الأصل الثلاثي السالم المجرد من حروف الزيادة: أما الأصل الرباعي المجرد من حروف الزيادة، فيرجع إلى الأصل المعجمي الثاني (التاريخي الطبيعي- الحيواني) لنشأة العربية (خرخر، زق زق) الذي لم يكن صيغة لغوية أولى أصلاً في الاشتقاق في النظام القواعدي للعربية. وتم لذلك اعتماد الأصل الرباعي- من دون تمييز فيه بين سالم وغير سالم- مبدأ ثانياً، بعد الثلاثي السالم، في نظام المعجم العربي.

لقد ظهر الأصل المعجمي الثلاثي السالم المجرد والأصل المعجمي الرباعي المجرد في الطور الأول من نشأة اللغة العربية (طور محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة). ويتطابق الأصل المعجمي الأول الثلاثي السالم- من حيث عدد الحروف الصامتة- مع صيغة الفعل الماضي الثلاثي السالم المجرد المسند إلى الشخص الثالث المفرد المذكر. أما الأصل المعجمي الثاني الرباعي، فيتطابق من حيث عدد الحروف الصامتة مع صيغة الفعل الماضي الرباعي المجرد المسند إلى الشخص الثالث المفرد المذكر، سواء إشتملت تلك الصيغة على حروف العلة أو الهمزة أو لم تشتمل عليها. ويعني ذلك أن الأصل في المعجم العربي في طور المحاكاة كان يتطابق من حيث عدد الصوامت مع صيغة الماضي المجرد المسند إلى الشخص الثالث المفرد المذكر.

لقد كشفت نظرتنا الصوتية الجديدة إلى المعجم العربي وجود أصول حقيقية أخرى- غير الثلاثي السالم والرباعي- في المعجم العربي أحادية الصوامت وثنائية الصوامت غير المضعفة وثنائية الصوامت المضعفة. وترجع هذه الأصول الأخرى برأينا إلى الأصل المعجمي الثالث (التواضعي) لنشأة العربية الذي ظهر في الطور الثاني (طور التواضع) والذي كان صيغة لغوية أولى أصلاً في الاشتقاق في النظام القواعدي للعربية (صيغة الأمر العامة للشخص الثاني). وهذه الأصول المعجمية الحقيقية الجديدة هي:

أ- الثنائي المضعف، ونجده مجرداً في صيغة الأمر من الصحيح- المضاعف (مُدّ).

ب- الثنائي غير المضعف، ونجده مجرداً في صيغة الأمر من المعتل الناقص (ارْم)، وصيغة الأمر من المعتل اللفيف المقرون (طْوِ)، وصيغة الأمر من المعتل الأجوف (قُمْ)، وصيغة الأمر من الصحيح، مهموز الأول (خُذْ)، وصيغة الأمر من المعتل المثال (عِذْ).

حـ- الأحادي، ونجده مجرداً في صيغة الأمر من المعتل اللفيف المفروق (قِ).

ومن أجل اتساق نظام المعجم العربي، كان يتوجب إدخال هذه الأصول المعجمية الحقيقية الجديدة (التي ظهرت في الطور الثاني من نشأة العربية- طور التواضع، والتي ينظر إليها في قواعد الصرف العربي على أنها ثلاثية غير سالمة) وفق المبدأ نفسه وهو (المطابقة من حيث عدد الصوامت مع صيغة الفعل الماضي المجرد المسند إلى الشخص الثالث المفرد المذكر) وحين تكون صيغة الفعل الماضي منها لا تشتمل على ثلاثة صوامت، تجرى عليها بعض التعديلات المقررة وفق قواعد الصرف العربي لتتحول إلى أصل مفترض (غير حقيقي) في المعجم العربي يتألف من ثلاثة صوامت.

وهكذا يظهر أن القواعد الصرفية الخاصة بالفعل الثلاثي غير السالم تشير إلى البعد الزمني (التاريخي) في نظام المعجم العربي، حين ننظر إليها من خلال قانون نظرتنا الصوتية الجديدة إلى المعجم العربي.

لقد كشفت نظرتنا الصوتية إلى المعجم العربي أن المادة اللغوية للعربية، المتوافرة إلى يومنا الراهن والتي حفظها لنا نظام المعجم العربي، تقدم شواهد تاريخية علمية تشير إلى أن نظام المعجم العربي يعكس جميع المراحل التي مرت بها نشأة الإنسان واللغة الإنسانية، ويثبت ذلك بشكل قاطع أن اللغة العربية أصل قائم بذاته.



□ الهوامش

١- للتوسع في الموضوع، ارجع إلى كتابنا "النظرية اللغوية العربية الحديثة"- منشورات اتحاد الكتاب العرب- ١٩٩٦.

٢- د. تمام حسان "اللغة العربية- معناها ومبناها" -الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢/ ١٩٧٩، ص٤٠.

٣- زكي الأرسوزي "المؤلفات الكاملة" -المجلد الأول- مطابع الإدارة السياسية للجيش- دمشق ١٩٧٢، ص ٥٤-٥٥

٤- محمد المبارك "فقه اللغة وخصائص العربية"- دار الفكر- بيروت، ط٦، ص ٨٧-١٠١

٥- مصطفى الشهابي "المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث" مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - ط٢/ ١٩٦٥، ص١١

٦- "المصطلحات العلمية" ص١١

٧- زكي الأرسوزي "المؤلفات الكاملة" المجلد الأول، ص ٧١

٨- د. صبحي الصالح "دراسات في فقه اللغة" -دار العلم للملايين- بيروت، ط٧، ص١٤١-١٥٤

٩- زكي الأرسوزي "المؤلفات الكاملة"، المجلد الأول، ص ٢٦١

١٠- د. ربحي كمال "دروس اللغة العبرية"، ط٥/ ١٩٧١-١٩٧٦، مديرية الكتب في جامعة دمشق

١١و ١٢- للتوسع في الموضوع، ارجع إلى كتابنا "النظرية اللغوية العربية الحديثة".
١٣- زكي الأرسوزي "المؤلفات الكاملة"، المجلد الأول، ص ٣٤١-٣٤٤
١٤-زكي الأرسوزي "المؤلفات الكاملة"،المجلد الأول، ص ٢٥٨-٢٥٩
١٥- عبد الحق فاضل "مغامرات لغوية- ملكة اللغات"، دار العلم للملايين -بيروت.
١٦- عبد الحق فاضل "آثار حيوانية في اللغة العربية"، مجلة (المعرفة) بدمشق- تشرين الأول ١٩٦٢
١٧- "مغامرات لغوية"، ص ٣٦٦
١٨- "مغامرات لغوية"، ص ٢٤٢
١٩- عبد الحق فاضل "حول المغامرات اللغوية" مجلة (اللسان العربي) بالرباط، عدد يناير ١٩٧٢
٢٠- الخصائص لابن جني - حققه محمد علي النجار - دار الهدى- بيروت، جـ١ ٢٥٦-٢٥٧
٢١- فارتوناتوف "الأعمال المختارة (بالروسية) -دار النشر أو تشبيد غيز - موسكو ١٩٥٦
٢٢- "اللغات السامية" - القسم الثاني/ الجزء الأول (بالروسية)، مقالة غازوف- غيز بيرغ "الجذر السامي ونظرية الصائت الوحيد"- دار النشر نا أوكايو سكو ١٩٦٥
٢٣- "كتاب سيبويه"، جـ ٢، آخر (باب حروف البدل من غير أن تدغم حرفاً في حروف وترفع لسانك من موضع واحد).
٢٤- "الخصائص"، جـ١/ ٩٢
٢٥- "الخصائص"، جـ ١/ ٩١
٢٦- للتوسع في الموضوع، ارجع إلى مقالتي وعنوانها "ازدواجية اللغة العربية وكيفية الخروج منها"، في مجلة (المعرفة بدمشق- العدد المزدوج ٢٢٢و ٢٢٣- آب وأيلول ١٩٨٠
٢٧- ارجع إلى تفصيل ذلك في كتابنا "النظرية اللغوية العربية الحديثة"

□□□

لسان العرب المعجم اللُّغويّ العربيّ الكبير في التراث العربيّ

د. عمر موسى باشا

تعددت

دوائر المعارف اللغوية في تراثنا العربيّ ولكنها كانت عالة على دائرة معارف لسان العرب لابن منظور، ولا بدّ لنا من التعريف بهذا اللغوي الموسوعيّ العربيّ الكبير.

هو أبو الفضل(١)، جمال الدين، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاريّ، الافريقي، ثم المصريّ، وهو عربيّ صميم ينحدر من أسرة رويفع بن ثابت الأنصاري.

وُلد في شهر المحرّم سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، وقد سمع من ابن المقير، ومرتضى بن حاتم، وعبد الرحيم بن الطّفيل، ويوسف بن المخيليّ، وغيرهم.. والمعروف عنه أنه كان شيعياً، وقد عُمرّ طويلاً، وكبر، وحدّث، كما روى عنه السبكيّ والذهبيّ، وقال: "تفرّد بالعوالي". وذكر الصفديّ اهتمامه باختصار الكتب المطوّلة. وقال: "لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطوّلاً إلاّ وقد اختصره كما أخبر ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمس مائة مجلدة، اختصر (تاريخ دمشق) في نحو ربعه، وكتاب (الأغاني)، وكتاب (العقد الفريد)، وكتاب (نشوار المحاضرة)، وكتاب (الذخيرة)، وكتاب (مفردات ابن البيطار)، وكثيراً من التواريخ الكبار، وكان لا يملّ من هذا العمل.

والمعروف عنه أنه قد خدم في ديوان الإنشاء طوال عمره، كما ولي قضاء طرابلس. ذكر ابن فضل الله أنه عمي في أواخر حياته، ومات في شعبان سنة (٧١١هـ/١٣١١م).

وممّا هو جدير بالذكر أن هذه الموسوعة اللغوية الكبرى أهم ما صنفه ابن منظور، فقد جمع فيه بين التهذيب والمحكم، والصحاح، والجمهرة، والنهاية. قال ابن حجر "جوّده ما شاء ورتّبه ترتيب الصحاح، وهو كبير"(٢).

قوله: (وهو كبير) له دلالته العلمية، فقد بلغت أصول المواد اللغوية ثمانين ألف مادة وليس هذا بالشيء اليسير، وذلك إذا ما قيس بالمواد والأصول اللغوية التي تتضمنها اللغات الكبرى المعروفة

في علم اللغات واللسانيات العامة.

تحدث المؤلف في خطبة "لسانه" عن البواعث الجوهرية التي حثّته على إنشاء هذه الموسوعة اللغوية، ومما قاله:

"فإنني لم أقصد سوى حفظ/ أصول هذه اللغة النبوية.. وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربيّة من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك، وقومه منه يسخرون، وسمّيته (لسان العرب)..)(٣).

فعل ابن منظور ذلك ليصون اللغة العربية لأنها مقدسة لها تراثها المجيد عبر العصور والدهور ومما يؤكد هذا التوجه القوميّ عند صاحب اللسان قوله:

"... وشرّف هذا اللسان العربيّ بالبيان، على كلّ لسان، وكفاه شرفاً أنه به نزل القرآن وأنه لغة أهل الجنان. رُوي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال رسول الله، (صلى الله عليه وسلّم): (أحبّوا العرب لثلاث: لأنّي عربيّ، والقرآنُ عربيّ، وكلام أهل الجنّة عربي"...)(٥).

هذا الإيمان الأكبر بالعرب والعروبة والعربية كما قاله الرسول العربي الأعظم، صلّى الله عليه وسلم، قد جاء رحمة للعالمين.

لقد انتقد ابن منظور أساليب العلماء وآراءهم في عصره، ووضح الاضطراب الذي وقعوا فيه، وأشار إلى ذلك كله بقوله:

"وإنّي لم أزل مشغوفاً بمطالعة كتب اللغات، والاطلاع على تصانيفها، وعلل تصاريفها، ورأيت علماءها بين رجلين: أمّا من أحسن جمعه، فإنّه لم يحسن وضعه.

وأمّا من أجاد وضعه، فإنه لم يُجد جمعه.

فلم يُفد حسنُ الجمع مع إساءة الوضع، ولا نَفَعَتْ إجادةُ الوضع مع رداءة الجمع"(٦).

هذا النصّ يضع أمامنا حقيقة هامّة، وهي أن المؤلّف اعتمد على اتخاذ المنهج العلمي في التصنيف اللغويّ الموسوعيّ، فقد لاحظنا اهتمام المؤلف بصحة الأصول اللغوية، بعد التأكد منها، ثم يعمد إلى تنسيقها وتبويبها وتفريعها على نحو ميسّر واضح، بحيث يسهل الرجوع إليها دون مشقة وعناء في وقت الحاجة، وهذا من البواعث الجوهرية الرئيسية في أصل الوضع الموسوعي، وقد عبّر عن ذلك بقوله:

"فاستخرت الله.. في جمع هذا الكتاب... ولم أخرج فيه عمّا في هذه الأصول، ورتبته ترتيب (الصحاح) في الأبواب والفصول، وقصدت توشيحه بجليل الأخبار، وجميل الآثار، مضافاً إلى ما فيه من آيات القرآن الكريم، والكلام على معجزات الذكر الحكيم، ليتحلّى بترصيع دررها عقدهُ، ويكون على مدار الآيات، والأخبار، والأمثال، والأشعار، حلّه وعقده"..(٧).

واستطرد المعجميّ الكبير ابن منظور، فتحدث عن أهمية معجمه الموسوعيّ اللغوي الكبير المؤلف من عشرين مجلداً ضخماً، وقال في خطبته الاستهلالية:

"فجاء هذا الكتاب، بحمد الله، واضح المنهج، سهل السلوك، آمناً بمنّة الله من أن يصبح مثل غيره، وهو مطروح متروك، عظم نفعه بما اشتمل من العلوم عليه، وغني بما فيه عن غيره، وافتقر غيره إليه، وجمع من اللغات والشواهد والأدلّة ما لم يجمع مثله مثله.. وقرنت بين ما غرّب منها، وبين ما شرّق، فانتظم شمل تلك الأصول كلّها في هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل، وأولئك بمنزلة الفروع، فجاء، بحمد الله، وفق البغية، وفوق المنية، بديع الإتقان، صحيح الأركان، سليماً من لفظ (لو كان)..)(٨).

هذه ثقة ابن منظور صاحب اللسان بما صنّفه، وقد توخّى الصواب والتصويب، وطبق المنهج اللغويّ العربيّ الأصيل، هذا كله بالإضافة إلى الإحاطة الكاملة بسائر المصنفات اللغوية العربية السابقة، كما أنه تجنب المآخذ عليهم، وإنما حاول استكمال ما أهملته المعاجم اللغوية السابقة.

وقد اختتم خطبته بقوله:

"وأرجو من كرم اللّه تعالى أن يرفع قدر هذا الكتاب، وينفع بعلومه الزاخرة، ويصل النفع به بتناقل العلماء له في الدنيا، وينطق به أهل الجنة في الآخرة..."(٩).

هذه الكلمات عن علوم اللسان الزاخرة خير بيان وأجمل تبيان، فلقد كان زاد العلماء في كل زمان ومكان.

أهمية لسان العرب في العصر الحديث

هكذا تتضح من خلال خطبة اللسان أهمية هذه الموسوعة اللغوية العربية، من حيث الجمع والاستقصاء، والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث، والتمثيل بالأشعار والأمثال.

لقد عرف الأقدمون والمعاصرون أهمية هذه الموسوعة اللغوية الكبرى، وقد وضّح أستاذي الفاضل العلاّمة الدكتور شوقي ضيف، رئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة، أهميتها لاحتوائها على الشواهد الشعرية التي حفظت لنا بعيدة عن التصحيف والضياع، وممّا قاله مؤكداً رأيه:

"وأضاف ابن منظور إلى معجمه الذي يقع في عشرين مجلّداً، والذي سمّاه بحق (لسان العرب) إضافة جديدة بارعة، ولا نقصد جمعه واستقصاءه لمادة اللغة وشواردها، فقد كانت مجموعة مستقاة قبله، وإنّما نقصد المادة الشعرية الغزيرة التي أضافها إلى معجمه"(١٠).

واستطرد أستاذي الفاضل، فذكر أنه "عكف على دواوين الشعر في العصرين: الجاهليّ والإسلاميّ، عكوفاً حول أبياتها فيه، أو بعبارة أدق جمهور أبياتها إلى بطاقات وزّعها على المواد اللغوية المختلفة في معجمه"(١١).

لم يقتصر الاهتمام على ما ذُكر، وإنما لاحظنا الاهتمام بهذه الموسوعة اللغوية في المؤسسات

المجمعية والجامعية، فقد وضع الدكتور ياسين الأيوبيّ (معجم الشعراء في لسان العرب) وهو جهد كبير على غاية من الأهمية، ومما قاله في مقدمته:

"عندما أقدمتُ على فهرسة شعراء (لسان العرب) وإحصاء أشعارهم، كنت أعلم علم اليقين ما سيعترضني من صعاب، ويعتورني من ضباب الرؤية وتشعبات الدرب، ومع ذلك أقدمت، وخضتُ الغمار، وذقت ما يذوقه المجاهد في حقول المعرفة من مرّ الحقيقة، ونعيم الوهم، حقيقة الاكتشاف، ووهم العبور إلى الضفة الأخرى وراء التخوم اللامرئية"(١٢) ومما هو جدير بالذكر أن الدكتور نوري حمودي القيسي، الأمين العام للمجمع العلمي العراقي قد نوّه بهذا العمل قائلاً: "وإنما سيظلّ هذا العمل واقعاً في الأعمال الكبيرة التي قدّمت للمحققين والدارسين لاستقصاء البيت الفرد، والخبر الضائع، والحياة المغمورة.. ويبقى الفضل للرجل الذي أقدم على هذا العمل أول مرة، فهو صاحب الفكرة، والمبدع إلى الطريق، والمتحمل لأعباء المشاقّ الصعبة.."(١٣).

ومما هو جدير بالذكر أن صاحب "معجم الشعراء في لسان العرب" الدكتور الأيوبي قد قام بهذا العمل الجبار، وقدّم له بقوله: "البحث في (لسان العرب) أمر بالغ الصعوبة والتعقيد لا لشيء إلاّ لكون هذا المعجم من أوسع المعاجم العربية وأطولها وأشملها.. والشيء المدهش أن عدد الشعراء المستشهد بهم في (اللسان) قد بلغ رقماً عالياً: قرابة ألف ومئتي شاعر، تراوحت أشعارهم ما بين البيت الواحد والألف تقريباً"(١٤).

المعاني الفلسفية في لسان العرب

كان لاتحاد الكتاب الفضل في الإسهام بذكر علاقة الفلسفة باللغة من خلال نشره كتاب (المعاني الفلسفية في لسان العرب الفلسفة العربية الأولى) وهذا الكتاب على غاية من الأهمية، فقد بذل مؤلفه الدكتور ميشال اسحق جهداً جباراً في هذا العمل البكر، وهو همزة وصل بين اللغة ومعناها، وعلاقة ذلك كله بالفلسفة وحكمتها، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية لتبيان علاقة المعنى اللغوي بالمفهوم الفلسفي.

قدّم هذا الكتاب الأستاذ جورج صدقني، وقد اختتم تقديمه بقوله: "إن العربية بحر محيط، بعيد الغور والقرار، حتى لقد أعيا الغواصين على درره ولآلئه، وحقّ لمن فاز بلؤلؤة ثمينة، أن يدلّ بفوزه على الناس، فكيف بمن حملت شباكه صندوقاً ضخماً مملوءاً بالجوهر؟!"(١٥).

واستطرد يتحدث عن أسرار العربية وجمالها بقوله: "على أن أسرار العربية لا تنتهي، فكلّما وضعت يدك على سرّ من أسرارها لاحت لك طيوف أسرار أخرى في أفقها البعيد"(١٦).

واختتم تقديمه بقوله الجميل المعبّر عن قدسية لغة السماء: "إني أشهد أن لسان العرب هو أجمل لغة على وجه الأرض، ولا عجب في هذا فهو لغة السماء أيضاً"(١٧).

ولا بد لنا بعد هذا التعريف والتقديم لكتاب (المعاني الفلسفية) من التحدث عما ذكره الدكتور

اسحق، وتبيان علاقة اللغة العربية بالأصول الفلسفية للفكر العربي الخلّاق المبدع. ومما قاله المؤلف:

"المقصود بالفلسفة العربية الأولى هو الفلسفة المستقاة من معاني الألفاظ العربية، على ما كانت عليه في عصور الاحتجاج، وعصور الاحتجاج هي العصور التي يمكن الاحتجاج بكلام العرب خلالها، على أنه عربيّ سليم في اللفظ والمعنى، وهي تشمل مراحل ما قبل الإسلام، وما تبعها من العصور الإسلامية التي بقيت فيها ما قبل الإسلام، وما تبعها من العصور الإسلامية التي بقيت فيها العربية على أصالتها.. ومن هذه العصور جمعت المعاجم القديمة مادتها اللغوية، فالفلسفة المستقاة من كلام العرب خلالها فلسفة أصيلة، وذات دلالة صادقة.."

واستطرد الدكتور اسحق، فأشار إلى الإهمال الذي لحق بالفلسفة العربية، ذلك لأن العلماء اهتموا بالجانب اللغويّ كثيراً وأهملوا المعاني الفلسفية التي تولّدها اللغة وممّا قاله: "وقد كانت الفلسفة العربية المشار إليها تنتظر خَلَفاً يصوغها ويحسن التعبير عنها منذ زمن بعيد، إلاّ أنّها بُليتْ بغرباء حقروا أمرها، وشغلوا الناس بقواعد اللفظ، فصرفوا الأنظار عنها.."(١٤).

لم يحظ معجم بمثل هذا الاهتمام العلمي كما رأينا من خلال آراء هؤلاء العلماء المحدثين، ومما هو جدير بالذكر هنا أن المستشرق الإنكليزيّ (جون هيوود) تحدث عن أهمية هذا المعجم الموسوعي، فقد ذكر أنه "كان لدى العرب معجم جامع شامل، هو (لسان العرب) فاق كل ما أُلّف من معاجم في أيّ لغة قبل القرن التاسع عشر دقة وشمولاً"(١٩).

إنّ في هذه الفكرة البيان الأمثل، والتقويم الأكمل، لهذه الموسوعة اللغوية المعجمية الكبرى، إذ ليست قيمة (لسان العرب) فيما قاله القدماء فقط، وإنّما تكمن أصالته من خلال هذا الإبداع المضمونيّ والابتكار المنهجيّ، إذ جمع الأصالة العربية في بيانها وتبيانها، والحداثة المنهجية في جدّتها وتجديدها "وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين"(٢٠)، وجعله "لسان صدق في الآخرين"(٢١)، لسان الإنسانية جمعاء.

□

□ لحواشي والمصادر والمراجع:

١-ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ٢٦٢/٤، والسيوطي: بغية الوعاة ص١٠٦، والزركلي: الأعلام ٣٢٩/٧، ٣٢٨

٢-العسقلاني: الدرر الكامنة ٢٦٢/٤

٣-ابن منظور: لسان العرب، خطبة المؤلف، ٨/١

٤-المصدر السابق ٧/١

٥-المصدر السابق ٧/١

٦-المصدر السابق، ١/٦/٨/
٧-المصدر السابق ١/٨
٨-المصدر السابق ١/٩
٩-ضيف (د. شوقي): مقالته في مجلة (المجلة)، العدد رقم ١١٢ والمقالة بعنوان (عصر إحياء التراث العربي وتجديده) ص١١
١٠-المصدر السابق، ص١١
١١-الأيوبيّ (د. ياسين): معجم الشعراء في لسان العرب، كلمة أولى ص٥
١٢-المصدر السابق، مقدمة الطبعة الثالثة للدكتور نوري حمودي القيسي ص٩-١٢
١٣-الأيوبي (د. ياسين): معجم الشعراء في لسان العرب، مقدمة الطبعة الأولى ص١٦-١٧، وممّا هو جدير بالذكر أن المؤلف أشار إلى أن صديقه "الدكتور أسعد علي الذي أشار عليّ قبيل السفر إلى باريس في أيلول سنة ١٩٧٠ للالتحاق بجامعة السوربون، أن أتناول الشعر والشعراء في (لسان العرب) فهتفت للفكرة وحملتها في ضميري" ص١٧
١٤-اسحق (د. ميشال): المعاني الفلسفية في لسان العرب الفلسفة العربية الأولى. تقديم الأستاذ جورج صدقني ص٧-١٠
١٥-المصدر السابق، ص٧-١٠ مقدمة صدقني
١٦-المصدر السابق، ص١٠ مقدمة صدقني
١٧-المصدر السابق، مقدمة المؤلف الدكتور اسحق ص١٣
١٨-المصدر السابق، مقدمة المؤلف ص١٥
١٩-موسى باشا (د. عمر: تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي) ص٨٦
٢٠-سورة النحل ١٦/١٠٢
٢١-سورة الشعراء ٢٦/٨٤

□□□

معاجم الأبنية

د. مسعود بوبو

-١-

- نشأة التفكير في البحث:

معروف *أن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥ هـ) هو أول من اشتغل بالصناعة المعجمية، وقد أخذ في ترتيب معجمه "العين" بمبدأ تصنيف الكلام في أبواب هي الثنائي والثلاثي: الصحيح والمعتل، ثم الرباعي فالخماسي... والخماسي ما كان على خمسة أحرف مثل سفرجل.*

ويرى الخيل أن كلام العرب لا يتعدّى بناؤه خمسة الأحرف، يقول: "وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف، في فعل أو اسم، فاعلم أنها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة، مثل (قَرَ عْبَلانة)، وإنما أصل بنائها (قرعبل)، ومثل (عنكبوت) وإنما أصل بنائها (عنكب).(١)

ولمزيد من الدقة في التقسيم جعل الخليل بناء الثنائي في أنواع هي: الثنائي الخفيف من الحروف مثل "مع"، والثنائي المضاعف مما أدغم حرفاه المتشابهان مثل "علّ" الذي وضعه في "علّ"، والذي لم يدغم حرفاه المتشابهان مثل "كعك" الذي وضعه في "عك" والرباعي المضاعف مثل "زلزل" الذي وضعه في "زل". ويبدو أن الخليل اعتمد في ذلك على رسم الكلمة في الكتابة، لا على حسبان التكرير والتضعيف. بعد هذا أثبت باب الثلاثي بنوعيه، وجعل الرباعي والخماسي في باب واحد للصحيح من أصولهما. وأما الرباعي والخماسي المعتلين فقد أخرهما إلى مختتم معجمه حيث عقد باباً للحروف المعتلة.(٢)

وبقليل من التأمل في هذا التبويب يلحظ المرء أن "الأبنية" تستبدّ بمنهج الخليل وتسيطر على تصوّره وتخطيطه لتقسيم الكلم في أنساق وفئات. وعزّز التفكير في موضوع الأبنية عنده نظرية

التقاليب التي أخذ بها معياراً لاستقصاء الصيغ المحتملة للأصول وإحصائها اعتماداً على صورها أو قراءاتها المتعددة بالتقليب. فالأصل اللغوي "لمق" مثلاً، يعطي بالتقليب التراكيب الآتية: لمق، لقم، ملق، مقل، قمل، قلم... وما له منها معنى كان الخليل يثبت أمامه معناه، وما ليس له منها معنى كان يثبت أمامه كلمة "مهمل". ووفق هذا المبدأ يكون قد أحصى أبنية العربية الفصيحة المستعملة بدلالات لغوية، وضبَطها. وتأسيساً على هذا التصوّر اتّسع الاهتمام بالأبنية وازداد الميل إلى البحث فيها.

وعند بدء الاشتغال بالنحو عرض الرواد الأوائل من النحاة لمسألة تقسيم الكلام. ولعل أول من ذكرها في وضع وتصنيف سيبويه (ت١٨٠هـ) تلميذ الخليل، قال في "الكتاب":

"فالكلام على ثلاثة أحرف، وأربعة أحرف، وخمسة، لا زيادة فيها ولا نقصان(٣)، ثم جعلها في أبواب وحشد لها ما وسعه الجهد والتذكر من الأبنية والألفاظ.

وكان من المنتظر أن يتابع الخالفون من النحاة بحث الأبنية بعد سيبويه في حقول متنوّعة من النشاط اللغوي، وهذا ما كان، إذ أضافوا إليه، أو استدركوا على سيبويه ما فاته منها، كأبي عمر الجرمي (صالح بن إسحاق، ت ٢٢٥هـ)، وابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل النحوي، ت ٣١٦هـ)، وابن خالويه (الحسن بن أحمد، ت ٣٧٠هـ)، وأبي بكر الزُبيدي الأندلسي (ت٣٧٩هـ)، الذي زاد على أبنية سيبويه ما يربو على ثمانين بناء.

-٢-

- معاجم أبنية الأفعال:

ولكن التأليف في أبنية الأفعال الثلاثية والرباعية سبق هؤلاء في نماذج مبكّرة خصّ أصحابها الأفعال بكتب مستقلة. ومن أشهر هؤلاء المؤلفين:

- *قُطرُب (محمد بن المستنير، ت ٢٠٦هـ).*
- *يحيى بن زياد الفرّاء (ت٢٠٧هـ).*
- *أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ).*
- *أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت٢١٥هـ).*
- *عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦هـ).*
- *عبد الله بن محمد التوزي (ت٢٣٣هـ).*
- *يعقوب بن السكّيت (ت٢٤٤هـ).*
- *محمد بن الحسن الأحول (كان حيًا عام ٢٥٠هـ).*
- *سهل بن محمد السجستاني (ت٢٥٥هـ).*

- الزجاج (إبراهيم بن السري، ت ٣١٠، أو ٣١١هـ).
- محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ).
- ابن درستويه (عبد الله بن جعفر، ت ٣٤٧هـ).
- أبو علي القالي (إسماعيل بن القاسم، ت ٣٥٦هـ).
- الآمدي (الحسن بن بشر، ت ٣٧١هـ).
- الجواليقي (أبو منصور موهوب بن أحمد، ت ٥٤٠هـ).
- ابن الأنباري (عبد الرحمن بن محمد، ت ٥٧٧هـ).
- الواسطي (القاسم بن القاسم، ت ٦٢٦هـ).
- ابن مالك (جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي، ت ٦٧٢هـ)(٤).

وعرض لهذه الظاهرة اللغوية "الأبنية" في العربية لغويون معجميون، ونحاة وصرفيون في إطار أبحاثهم المتنوّعة، وضربوا لها الأمثلة والشواهد، وتناولوا ذلك كله بالتعليل والتحليل والمدارسة، وخصص لها بعضهم أبحاثاً، أو فِقَراً، أو فصولاً وأبواباً في تضاعيف كتبهم، من ذلك ما نقف عليه في المعاجم المقسمة إلى "كتب" أو "أبواب"، أو "أبنية".

ومن اللغويين من عرضوا في كتبهم اللغوية العامة لبناء الأفعال، ونخص بالذكر منهم من عنونوا لأبحاثهم بعبارة: "فَعَلَ وأَفْعَلَ" أو "فعلتُ وأفعلتُ". وممن ضمنوا كتبهم أبحاثاً في ذلك:

- سيبويه في "الكتاب".
- أبو عبيد القاسم بن سلاّم (ت٢٢٤هـ) في كتابه "الغريب المصنف".
- يعقوب بن السكيت في كتابه "إصلاح المنطق".
- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم، ت ٢٦٧هـ) في كتابه: "أدب الكاتب".
- ثعلب (أحمد بن يحيى، ت ٢٩١هـ) في كتابه: "الفصيح".
- ابن دريد الأزدي في معجمه "جمهرة اللغة".
- ابن القوطية (محمد بن عمر، ت ٣٦٧هـ) في كتابه: "الأفعال".
- عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) في كتابه: "الخصائص".
- أحمد بن فارس الرازي (ت٣٩٥هـ) في كتابه: "الصاحبي في فقه اللغة".
- ابن سيده (علي بن إسماعيل، ت ٤٨٥هـ) في كتابه: "المخصص".
- ابن القطّاع (علي بن جعفر، ت ٥١٥هـ) في كتابه: "الأفعال".

ووقف هؤلاء وغيرهم عند الأبنية النادرة، أو التي يتعدّد ضبطها وزناً، تبعاً لتقدير حروف الزيادة والحذف والإعلال. واتّسع الاهتمام بالأبنية فشمل أبنية الأفعال والأسماء والمصادر. ولكن

الخطين البارزين في هذا الفرع من البحث استقلاً باتجاهين رئيسيين هما: أبنية الأفعال، وأبنية الأسماء والأفعال جميعاً. وأمام الحاجة المرتقبة لاستيعاب المادة العلمية المستخلصة من نتاج هذا النشاط شرع اللغويون يبحثون عن منهج لتصنيفها فلم يجدوا أفضل من المنهجية المعجمية؛ ذلك أن مدار البحث في المعاجم يقوم أصلاً على "المفردة" في تعيين جذرها اللغوي وإثباته، وفي بيان معناها، أو معانيها، وليس مدار البحث في "الأبنية" ببعيد عن ذلك. وعلى وفق هذا التصور اتجهوا بأبنية الأفعال والأسماء نحو المعجمية، ثم خرج إلى الوجود مصطلح "معاجم الأبنية"، وصار ترتيبها على حروف الهجاء، أو على مخارج الحروف منهجاً مألوفاً، وبذا يكون التطور الذي طرأ على هذا النوع من النشاط اللغوي قد أخذ بضوابط التنظيم، وفي الوقت نفسه أخذ بفكرة الاستقصاء التي تقرُب من الاستقراء التام، أو من الإحصاء. ومن الأمثلة على ذلك ما ذكر عن السرقسطي (أبو عثمان سعيد بن محمد، المنبوز بالحمار، ت بعد ٤٠٠هـ) من أنه بلغ بالأفعال التي صنّفها ٢٧٥٣ فعلاً مرتبة على مخارج الحروف، وذكر أن ابن القوطية في "أفعاله" قصد إلى الإيجاز فأخلّ في كثير من المواضع(٥).

ولإعطاء فكرة إيضاحية سريعة عن مضمونات تلك الأبحاث والمصنفات المبكرة يمكن أن نقف عند أمثلة متخيّرة منها؛ فمما تكلمت به العرب على بناء "فَعَلْتُ وأَفْعَلْتُ" والمعنى واحد قول الزجاج:

"بكر الرجل في حاجته يبكر بكوراً، وأبكر إبكاراً، قال زهير بن أبي سلمى:

بكَرْنَ بكوراً واستحَرْنَ بسحرةٍ   فهن ووادي الرسّ كاليد في الفم

وقال ابن أبي ربيعة (عمر):

أمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ   غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمُهَجِّرُ؟

ويقال: بشرْتُ الأديم وأبشرته، وأديم مبشور ومُبْشَر إذا قُشِر. وبرد اللّه الأرض وأبردها إذا أصابها البرد، وأرض مبرودة ومُبْرَدَة. ويقال: بتّ عليه الحكم وأبتّه إذا قطعه عليه، وكذلك بتُّ الحبل وأبتّه".(٦).

ومن ذلك قوله:

"تقول: ثَرِي المكان وأثرى إذا ندي بعد يبس، وكثر فيه الندى، وكذلك ثري القوم وأثروا إذا كثرت أموالهم. وثلجت السماء وأثلجت من الثلج".(٧).

ومنه: "خلَسَ رأس الرجل فهو خليس، وأخلس رأسه فهو مُخْلِس إذا اختلط فيه البياض بالسواد... وخضعه الكبر خضعاً وأخضعه إخضاعاً. وخفق الطائر بجناحيه وأخفق إذا صفق بهما".(٨).

ويقدم المصنفون في هذا الموضوع أمثلة على غرار البناء السابق "فعلت وأفعلت" والمعنى مختلف، نحو: "راق الشيء فلاناً إذا أعجبه وحسن في عينيه، وأراق الرجل الماء إذا صبّه.(٩) وطرق الحديد إذا ضربه حتى ينبسط، وأطرق الرجل إذا أمسك عن الكلام".(١٠).

أو يقدمون أمثلة اختير فيها "أفعلتُ" دون "فعلت"، أو "فعلتُ" دون "أفعلتُ"، نحو: "أخرف القوم إذا دخلوا في الخريف، وأذعن الرجل بالطاعة إذا ألزمها نفسه".(١١) ومن الثاني قولهم: "جنبت الريح، وصدرت عن الشيء، وغلت القدر، ونبذت الشيء... ولا يقال في شيء من هذا وأمثاله "أفعلتُ".

-٣-

- معاجم أبنية الأسماء:

تأخّر التصنيف في أبنية الأسماء فجاء لاحقاً للبحث في أبنية الأفعال في الترتيب الزمني. وقد يعلل سبق التصنيف في أبنية الأفعال بالحاجة إلى استعمال الأفعال المجردة في أبواب المعاجم، ذلك أن الأفعال تمثل الأصول أو الجذور Roots التي كانت مفاتيح الإفادة من المعاجم، والمنطلق إلى تقصيّ المشتقات. وقد يعلل ذلك السبق باللجوء إلى علم الصرف واتّخاذه ميزاناً لضبط الأبنية، إذ إن الصرف يقدّم الأصول الموثقة، أو يقدم الجوهر مخلّصاً من شوائب الزيادات والإعلال والحذف والإبدال، وبذا يمكن فرز الأبنية، ثم الانطلاق إلى البحث عن المعاني أو الدلالات اللغوية.

ويشار هنا إلى أن القاضي نشوان بن سعيد الحميري الذي ألّف معجماً في الأبنية (كما سيجيء) كان قد افتتح ذلك المعجم بالحديث عن التصريف لأهميته في البحث اللغوي، ثم انتقل إلى الحديث عن مخارج الحروف، وبعدها عقد فصلاً في أبنية كلام العرب. أما أبنية الأسماء فأمرها أكثر تعقيداً هنا من أبنية الأفعال، إذ يعتور الأسماء التوزّع بين الأصل والمشتق، وبين الزيادة والتجريد اللذين تبقى حقائقهما أعز ملتمساً، وبين الأصيل والدخيل. وتبقى الأسماء أوسع من الأفعال أبنية، مما يحفز على الاشتغال بالقليل الأبنية أولاً، ومما يجدر تسجيله هنا أن البحث في أبنية الأسماء اقتصر على فصول من كتب اللغة، ولم يرق إلى الاستقلال بكتب بأعيانها، وفي هذا الصدد يقول الدكتور أحمد مختار عمر:

"ولم أجد أحداً من اللغويين قد أفرد أبنية الأسماء بتأليف مستقل بقصد استيعابها، ويعمد إلى تنظيمها ويجمع ما تفرّق منها، ولكنني وجدتهم قد ألّفوا في شيء خاص منها وهو "المقصور والممدود"، وممن ألف في ذلك الفراء، والأصمعي، وأبو عبيد، والزجاج، وأبو علي القالي.."(١٢).
وإذا كان الفراء المتوفى ٢٠٧ هـ قد ارتاد هذا المجال فهذا يعني أن البحث في أبنية الأسماء لم يتأخر كثيراً عن البحث في أبنية الأفعال. وإذا صرفنا النظر عن الكتب التي صنّفت في "المقصور والممدود" وتجاوزنا هذه الدائرة الضيقة وأصحابها فسنجد أن أبا عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) هو

صاحب السبق والفضل في توسيع دائرة البحث في أبنية الأسماء، إذ أفرد لهذا الموضوع ستاً وخمسين صفحة استهل بها كتابه "الغريب المصنّف"، وعقد أبواباً لما ورد فيه مثالان أو أكثر؛ وبين الصحيح والمعتل من المثال الواحد، فجعل لكل منهما باباً، وبين الأسماء والصفات من المثال الواحد، فأفرد لكل باباً...(١٣).

كما يعزى إلى يعقوب بن السكيت (ت ٢٤٤هـ) مثل هذا الاهتمام في كتابه "إصلاح المنطق" إذ خصص لأبنية الأسماء القسط الأكبر من الجزء الأول من الكتاب وبعض أبواب الجزء الثاني.(١٤) وتابع ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) سلفيه فأفرد، في القسم الثاني من كتابه "أدب الكاتب" بعض الأبحاث لأبنية الأسماء، كما تابع الاهتمام بهذا الضرب من البحث اللغوي كل من أبي الحسن الهنائي المعروف بكراع (كان حياً سنة ٣٠٧هـ) الذي "أفرد باباً من كتابه المنتخب والمجرد للغات استهلّه بأمثلة الأسماء التي تشغل قريباً من عشرين صفحة".(١٥). وكذلك فعل ابن دريد الأزدي في "جمهرة اللغة"، وابن سيده الأندلسي في "المخصص".

أما الكتب التي وضعت في أبنية الأسماء واستقلّت بها فأشهرها "المقصور والممدود" للفراء (ت٢٠٧هـ)، و"المذكر والمؤنث" لابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، وكتاب ما جاء من المبني على فعّال لعلي بن عيسى الربعي (ت٤٢٠هـ)، وكتاب "أبنية الأسماء" لابن القطاع (ت٥١٥هـ)، وكتاب "ما بَنَتْه العرب على فعّال"، وكتاب "يفعول" للصغاني (أو الصاغاني المتوفى سنة ٦٥٠هـ).

وألفوا فصولاً أو أبحاثاً في أبنية المصادر بدءاً من الكسائي (ت ١٨٣هـ) فالنضر بن شميل (ت ٢٠٣هـ)، فالفراء، وخص كتابه المصادر بمصادر القرآن، فأبي عبيدة، فالأصمعي، فأبي زيد الأنصاري، فنفطويه (ت ٣٢٣هـ).(١٦).

وفي غير ما إطالة يمكن القول إن هؤلاء اللغويين سلكوا، كنظرائهم من أصحاب المعاجم، مسالك متنوّعة في تبويب أبحاثهم، سواء أكانت فِقراً أو أقساماً ضمن كتاب، أم كانت معقودة على كتب مستقلة برؤوسها لهذا الغرض. ومع ما انطوت عليه مباحثهم من تباين في المنهج تبقى القضية واحدة، ويبقى منطلقها خدمة العربية واستيفاء أسرارها وبسطها ولمّ شواردها للمتعلمين.

ولعل أشهر وأشمل ما صنف في هذا الموضوع معجم "ديوان الأدب" لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠هـ.(١٧) ومن أبرز ما ذكره الفارابي في المقدمة المطولة لمعجمه هذا قوله:

"وقد أنشأت بتوفيق اللّه تعالى، وبه الحول والقوة في ذلك... كتاباً عملت فيه عمل من طبّ لمن حبّ (كصنعة الطبيب الحاذق لمن يحبه)، مشتملاً على تأليف لم أسبق إليه، وسابقاً بتصنيف لم أزاحم عليه، وأودعته ما استعمل من هذه اللغة، وذكره النحارير من علماء أهل الأدب في كتبهم، مما وافق الأمثلة التي مثّلتُ، والأبنية التي أوردت، مما جرى في قرآن، أو أتى في سنّة، أو حديث، أو شعر، أو رجز، أو حكمة، أو سجع، أو مثل، أو نادرة".(١٨).

ورتّب الفارابي المادة اللغوية على النحو الآتي:

أولاً: قسم كتابه إلى ستة أقسام سماها كتباً، وهي على الترتيب الآتي:

أ- كتاب السالم. ب- كتاب المضاعف. ج- كتاب المثال. د- كتاب ذوات الثلاثة. هـ- كتاب ذوات الأربعة. و- كتاب المهموز.

ثانياً: جعل كل كتاب من هذه الكتب شطرين: أسماء وأفعالاً، وقدّم الأسماء في كل كتاب على الأفعال.

ثالثاً: قسم كل شطر منهما إلى أبواب بحسب التجرّد والزيادة...

ويحسن توضيح ما قصد إليه الفارابي بستة الأقسام بغية تقريب منهجه من القارئ، أو تسليط مزيد من الضوء على مصطلحات الفارابي؛ فالمراد بالسالم عنده: "ما سلم من حروف المد واللين والتضعيف"، والمضاعف: "ما كانت العين منه واللام من جنس واحد" يعني مثل: حبب، مذ، هزّ. والمثال: "ما كانت في أوله واو أو ياء" يعني مثل: وعد، ينع. وكتاب "ذوات الثلاثة" عرفه بقوله: "ما كانت العين منه حرفاً من حروف المد واللين" وهو "الأجوف". وهذه التسمية "ذوات الثلاثة" مأخوذة من رد الفعل الأجوف إلى نفسك، أي تصريفه بصيغة المتكلم، نحو: قمت، بعت، نمت. أما كتاب ذوات الأربعة فهو عنده: "ما كانت اللام منه حرفاً من حروف المد واللين"، وهو "الناقص"، نحو: حكى، سعى، دنا.. فعند تصريف هذه الأفعال ونظائرها بصيغة المتكلم يصير بناؤها أربعة أحرف، إذ تقول: حكيت، سعيت، دنوت.

وذكر السرّ في إفراد المهموز بكتاب بقوله: "والهمزة كالحرف السالم في الحركات، وإنما جعلت في حروف الاعتلال لأنها تلين فتلحق بها".(١٩)

وراعى الفارابي في ترتيب أبواب معجمه المظاهر الصرفية من تجريد وزيادة وتثقيل وحشو وإلحاق، في الثلاثي والرباعي والخماسي وما ألحق به، كما راعى في ترتيب الأفعال المثال والأجوف والناقص والمهموز والمضاعف، وأخذ بمنهج مراعاة الترتيب الهجائي وفق باب الحرف الأخير؛ أي ما يعرف اليوم بنظام باب للحرف الأخير فصل الحرف الأول، على غرار ما صنع اليمان بن أبي اليمان البندنيجي المتوفى سنة ٢٨٤هـ في معجمه "التقفية في اللغة" الذي رتّبه البندنيجي وفق باب الحرف الأخير أو القافية كما نُقل عنه.(٢٠) ولم يكن معجم الفارابي "أول معجم سلك هذا النظام الذي أخذ به الجوهري" كما قرر الدكتور أحمد مختار عمر في مقدمة التحقيق.(٢١).

وأخذ بنظام الباب الأخير بعد الفارابي: القاضي نشوان بن سعيد الحميري (من علماء القرن السادس الهجري)، وابن منظور، والفيروزابادي وغيرهم.

وإذا كنا قد وقفنا قليلاً عند المعجم "ديوان الأدب" فلأنه: "أول معجم عربي جامع اتبع نظام الأبنية في ترتيب الألفاظ ولم يأخذ التأليف في الأبنية قبل الفارابي صورة المعجم الكامل الذي يتجه إلى حصر المادة اللغوية، وتوزيعها على الأبنية في نظام معين، وإنما اتجه بعض اللغويين إلى حصر

الأبنية والتمثيل لها، واتجه بعض آخر إلى العناية ببعض الأبنية، ومحاولة حصر ألفاظها، أي أن عملهم كان فاقداً لأهم عنصرين من عناصر المعجم الكامل وهما: الشمول والترتيب".(٢٢)

وما دام معجم "ديوان الأدب" قد اتصف بالشمول والترتيب، واحتل مرتبة الصدارة بين معاجم الأبنية، فمن المتوقع أن يكون له أثر واضح في المعاجم التي جاءت بعده، منهجاً ومضموناً. ويمكن رصد حصيلة هذا التأثر في ثلاثة اتجاهات هي بإيجاز:

١- ما صنّف حول المعجم نفسه، أو ما بني عليه، أو اختصره، أو زاد في أبوابه.

٢- الاستفادة به في جمع المادة اللغوية، وقد شمل ذلك معظم ما جاء بعده من مؤلفات لغوية. ويبدو معجم "الصحاح" للجوهري أكثر كتب اللغة تأثراً بديوان الأدب، في المادة اللغوية على وجه الخصوص.

٣- التأثر بمنهجه تأثراً منوّعاً وموزعاً بين التطابق وبين التعديل. أو بين جمع أبنية الأسماء والأفعال معاً، أو الاقتصار على أبنية الأفعال ومصادرها فقط، وأشهر معاجم النوعين.

أ- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكُلوم للقاضي نشوان بن سعيد الحميري(٢٣) الذي تأثر بالفارابي في المنهج، وإن أدخل عليه (على المنهج) بعض تعديلات يسيرة لا يظهر فيها عنصر الابتكار، كما أن المادة اللغوية الخاصة مشتركة بين المعجمين،(٢٤) أو متشابهة، وإن كان القاضي الحميري قد حشد في معجمه معارف متنوّعة من الأخبار والأقوال، في الأشجار والأحجار والكواكب وعلوم القرآن والقراءات والتفسير والأنساب، وما شابه ذلك(٢٥) من الاستطرادات التي لا تستدعيها طبيعة المادة اللغوية المنتظر وجودها في معاجم الأبنية.

ب- وتأثر بالفارابي محمود بن الحسين الكاشغري المتوفى عام ٤٦٦ هـ في معجمه "ديوان لغات الترك". والزوزني (أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن علي المقري البيهقي)، المعروف باسم "بو جعفرك" والمتوفى عام ٥٤٤هـ في معجمه "تاج المصادر". وهذه المعاجم الثلاثة صنفت لخدمة اللغتين التركية والفارسية بمنهج ومادة عربيين فكرةً وأسلوباً.

- ٤ -

- معاجم أبنية أخرى:

وثمة مؤلفات تُسلك في هذا اللون من البحث اللغوي، وتبدو موزّعة بين المعجمية وكتب الأبنية، فمن خصائص المعجمية نجد فيها الترتيب الهجائي بمراعاة أواخر الأصول أو أوائلها، مثلما نجد فيها محاولة الإحصار أو الاستيفاء. ومن البناء نجد فيها الوزن الواحد، أو محاولة تصنيف الأوزان بعد تحقيق أصولها بالاحتكام إلى الدلالة اللغوية أو إلى القواعد الصرفية.

ومن الأمثلة التي تصلح لإيضاح هذه الفكرة كتاب "ما بنته العرب على فَعَالِ" للصغاني.

وتجدر الإشارة إلى أن للصغاني كتباً أخرى على هذا الغرار مثل: كتاب الأفعال، وكتاب الافتعال، وكتاب الانفعال، وكتاب نقعة الصديان فيما جاء على وزن فعلان، وكتاب يَفْعُول.(٢٦) وقد أورد الصغاني في هذا الكتاب(١٣٠) مئة وثلاثين لفظة مما استعمله العرب من الثلاثي على بناء "فَعَالِ" في المعاني المختلفة. وألحق بها سبعة ألفاظ مما بني من الرباعي على معنى "فعال". وقد ذكر السيوطي هذه الألفاظ جميعاً في كتابه "المزهر" نقلاً عن الصغاني.(٢٧) جمعها في ثلاث مجموعات، جعل المجموعة الأولى منها على أسماء الأفعال خاصة، وجعل الثانية لأسماء المواضع خاصة، وجعل الثالثة لأسماء أعلام النساء، وأنواع الحيوان، والأشياء الأخرى كالحرب والشمس.(٢٨) ورتبه على حروف المعجم ووفق أواخر الأصول بادئاً بالهمزة في ثلاث كلمات هي: بَلاَءِ، شَرَاءِ، نَفَاءِ. ويلحظ أنه راعى الترتيب الهجائي في فصل الحرف الأول فبدأ بالباء، فالشين، فالنون. وانتهى بكلمة "بَهَانِ" أي بباب النون فصل الباء.

ولكنه أخل بالقاعدة التي تنص على بناء "فعال" من كل فعل ثلاثي، من "فَعَلَ" أو "فَعُلَ" أو "فَعِلَ" فحسب. ولا يجوز بناؤها مما جاوز ذلك. حين أورد أمثلة من الرباعي مثل: بَحْبَاحِ، وعَرْعَارِ، وقَرقارِ، ودهداعِ، وحَمْحَامِ... وفي تعليل هذه القاعدة يقول سيبويه:

"واعلم أن (فَعَالِ) جائزة من كل ما كان على بناء (فَعَلَ) أو (فَعُلَ) أو (فَعِلَ). ولا يجوز من (أفعلتُ)لأنا لم نسمعه من بنات الأربعة. إلا أن تسمع شيئاً فتجيزه فيما سمعت، ولا تجاوزه. فمن ذلك: قرقارِ، وعرارِ"(٢٩).

والقيمة العلمية في تخير مثل هذه الأبنية اللغوية تنصرف إلى بيان نشأة المعنى اللغوي ومجال استعماله أو دلالته العامة في تشعبها مما يسميه المحدثون من اللغويين الحقل الدلالي Semantic Field فأصل كلام العرب في استعمال صيغة (فَعَالِ) للأمر، عند حاجتهم إلى توكيد الكلام وتقوية معناه، وتثبيته في نفس السامع، وهذا هو السر في أن أكثر ما يجيء منه يكون مكرراً، كقول الشاعر:

حَذَارِ من أرماحنا حَذَارِ

وقول الآخر:

تراكِها من إبل تراكِها

وذلك عند شدة الحاجة إلى هذا الفعل.(٣٠) ويستعمل هذا البناء في النداء والتهديد والتحذير والزجر والشتم والمبالغة في الوصف أو الدلالة على غلبته على الشيء وما إلى ذلك من المعاني التي تشتد الحاجة إلى توكيد الكلام فيها.(٣١).

ولمحقق كتاب "ما بنته العرب على فعالِ" في مقدمته حديث وافٍ في تعليل هذا البناء ومجيئه اسماً للفعل، ومعدولاً من صفة المؤنث، ومعدولاً من مصدر مؤنث معرفة، واسماً علماً لامرأة أو لشيء آخر مؤنث. وغير خفي أنّ مدار ذلك كله صيغة "فَعَال" في وزنها الصرفي الثابت، ودلالتها

اللغوية المتحوّلة، مع محاولة إحصاء لعدد هذه الصيغ وتصنيف دلالاتها بنوع من الفلسفة اللغوية التي تكاد تبدو ترفاً علمياً أكثر منه نهجاً تعليمياً، ولكن ما يخلص إليه القارئ هو ضبط نطق هذه الصيغة في لغة العرب، وتعليل بنائها، وحصر ما تتصرف إليه، أو تقتصر عليه من دلالات أو مسميات، وفي هذا تقنين للغة بفرز أبنيتها في قوالب بأعيانها، وتصنيفها في أوعية خاصة سموها المعجمات، أو أخضعوها لمنهجية صناعة المعجمات، مع وضوح ما بينهما من اختلاف في التفصيلات.

ومن كتب الأبنية ما اقتصر على المذكّر والمؤنث ومثّل ظاهرة مستقلة في دائرة البحث اللغوي. وقد ألف فيه طائفة من اللغويين فعقدوا عليه فصولاً في تضاعيف كتبهم، أو خصوه بتأليف مستقل. نذكر من هؤلاء أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، وأبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ)، وأبا حاتم السجستاني (ت٢٥٥)، وأبا العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، وإبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١٠، أو ٣١١هـ)، وابن خالويه (الحسن بن أحمد المتوفى سنة ٣٧٠هـ)، وأبا الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، وأبا البركات عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري (ت٥٧٧هـ) وغيرهم.

ويشير بعض الباحثين إلى أن قدامى العرب لم يكونوا يفرقون بين المذكر والمؤنث بعلامات نحوية، وإنما بإدراك فطري غريزي، وأول ما عرفوا ذلك في الإنسان والحيوان اللذين كان لكل من المذكر والمؤنث فيهما كلمة مختلفة، نحو رجل وامرأة، وولد وبنت، وحمار وأتان، وحَمَل ورَخِل (الأنثى من أولاد الضأن). فلما كثرت عليهم الألفاظ لجؤوا إلى اتخاذ علامات أضيفت إلى المؤنث، لأن المذكر عندهم هو الأصل، وقيدوا بعض العلامات بقيود الوزن فقالوا مثلاً: إن علامة التأنيث الألف الممدودة توجد في اللغة العربية على الأخص في صيغة "فعلاء" مؤنث "أفعَل"، نحو سمراء وأسمر، وعرجاء وأعرج. وعلامة التأنيث الألف المقصورة توجد في اللغة على الأخص في صيغة "فُعلى" مؤنث "أفعَل" الدال على التفضيل، مثل كبرى وأكبر، وفي صيغة "فَعلى" و "فَعلان" مثل عطشى وعطشان، وسكرى وسكران.. وهذا اللون من التقييد أو التقعيد وفق "أبنية" هو الذي حمل اللغويين على تصنيف ما أُلف في المذكر والمؤنث ضمن معاجم الأبنية. وثمة حالات أخرى اعتمدوا فيها القياس أو التقعيد عند تمييز المذكر من المؤنث بالتاء "علامة التأنيث" كقولهم: إن دخول التاء يكون للمبالغة، أو تأكيد المبالغة في مثل: راوية، ونسّابة، وعلاّمة، أو لتمييز الواحد من الجنس، نحو تمر وتمرة، أو للدلالة على تعريب الأسماء الأعجمية، نحو فرزدق وفرازنة، ومَرْزُبان ومرازبة. أو للتعويض عن مدّة تفعيل، نحو زكّى تزكية، وربّى تربية.(٣٢) وكان الأصل أن يقال ذلك على قاعدة فعّل تفعيل، نحو هدّد تهديد، ورجّع ترجيع. وكل هذا مما يمكن سلكه في منظومة تقعيدية تتظاهر فيها القواعد الصرفية والنحوية والصيغ البنائية، وإن كان هذا النمط من التأليف أكثر بعداً من أبنية الأفعال عن معاجم الأبنية. نضيف إلى ذلك أنهم اعتمدوا القياس أيضاً في النظر إلى صيغة التأنيث التي تحمل علامته المعروفة بالألف المقصورة، فقالوا صغرى وكبرى، مؤنث أصغر وأكبر، وسموها صيغة "فُعلى" مؤنث "أفعَل" الدال على التفضيل، وإن لم يكن قياساً مطّرداً.

ومن كتب الأبنية "المقصور والممدود" اللذان يمثّل البحث فيهما شعبة من شعاب البحث اللغوي العام عند العرب. وكتاب الفرّاء الذي يحمل هذا العنوان يعد من "أول الكتب التي أسهمت في جلاء ظاهرة الخلط بين المقصور والممدود من الأسماء."(٣٣)

وصلة هذا اللون من التأليف بمعاجم الأبنية، أو بكتب الأبنية ترجع إلى أن النحاة يعتمدون، في التقعيد لمادته، على الأوزان غالباً، لا على أثر العامل النحوي، أو أثر السياق، أو التقديم والتأخير، أو وظيفة المفردة في الجملة أو التركيب... هنا يقولون مثلاً: "ما يعرف من المنقوص والممدود بالتحديد والعلامات. من ذلك المصدر في (أفعَل) الذي أنثاه (فعلاء) فهو منقوص، من ذلك عَمِيَ عَمَى، وعَشِي عَشَى، وطوِي طوَى.."(٣٤).

ويقولون: "وما كان من جمع (فعلَة) من الياء والواو على (فعِال) كان ممدوداً، مثل رَكْوة ورِكاء، وشكوة وشكاء، وفروة وفراء..."(٣٥).

ويقولون: "ما جمع على فَعيل أو فُعَال أو فَعُول على فِعَال مُدَّ أيضاً، مثل قولك: قصير وقصار، وكريم وكرام، مثل هذا من الياء والواو ممدود يكتب بالألف. وأكثر ما يجمع من الواو والياء (من جمع فعيل) على أفعِلاَء فيمدّ ويكتب بالألف، من ذلك وليّ وأولياء، وغني وأغنياء، ودعي وأدعياء، وإن جمع على فُعلاَء مُدَّ أيضاً وكتب بالألف مثل: شركاء وضعفاء.."(٣٦)

ومنه: "ما جمعته على فَعَالى أو فُعالى (بضم الفاء وفتحها) أو فَعْلى فهو مقصور يكتب بالياء، من ذلك: كَسَالى وكُسَالى، وسَكَارى وسُكَارى، وصرعى وأسْرى وأسارى. فإن كان على فُعالى وهو اسم واحد فهو مقصور يكتب بالياء مثل: حُبارى وجُمادى وذُنابى الطائر..."(٣٧).

وأنت إذا تأملت هذه القواعد والأحكام وجدت أن ألفاظ "الأوزان" طاغية فيها، ووجدتّها معقد التقعيد ومظنة الاحتكام لبيان الأصول والاستيثاق من سلامة القول الفصيح.

وأما تسويغ تصنيف أمثال هذه المؤلفات في جملة معاجم الأبنية فمردّه إلى التشابه الملحوظ بين مضمونها ومضمونات المعاجم المذكورة؛ فلو بوّبَ المؤلف أوزان المقصور والممدود كلها في أبواب، أو أوردها متتابعة، من الأبنية الصغيرة (الثلاثية مثلاً) إلى الأبنية الخماسية لتقيّل بذلك المعجميين في مناهجهم. ولو قام اللغويون باستقصاء الأسماء المقصورة والممدودة حتى استيفائها إحصاءً تاماً لكانت الحصيلة معاجم خالصة، ولكنها ليست عامة، وإنما تكون "معاجم متخصصة".

وقد ألّف اللغويون بعد الفراء ما يزيد على أربعين كتاباً في المقصور والممدود ذُكِر آخرها باسم ابن مالك النحوي (ت٦٧٢هـ)(٣٨) وهي رسالة بعنوان "ذِكْر معاني أبنية الأسماء الموجودة في المفصل".(٣٩).

- ٥ -

ولم يتوقف البحث والتأليف في "الأبنية" عند السلف، أو عند لغويي العصور المتأخرة، بل استمر ذلك في مصنفات المحدثين، نجد من ذلك كتاباً بعنوان "بحث في صيغة (أَفْعَلَ) بين النحويين واللغويين واستعمالاتها العربية "للدكتور أحمد النحاس،(٤٠) وفيه يربط المؤلف عمله بأعمال السلف ليبدو امتداداً لهم واستمراراً لصنيعهم في هذا المجال، يقول:

"... جاءت صيغة أفعل في اللغة العربية متداولة في الاستعمال في أغراض شتى وأنواع متعددة، فجاءت فعلاً متعدد المعاني مما جعل العلماء يعنون به ويؤلفون فيه كتباً كثيرة تحمل هذا الاسم: (فعلت وأفعلت) أو (فعل وأفعل) فألف فيه أبو زيد الأنصاري..."(٤١)

ثم يسرد أسماء من تقدم ذكرهم في بداية هذا البحث. ويعرض المؤلف في مفتتح كتابه لاستعمالات صيغة (أفعل) من ناحية فعليتها أولاً، وأسميتها ثانياً ذاكراً ما يتعلق بها من أحكام متفرقة.(٤٢) ويعقد فصول الكتاب الثلاثة على ورودها اسماً وفعلاً، والمعاني المستفادة من الصيغة كورودها للتعدية والنقل والصيرورة والتحريض... وإفادتها السلب والدعاء والتعجب واللزوم والتعدي...وورودها اسماً وصفة مشبهة وللتفضيل وممنوعة من الصرف... وهكذا حتى يستوفي هذه الصيغة وما يحيط بها من حالات ودلالات واستعمال، في التذكير والتأنيث والإفراد والجمع والصفة والشذوذ والزيادة... وفي معنى الفاعل والمفعول... إلخ.

وبعد، فقد يتساءل القارئ الكريم عن الحافز على وضع مثل هذه المصنفات في "الأبنية" أو عن القيمة العلمية لها، أو عن أثرها في خدمة العربية. وبيان ذلك لا يحتاج إلى فضل تأمل وتدبّر، إذ يمكن أن نبادر إلى القول إنه لا شيء يمنع من مثل هذه الرياضة العقلية ولمّ شعاب هذه الأبنية في أنساق وزمر وفق أوزانها لنستخلص منها ما لا نستطيع أن نقف عليه في غيرها من المصادر والمراجع، لأن الحديث عنها بالتفصيل لا يرد في سواها من فروع البحث اللغوي في العربية، بل سيبدو استطراداً في غير محله، أو إقحاماً له في غير نسيجه. وإيفاء الشيء حقه يستدعي إخلاص الجهد له وحده. ثم إن ما صنف في "الأبنية" كان يمثّل نهجاً من الجهود التعليمية التي التمست كل سبيل للحفاظ على العربية سليمة فصيحة، ولإيصالها إلى الشداة من غير ما طريق وأسلوب.

ومما يجدر استحسانه في معاجم الأبنية أنها نصّت في كثير من المواضع على الدقة والضبط بذكر الوزن وتقييد الحركات تسمية كقول الفراء مثلاً:

"هذا باب يُفتح أوله فيمدّ، وإذا كُسر أوله قُصر".(٤٣) وكقولهم مثلاً: مَفْعَل (بفتح الميم وإسكان الفاء وفتح العين) في اسم المكان، ومُفْعِل (بضم الميم وسكون الفاء وكسر العين) في اسم الفاعل، ومِفْعَل (بكسر الميم وسكون الفاء وفتح العين) لاسم الآلة... ذلك أن المعاجم القديمة لم تكن تهتم بالحركات في الضبط، وإنما كانت تكتفي بالحروف الساكنة.

ومن فوائد معاجم الأبنية في الدلالة اللغوية تعيين ما انصرفت إليه الأوزان من مثل بناء (فُعَال) بضم الفاء وفتح العين، فهذا البناء يعدد المعاني التي يتجه إليها في الأعم الأغلب تعدداً يشبه الحَصْر، أو القصرْ على ما هو شائع بين اللغويين، إذ قالوا: يختص هذا البناء بما هو مستقبح أو مستقذر نحو: البُصاق، والمخاط، والعطاس... وبما هو من الصغائر والبقايا كالغبار، والسُخام، والجُفاء. ونظيره من التأنيث بناء "فُعالة" نحو: الحُثالة، والنُخالة، والحُكاكة، والقمامة، والنفاية... وبما هو للأمراض والأصوات: كالصُداع، والنُكاف، والدُوار، والسعال، والنباح، والصُراخ، والعُواء... وبمثل هذا التقسيم يتعلم شُداة العربية كيف يقرؤون ويفهمون هذا البناء قراءة صحيحة وفهماً يستفيد من الاحتكام إلى القياس والخيارات المحدودة.

ومثل هذا يقال عن بناء "فِعَالة" بكسر الفاء وفتح العين الذي ينصرف غالباً إلى الحرفة نحو: النِجارة، والقبالة، والجدادة، والحياكة، والحجامة، والفراسة....

وتُعين معاجم الأبنية شداة العربية على ردّ الكلم على أصوله، من ذلك مثلاً تصنيف النحاة أبنية الأفعال الثلاثية الذي يستدعي تجريدها من الزوائد وإعادتها إلى أصولها نحو: الميناء من (وَنَى) بمعنى ضعف، فالمبتدئ قد لا يتهدّى إلى الأصل، أو قد يبحث عنه في (مَيَنَ)...

ونحو: تهامة والتهائم التي يثبت أصلها في (تَهَمَ)، أما التهمة فيثبت أصلها في (وَهَمَ)... وكل ذلك ونظائره قد يغمّ على المبتدئين استخلاصه من الكلمات المزيدة، أو التي فيها إبدال وإعلال... وهنا تتجلى أيضاً أهمية حصر المقصور والممدود وتحرّي أصولهما وتقييدهما في أنساق بعد التثبت من تلك الأصول. وبغير هذا الجهد وهذه المرحلة ستظل معرفة الأصول عسيرة على غير المتمكنين من أسرار العربية وخصائصها.

لقد عكف اللغويون العرب القدامى على دراسة الكلمة المفردة زمناً، فجمعوا نوادرها وغرائبها، وأحدثوا المعاجم وكُتب الشروح من أجل رصد دلالتها أو دلالاتها، واتخذوها شاهداً على صحة كلام العرب في النحو واللحن والفصاحة، ونظروا إلى وظيفتها في التركيب والسياق، وأسّسوا عليها في إيضاح الفصاحة والبلاغة فأشاروا إلى وجوب خلوّها من تنافر الحروف... واستكمالاً لهذه الجهود العلمية حول الكلمة المفردة جاءت معاجم الأبنية فأوفتها حقها من جهات الصوت والصرف والوزن والدلالة.

□

□ الحواشي والإحالات:

١- معجم "العين": ٤٩/١ بتحقيق د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي- ط: إيران ١٤٠٥هـ. والقرعبلانة: دويبة عريضة مُحْبَنْطِئة عظيمة البطن- اللسان: قرعبل.

٢- وانظر كتابنا: أبحاث في اللغة والأدب، دار شمأل، دمشق ١٩٩٤.

٣- الكتاب ٢٣٠/٤ تحقيق عبد السلام محمد هارون. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧.

٤- انظر: المعجم العربي -نشأته وتطوره للدكتور حسين نصار ج١/ ١٨٠-١٨١، دار مصر للطباعة، و "البحث اللغوي عند العرب" للدكتور أحمد مختار عمر ص ١٨٨-١٩٠، توزيع دار المعارف بمصر ١٩٧١.

٥- ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١٣٣)، وقال إنه كان ممن صنف في "الأفعال وتصاريفها". وانظر "معجم الألفاظ والتراكيب المولدة في شفاء الغليل فيما ورد كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ). تحقيق الدكتور قصي الحسين. دار الشمال، طرابلس، لبنان ١٩٨٧.

٦- انظر كتاب: فعلت وأفعلت لأبي إسحاق الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل ص ٨-٩ بتحقيق وشرح ماجد حسن الذهبي. الشركة المتحدة للتوزيع- ١٩٨٤.

٧- نفسه ص١٤.

٨- نفسه ص ٣١. ويجد القارئ المزيد من الأمثلة المشابهة في كتاب "ما جاء على فعلت وأفعلت بمعنى واحد" لأبي منصور الجواليقي، تحقيق ماجد الذهبي. ط: دمشق ١٩٨٢.

٩- كتاب: فعلت وأفعلت للزجاج ص ٤٣.

١٠- نفسه ص٦٣.

١١- الموضع السابق ص ١١٠-١١١

١٢- البحث اللغوي عند العرب ص ١٩٠ (م. س)

١٣- وانظر "المعجم العربي" للدكتور حسين نصار ١/ ١٩٠ (م. س).

١٤- الموضع السابق ١/١٩٠- ١٩١.

١٥- نفسه ١/ ١٩٣.

١٦- انظر: البحث اللغوي عند العرب ص ١٨٩ (م. س).

١٧- صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتحقيق الدكتور أحمد مختار عمر، ومراجعة الدكتور إبراهيم أنيس بدءاً من سنة ١٩٧٤.

١٨- ديوان الأدب: ج١/ ٧٢-٧٣.

١٩- ديوان الأدب، المقدمة ص ١٠-١١.

٢٠- كان البندنيجي ضريراً شاعراً عارفاً باللغة، ولقي ابن السكيت، وقد حقق هذا المعجم الدكتور خليل العطية، وطبعته وزارة الأوقاف ببغداد سنة ١٩٧٦.

٢١- ص٤٠.

٢٢- انظر: البحث اللغوي عند العرب ص ١٩٠ (م. س).

٢٣- صدر بتصحيح عبد الله الجرافي اليمني. ط. عالم الكتب (جزآن)- بيروت (د.ت).

٢٤- لمزيد من التفصيل انظر مقدمة المحقق ص ٥٢-٥٣.

٢٥- وانظر: المعجم العربي ١/ ٢٠٥ (م. س)

٢٦- انظر: ما بنته العرب على فعال ص ١٧ من مقدمة المحقق الدكتور عزة حسن. مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ١٩٦٤.

٢٧- انظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها ٢/ ١٣١- ١٣٤ بتحقيق محمد جاد المولى وزميله. ط: عيسى البابي الحلبي.

٢٨- ما بنته العرب على فعال ص٢٣.

٢٩- الكتاب ٢/ ٤١ طبعة بولاق. القاهرة ١٣١٦-١٣١٧هـ.

٣٠- وانظر: ما بنته العرب على فعال ص٢٧.

٣١- الموضع نفسه.

٣٢- للوقوف على مزيد من التفصيل حول التذكير والتأنيث انظر المقدمة الضافية التي قدم بها الدكتور رمضان عبد التواب لكتاب "البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث" لأبي البركات بن الأنباري. ط: دار الكتب ١٩٧٠.

٣٣- حقق الكتاب "المقصور والممدود" في نشرته الثانية: عبد الإله نبهان، ومحمد خير البقاعي، وصدر عن دار قتيبة بدمشق عام ١٩٨٣م. وانظر المقدمة ص٥. وكان الكتاب قد طبع في مصر بتحقيق عبد العزيز الميمني ضمن سلسلة ذخائر العرب (٤١) عام ١٩٦٧.

٣٤- المقصور والممدود للفراء ص ٢٣-٢٤

٣٥- نفسه ص ٢٦.

٣٦- نفسه ص ٢٧-٢٨.

٣٧- المقصور والممدود ص ٣٢-٣٣.

٣٨- المصدر السابق، ص١٦-١٨.

٣٩- و "المفصل في علم العربية كتاب لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) وقد أعدّ هذه الرسالة للنشر د. عبد الإله نبهان، ونشرت في المجلد ٣٣ الجزء الأول في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٩، وتضم هذه الرسالة (١٦٥) مئة وخمسة وستين بناء، فيها عدد قليل من الأبنية المعربة من لغات أخرى.

٤٠- صدر الكتاب عن مطبعة السعادة بالقاهرة عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٤١- المقدمة ص ٣.

٤٢- نفسه ص٤.

٤٣- المقصور والممدود ص١٦.

□□□

بين الصحاح والقاموس المحيط

محمود فاخوري

يعدّ *معجم "الصّحاح" رائد طريقة خاصة في ترتيب المعاجم اللغوية، يمكن أن نسلك في نظامها معاجم أخرى ظهرت فيما بعد، كلسان العرب لابن منظور، ومختار الصحاح لمحمد الرازي، والقاموس المحيط للفيروزابادي، وتاج العروس للزّبيدي. وقد رتّبت المواد في هذه المعاجم جميعاً ترتيباً هجائياً على أواخر الأصول المجرّدة أبواباً وفصولاً.*

وصاحب "الصحاح" هو أبو نصر الجوهري، إسماعيل بن حماد، الذي توفي في أواخر القرن الرابع للهجرة، وكان من أئمة اللغة والنحو المشهورين، وأحد أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلماً. تتلمذ في العراق لأبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي، وسافر إلى الحجاز، فطاف بالبادية وشافه الأعراب، ورحل في طلب العلم، ثم استقرّ في نيسابور من بلاد خراسان، وعكف فيها على التدريس والتأليف حتى وفاته. وقد اشتهر بخطه البديع. الذي يذكر عادة مع خط ابن مقلة، ويضرب به المثل.

وأشهر كتب الجوهري: "الصحاح"(1) واسمه الكامل هو "تاج اللغة وصحاح العربية" وسمّاه كذلك لأنه أودعه ما صحّ عنده من اللغة. وتعني الصحة لديه:التزام الصواب في النقل، وتحرّي الضبط في التدوين.

ولم يكن "الصحاح" أول معجم عرفته العربية؛ بل سبقته عدة معاجم: كالعين للخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، وجمهرة اللغة لابن دريد (-321هـ)، والبارع لأبي علي القالي (-356هـ)، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (-370هـ) ومقاييس اللغة، والمجمل، وكلاهما لابن فارس (-395هـ). وهذه المعاجم كلها تختلف في طريقة ترتيب المواد عن الصحاح، كما تختلف فيما بينها أيضاً. ولسنا هنا بسبيل الحديث عنها. ولكن الذي يهمنا ذكره في هذا المقام أن الصحاح أول معجم يصل إلينا على طريقته التي اختارها الجوهري في بنائها الكامل ومنهجها المتميّز، وقد قال في مقدمة صحاحه: "أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة... على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه". وتقوم هذه الطريقة على الأسس التالية:

١- رتّبت المواد ترتيباً هجائياً بحسب الحرف الأخير من الأصل المجرد. وعلى هذا نجد "جلس" في باب السين، و "سمع" في باب العين.. ولكن الجوهري جمع بين الواو والياء في باب واحد، فأصبح عدد الأبواب ٢٧ باباً، بدءاً من أول الحروف الهجائية إلى نهايتها.

٢- ثم إنه قسم كل باب إلى ٢٨ فصلاً، بعدد حروف الهجاء، مراعياً فيها ترتيب المواد بحسب الحرف الأول وما يليه ضمن كل باب، لتسهيل العثور على الكلمة. فـ "جلس" في فصل الجيم من باب السين، و"سمع" في فصل السين من باب العين... ونجد كلاً من "شجر" و "شبر" في (باب الراء- فصل الشين) ولكن "شبر" تذكر قبل "شجر" لتقدّم الباء على الجيم في الترتيب الهجائي. إلا أن الجوهري -في كل باب- يقدم فصل الواو على فصل الهاء.

٣- وألحق الجوهري بمعجمه باباً سماه "باب الألف اللينة" ضمنه الكلام على الأدوات التي تنتهي بألفٍ غالباً، والتي لا يعرف أصلها، مثل: (إذا، إلاّ، ألا، إلى، أنّى، إيا، ذا، متى، هنا، كذا، كلاّ...) ومثل: (ذو، ذوات، إذْ، إذن، لات...).

وقد صنّف الجوهري صحاحه للأستاذ أبي منصور البيشكي(٢)، وحظي هذا المعجم بثناء العلماء واللغويين، وتفضيلهم إياه على غيره، فقال الثعالبي: "وله كتاب الصحاح في اللغة، وهو أحسن من الجمهرة، وأوقع من تهذيب اللغة، وأقرب متناولاً من مجمل اللغة".

وقال الخطيب التبريزي: "وكتاب الصحاح هذا حسن الترتيب، سهل المطلب لِما يُراد منه، وقد أتى بأشياء حسنة، وتفاسير مشكلات من اللغة.."(٣). كما أشاد به ياقوت الحموي قائلاً: "وهذا الكتاب هو الذي بأيدي الناس اليوم، وعليه اعتمادهم. أحسن [الجوهريّ] تصنيفه، وجوّد تأليفه، وقرّب متناوله، وآثر من ترتيبه على من تقدّمه، يدل وضعه على قريحةٍ سالمة، ونفسٍ عالمة..."(٤). وأقرّ بشيء من ذلك منافسه الفيروزابادي فقال في مقدمة القاموس المحيط: "رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جديرٌ بذلك".

على أن هؤلاء المصنّفين وغيرهم ذكروا أن المحققّين من العلماء تعقّبوا الجوهري وأخذوا عليه تصحيف عدة مواضع في كتابه، غلط فيها وأخطأ المرمى. وعللّوا ذلك بأن الجوهري لما انتهى من تصنيفه سُمع عليه إلى باب الضاد المعجمة، ثم اعترته وسوسة فألقى بنفسه من سطحٍ فمات، وبقي سائر الكتاب مسودةً غير منقّح ولا مبيّض، فبيّضه بعد موته تلميذه أبو إسحق، إبراهيم بن صالح الوراق(٥) -من مذكوري الأدباء في نيسابور- فغلط فيه في عدّة مواضع غلطاً فاحشاً(٦). وكان الفيروزابادي بعد ذلك أشدّ العلماء تحاملاً على الجوهري وصحاحه.

وهذا لا يضير "الصحاح" كثيراً، وقد اعتذر عنه الخطيب فقال: "ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهوٍ يقع فيها أو غلط.. غير أن القليل من الغلط الذي يقع في الكتب إلى جنب الكثير الذي اجتهدوا فيه، وأتعبوا نفوسهم في تصحيحه وتنقيحه، معفوٌ عنه"(٧). كما أحسن ياقوت في مثل ذلك وهو يقول: "ومن ما ساء قطّ، ومن له الحسنى فقط؟ فإنه -رحمه الله- غلط وأصاب، وأخطأ المرمى

وأصاب، كسائر العلماء الذين تقدّموه وتأخروا عنه فإنّي لا أعلم كتاباً سلّم إلى مؤلّفه فيه، ولم يتبعه بالتتبع من يليه".

لقد استمد الجوهري مادة كتابه من السماع، والرواية عن العلماء، ومن مشافهة العرب في البوادي؛ وممّا أُلّف قبله من المعاجم: كالعين، والجمهرة وما إليهما، وأكثر من شواهد القرآن والحديث والشعر، حتى بلغ عدد موادّه -كما قالوا- أربعين ألف مادّة، مرتبةً ترتيباً سهل المأخذ، خالياً من التعقيد والاضطراب، وقد التزم فيه -كما رأينا- طريقة التقفية، لأن الكلمات تتعاقب في كل باب تعاقب القوافي في القصيدة. وهذا كله يشهد للجوهري بالعبقرية الفذّة، إذ كان عمله مزيجاً من الفكر والعقل والقلب، وما زال حتى أقام بناءً كاملاً بل صرحاً ممرّداً ارتضاه الناس من بعده، وتفيّأ اللغويّون ظلاله جيلاً بعد جيل، وإن كان لا يخلو من بعض العثرات والأوهام، لأسبابٍ أشرنا إلى بعضٍ منها، وفي مكنة القارئ تقرّي بعضها الآخر.

وهكذا سارت طريقة الجوهري من بعده، وارتضى اللغويون ترتيب "الصحاح"(٨)، فجاء ابن منظور المصري (-٧١١هـ) بعد ثلاثة قرون وألف معجم "لسان العرب" الذي يعدّ من أضخم المعاجم العربية وأغزرها مادة، إذ بلغ عدد موادّه ثمانين ألف مادة، مع شواهد كثيرة، وأخبار، وأشعار، جعلته موسوعة مختلفة الألوان، وحظي على مدى الأيام بتقدير العلماء وثقتهم، وإن كان لا يخلو أيضاً من بعض المآخذ. وقد جمع فيه ابن منظور بين خمسة معاجم صنفت قبله، وهي: التهذيب للأزهري (-٣٧٠هـ)، والصحاح للجوهري (-٣٩٦هـ) والمحكم لابن سيده الأندلسي (-٤٥٨هـ) وحواشي ابن بري على الصحاح (-٥٧٦هـ)، والنهاية لابن الأثير (-٦٠٩هـ). ولم يكن "جمهرة اللغة" لابن دريد من أركان "لسان العرب" خلافاً لما يظنّه بعض الباحثين.

وقد التزم ابن منظور طريقة "الصحاح" ومنهجه التزاماً كاملاً، وصرّح بذلك في المقدمة قائلاً: "ورتّبته ترتيب الصحاح في الأبواب والفصول".

ونتجاوز لسان العرب إلى معجم آخر نخصه بالشقّ الثاني من هذا البحث وهو "القاموس المحيط".وصاحبه هو مجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروزابادي (٨١٧هـ)(٩)، وكان في أول أمره قد شرع في تأليف معجم سماه "اللامع المُعلّم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب"(١٠)، وقدّر له نحو ستين جزءاً، ولكنه عدل عنه بعد ذلك إلى اختصاره في كتابٍ آخر "محذوف الشواهد، مطروح الزوائد، مُعْرِباً عن الفصَح والشوارد" وسماه "القاموس المحيط" لأنه البحر الأعظم. ورتّبه على طريقة الصحاح واللسان، وأوضح ذلك بنفسه قائلاً:

إذا رمت في القاموس كشفاً للفظةٍ	*فآخرها للباب، والبدءُ للفصلِ*
ولا تعتبر في بدئها وأخيرها	*مزيداً، ولكنْ اعتبارك للأصلِ(١١)*

وقد أدمج الواو والياء أيضاً في بابٍ واحد، كما ألحق به "باب الألف اللينة"، وذكروا أن عدد موادّه ستون ألف مادّة.

أما مصادره فلم يصرّح في المقدمة إلا باثنين منها، كان عليهما جلّ اعتماده، وهما "المحكم" لابن سيده، و"العباب" للصغاني، وأنه أضاف إليهما زياداتٍ منّ الله بها عليه عند غوصه عليها من بطون الكتب. ولا نشكّ في أنه رجع إلى التهذيب والصحاح والنهاية والمُغرب للمطرّزي، وأساس البلاغة للزمخشري، ولسان العرب وغيرها. وقد جاء ذكر بعضها خلال كتابه. بل إنني قابلت بين عددٍ من الموادّ المشتركة بين القاموس المحيط واللسان فوجدت الفيروزابادي يسير على خطا اللسان في سرد كلمات كل مادّة، ويمشي معه، سالكاً طريق الاختصار والإيجاز، وحذف الشواهد والنصوص.

وأبرز ما يمتاز به القاموس المحيط: كثافة مادّته، وإيجاز عبارته التي تصل أحياناً إلى حدّ الغموض أو اللّبس، مع حرصٍ على الشمول والاستيعاب، واعتماد رموز واصطلاحاتٍ خاصة رغبة في الاختصار، ودفعاً للتكرار. وقد ذكرها في مقدمة كتابه وأشار إلى بعضها أحد الشعراء بقوله:

وما فيه من رمزٍ فخمسة أحرف: فميمٌ لمعروف، وعينٌ لموضع

وجيمٌ لجمعٍ، ثم هاءٌ لقريةٍ، وللبلد: الدالُ التي أهملت، فعِ(١٢)

ومن خصائص القاموس المحيط أيضاً أنه يضبط الكلمات بألفاظ شائعة معروفة، ولا يكتفي في ذلك بالشكل والحركات، ويعنى بضبط أعلام الأشخاص والأمكنة في نهاية كل مادة غالباً، كما يهتم بإيراد المولّد والأعجمي من الألفاظ وبيان أصله، ويميّز بين واوي اللام ويائيّها في الباب الأخير... مثل: و(غزا)- ي(رمى)- و(محاه)- ي(محاه)...

وهذا الكتاب -على جلالة قدره- لا يخلو من المآخذ أيضاً، من ذلك: اقتصاره على متن اللغة، دون شروح وافية، ولا شواهد كافية، حتى إن عبارته لا تخلو أحياناً من الاضطراب الذي يدعو إلى تقليب وجوه التأمل والنظر فيها قبل الوصول إلى المراد.

هذا إلى اضطراب آخر في ترتيب ألفاظ كل مادةٍ فيما بينها -وهو عيب تشترك فيه كل المعاجم القديمة- لذلك كله كانت القراءة في القاموس المحيط تحتاج إلى المرانة، وإلى مزيدٍ من الأناة والتدبر.

على أن من يقرأ مقدمة "القاموس" فلا بدّ أن يلفت نظره اعتداد الفيروزابادي بنفسه، وإدلاله بسعة إحاطته اللغوية: "إني قد نبغت في هذا الفن قديماً، وصبغتُ به أديماً، ولم أزل في خدمته مستديماً". حتى إنه لم يستطع أن يخفي تحامله على الجوهري، والغمز من قناته، فقال في مقدمة كتابه، مزهواً بتأليفه:

"ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري -وهو جديرٌ بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادّة- أردت أن يظهر للناظر باديَ بدء فضلُ كتابي هذا عليه، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه، وفي سائر التراكيب تتضح المزيّة بالتوجّه إليه".

وكأنه أحسّ بما يحمله كلامه هذا من سمة الإعجاب بالنفس، فأراد أن يخفّف من غلوائه، وأكمل عبارته بقوله:

"ولم أذكر ذلك إشاعة للمفاخر، بل إذاعةً لقول الشاعر: (كم ترك الأول للآخر)... ثم إني نبّهت فيه على أشياء ركب فيها الجوهريّ رحمه الله خلاف الصواب، غير طاعن فيه، ولا قاصدٍ بذلك تنديداً له وإزراءً عليه، وغضّاً منه؛ بل استيضاحاً للصواب واسترباحاً للثواب، وتحرّزاً وحذاراً من أن يُنمى إليّ التصحيف، أو يُعزى إليّ الغلط والتحريف".

ثم هو بعد ذلك يعيب معظم الكتب اللغوية قبله بما فيه "من الأوهام الواضحة، والأغلاط الفاضحة" ويصرّح بأنه اختصّ كتاب الجوهري من بينها "لتداوله واشتهاره بخصوصه، واعتماد المدرّسين على نقوله ونصوصه".

ولم يكتف الفيروزابادي بذلك، بل راح -فيما يعرضه من المواد والشروح- يتعقّب الجوهري في كل موضع، ويغتنم كل سانحة، فيغلّطه تارة؛ ويوهّمه تارة أخرى. وما أكثر ما يقول: "وهم الجوهري" أو "غلط الجوهري".

ومن الطريف أن هذا الأمر انقلب، من بعد، إلى معركة بين اللغويين والمدرّسين من القدامى والمحدثين، في انتصار فريق منهم للصحاح، وآخر للقاموس المحيط، حتى أُلّفت في ذلك كتب كثيرة، وقيلت نتفٌ ومقطوعات أشبه بالنقائض الشعرية، سوى ما ألفه علماء آخرون، ممن لم تأخذهم العصبية لأحد الكتابين على الآخر.

ومن أشهر الكتب في هذا المضمار اثنان: أولهما كتاب "الوشاح وتثقيف الرماح في ردّ توهيم المجد للصحاح"(١٣) لأبي زيد المغربي العمري، نزيل مكة. وثانيهما: كتاب "الدر اللاقيط في أغلاط القاموس المحيط" لمحمد بن مصطفى، الشهير بداود زاده التركي. وهو يعني بأغلاط القاموس المحيط ما أخذه الفيروزابادي على الجوهري وضمنه كتابه القاموس.

كما أن الزبيدي في كتابه: "تاج العروس" -وهو شرح للقاموس المحيط- ردّ كثيراً من مآخذ المجد على الجوهري، وأثبت صواب ما جاء في الصحاح.

أما الأشعار فقد أثنى على القاموس وانتصر له غير واحدٍ، فمن ذلك ما قاله الأديب نور الدين علي بن محمد العفيف المكي، المعروف بالعُلَيفي:

مُذْ مدَّ مجدُ الدين في أيامه ... من بعض أبحر علمه "القاموسا"

ذهبت "صحاح" الجوهريّ كأنها ... سحر المدائن حين ألقى موسى(١٤)

وكتبت أديبة عصرها زينب بنت أحمد الحسنيّة (-١١١٤هـ) إلى السيد موسى بن المتوكل تطلب منه القاموس:

مولاي موسى، بالذي سمك السّما ... وبحقّ مَنْ في اليمّ ألقى موسى

أمنُــنْ علــيّ بعــارةٍ مــردودةٍ   واسمح بفضلك، وابعث القاموسا(١٥)

وقد ردّ على القول الأول العالم المشهور أديب الشام عبد الغني النابلسي قائلاً:

من قال: قد بطلت صحاح الجوهري   لما أتـى القـاموس، فهـو المفـتري

قلت: اسمه القاموس، وهو البحر، إنْ   يفخر فمعظم فخره بالجوهر(ي)(١٦)

وهذا الفقيه جمال الدين محمد بن الصباح الصباحي يقول في مدح القاموس المحيط:

من رام في اللغة العلوّ على السُّها   فعليه منهـا مـا حـوى قاموسُـها

مُغـنٍ عـن الكتـب النفيسـة كلِّهـا   جمّـاع شـمل شـتيتها ناموسـها

فـإذا دواويـن العلـوم تجمّعـت   فـي محفل للدرس فهو عروسُـها

لله مجـد الديـن، خـير مؤلِّـف   ملك الأئمـة، وافتدتـه نفوسُـها

وفي صحاح الجوهري يقول إسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوري:

هـذا كتـاب الصحـاح سـيّد مـا   صنّـف قبل الصحـاح فـي الأدب

يشـمل أبوابـه، ويجمـع مـا   فُرّق في غيره من الكتـب(١٧)

وكانت ثمرات ذلك وغيره خيراً للعربية عامةً وللكتابين خاصةً، إذ اهتم بهما اللغويون والمصنفون قديماً وحديثاً، فعرضوا لما فيهما من أوهام، واستدركوا ما فاتهما من نقص، وفصّلوا ما فيهما من إجمال، واستكملوا شواهدهما، وترجموهما إلى لغاتٍ أخرى كالفارسية والتركية، بل إن بعض المصنفين اختصروهما، كما وصل الأمر ببعض المعاصرين إلى تغيير ترتيبهما، وقلب نظامهما، تسهيلاً للدارسين، وتيسيراً على الباحثين، حتى كادت تتلاشى معالم كلٍّ من هذين الكتابين، وأوشك أن يفقد لبوسه الذي ألبسه إياه صاحب الحقّ فيه، ولا ندري: أيرضى الجوهري عما فعله المتأخرون في صحاحه، أم يتقبّل الفيروزابادي ما صار إليه أمر قاموسه بقبول حسن؟!

ومهما يكن من أمرٍ فقد أُلّفت كتبٌ في تصحيح ما في الكتابين: الصحاح، والقاموس المحيط أو تكملتهما أو تذييلهما،

أما الصحاح فمن أشهر الكتب المؤلفة حوله في ذلك:

١- *التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح(١٩) لابن بري المصري، المتوفى سنة (٥٨٢هـ)، ويعرف بين الناس باسم "حواشي ابن بري على الصحاح"، وقد وصل فيه مؤلفه إلى مادة "وقش".*

٢- التكملة والذيل والصلة: لرضي الدين، الحسن بن محمد الصاغاني (-٦٥٠هـ) ويقع في ستة مجلدات ضخمة، استدرك فيه على صحاح الجوهري ما فاته من اللغات، واستتم ما أغفله من معاني الكلمات، وتعقب أوهامه وما أخطأ فيه بالتصحيح.

٣- نفوذ السهم فيما وقع للجوهري من الوهم: لصلاح الدين الصفدي. وقد أفاد فيه من حواشي ابن بري، وزاد عليه فوائد أدبية واستدراكات حسنة.

وقام بعضهم أيضاً بتهذيب مواد الصحاح واختصاره، ومن هذه المختصرات:

١- تهذيب الصحاح: لمحمود الزنجاني (-٥٦٥هـ) طبع سنة ١٩٥٢م في ثلاثة أجزاء، على ترتيب الصحاح نفسه، مختصراً مواده إلى ما يقارب ثلث الأصل.

٢- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر الرازي (-٧٦٠هـ). ويبلغ في مادته عُشر ما في الصحاح، ولذا كان مختصراً جداً لا يفي بالغرض. وقد التزم فيه الرازي الترتيب على الباب والفصل أيضاً، وطبع على ذلك عدة مرات. ثم قام منذ أوائل هذا القرن محمود خاطر أحد موظفي مطبعة بولاق في مصر بترتيبه على الحرف الأول على طريقة أساس البلاغة والمغرب والمصباح المنير والمعجمات الحديثة، وحذف منه بعض الألفاظ التي رأى أنها لا تليق في السمع، وظهرت طبعته هذه أول مرة سنة ١٩٠٧= ١٣٢٥هـ ثم تعددت طبعاته في بلاد الشام ومصر، بإثبات ما حذف منه تارة، والعودة إلى الحذف تارة أخرى.

٣- المختار من صحاح اللغة: تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد، ومحمد عبد اللطيف السبكي، وقد أضافا إلى مختار الصحاح زيادات تعادل نصفه استمداها من عدة معاجم وهي: المجمل، والأساس، والنهاية، واللسان، والمصباح المنير والقاموس المحيط، والتاج، ومحيط المحيط، ونسب كل جزء من هذه الزيادات إلى أصله برمز اصطلح عليه المؤلفان، ووضعا هذه الزيادات بين مربعين لتمييزها عن النص الأصلي لمختار الصحاح. وقد تم تأليفه سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م وطبع مراراً.

٤- إيضاح مختار الصحاح: نشر سنة ١٩٩٧ إعداد: نديم المرعشلي، وأسامة المرعشلي، وعادل المرعشلي. وهو إحياء لمختار الصحاح على طريقة متكاملة تقوم على إكمال الآيات القرآنية وتخريج الأحاديث النبوية وإتمام الأبيات الشعرية مع شرح ما يعسر فهمه من ذلك كله.

وفي السنوات الأخيرة ظهرت طبعتان حديثتان تنتسبان إلى "الصحاح" وتُعزيان إليه، وهما:

١- الصحاح في اللغة والعلوم -"تجديد صحاح العلامة الجوهري، والمصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية"- إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي- دار الحضارة العربية- بيروت ١٩٧٤ في مجلدين. وهذا الكتاب تهذيب لصحاح الجوهري،

وإعادة لترتيبه على أوائل الأصول بدلاً من أواخرها، وحذف لما فيه من القضايا الصرفية والنحوية، وكلمات الموازين لأن الحروف المشكولة تغني عنها، مع اختصار الشواهد الشعرية الموغلة في بداوتها أو المتسمة بالسطحية منها، يضاف إلى ذلك عمل يرتبط بالمعاصر، إذ ضم الكتاب نتاج المصطلحات اللغوية والعلمية مندرجة بحروف أصغر في مواد المعجم نفسها أو مستقلة بحسب ورودها دخيلة أو معربة، مع الإشارة إلى مصادرها. وبذلك أصبحت من صلب العمل المعجمي، مع استخدام عدد من الرموز والمصطلحات لا مجال لذكرها هنا. وبذلك كان هذا العمل بعضُه إحياءً وبعضه تجديد.

٢- *"الوسيط في اللغة والعلوم" وهو مختصر للكتاب السابق، وقام بهذا العمل الأديبان: نديم مرعشلي، ونجله: أسامة، ونشر في مجلد واحد سنة ١٩٧٥م.*

أما القاموس المحيط فقد أثار اهتمام الكثيرين من اللغويين في القديم والحديث(٢٠)، فتناولته كتب كثيرة بالشرح والاختصار والزيادة والنقد، ونذكر هنا بعضها:

١- *تاج العروس من جواهر القاموس: لمرتضى الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) وهو شرح مطوّل للقاموس المحيط ، مع زيادات واستدراكات كثيرة ختم بها كل مادّة. وهو يقع في عشرة مجلدات في طبعته القديمة الكاملة، ويطبع أخيراً في الكويت، وقد ظهر منه ثلاثون مجلداً منذ سنة ١٩٦٥ حتى اليوم، ويُنتظر أن تصل طبعة الكويت إلى الأربعين مجلداً.*

٢- *الجاسوس على القاموس: لأحمد فارس الشدياق (-١٣٠٤هـ = ١٨٨٧م) وقد تتبع فيه عثرات الفيروزابادي وأوهامه في القاموس المحيط، وكأنه وقف منه موقف الفيروزابادي نفسه من صحاح الجوهري.*

٣- *ترتيب القاموس المحيط: للطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي. وقد عمد إلى القاموس المحيط فأعاد ترتيبه على حسب أوائل الكلمات وطبع أول مرة سنة ١٩٥٩م في أربعة مجلدات، ولكنه حذف من آخره (باب الألف اللينة)!!*

٤- *مختار القاموس: للطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي. وقد اختصر فيه القاموس المحيط على طريقة المصباح وتقليداً لمختار الصحاح. وطبع في مجلد واحد سنة ١٩٦٤م = ١٣٨٣هـ.*

تلك هي قصة المعجمين اللغويين: صحاح الجوهري، وقاموس الفيروزابادي، في كل ما يتصل بهما، قديماً وحديثاً من حيث المضمون والتعليقات والموازنات، وما أثير حولهما من ردود ومناظرات ومناقشات في الشعر والنثر، وقد عاد ذلك، كما قلنا، بالخير والفائدة على اللغة العربية عامةً، وعلى هذين المعجمين خاصةً. ولم ينل غيرُهما من المعاجم ما نالا من عناية اللغويين واهتمامهم ومتابعاتهم، حتى وصل الأمر إلى اختصارهما وتهذيبهما في معجمات أخرى مستحدثة، اختلفت طرائقها ومناهجها في الاختصار والتهذيب قديماً وحديثاً، ولعلنا بذلك كله قد قدمنا للقارئ صورة علمية وطريفة في آنٍ عن جانب غني من جوانب بعض معاجمنا اللغوية، راجين أن نكون قد وفينا هذا الجانب حقه من البحث والتقصي.

□□

□ الإحالات:

١- الصحاح بكسر الصاد، جمع "صحيح". وبفتحها: مصدر، مثل براء. (المزهر للسيوطي ٩٧/١).
٢- هو عبد الرحيم بن محمد البيشكي، بكسر الباء، من أهل الرياسة والجلالة، والعظمة والثروة، في نيسابور. نسبته إلى بيشك قرية في نيسابور. (انظر نزهة الألباء للأنباري ص٣٤٤).
٣- المزهر للسيوطي ٩٧/١- ٩٨.
٤- المزهر للسيوطي ٩٩/١.
٥- إنباه الرواة للقفطي ١٦٩/١.
٦- معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٥٦/٦. وعنه (المزهر ٩٩/١).
٧- المزهر ٩٧/١- ٩٨.
٨- حتى إن المناوي عمد إلى اختصار أساس البلاغة للزمخشري، وجعل ترتيبه على نظام الصحاح وسمى كتابه هذا "إحكام الأساس".
٩- ولد في قرية "كارزين" قرب شيراز في بلاد فارس، بعد وفاة ابن منظور بثمانية عشر عاماً، وتنقل بين بلاد الشام ومصر وبلاد الروم، ولقي تكريماً وافراً من تيمورلنك، ثم دخل إلى بلاد الهند فأكرمه ملكها أيضاً. وكان لا يسافر إلى وصحبته عدة أحمال من الكتب، ولا ينام حتى يحفظ أكثر من مئتي سطر. وقد ألف ما يزيد على العشرين كتاباً في اللغة والتفسير والحديث والتراجم وغير ذلك.
١٠- جمع فيه بين كتابي "المحكم" لابن سيده (-٤٥٨هـ)، و"العباب" للصاغاني (٦٥٠هـ) وضمّ إليهما زيادات تجمعت لديه من مصادر مختلفة امتلأ بها الوطاب كما قال في مقدمته.
١١- فوائد شريفة وقواعد لطيفة: لنصر الدين الهوريني، في مقدمة القاموس المحيط ص٨.
١٢- المصدر نفسه ص٨.
١٣- طبع في بولاق سنة ١٢٨١هـ في ١٣٤ صفحة، بتصحيح نصر الهوريني، ثم طبع ثانية بهامش "الصحاح" في مصر سنة ١٢٩٢هـ. (معجم سركيس ص١٣٨٥)
١٤- شرح ديباجة القاموس ص١٦.
١٥- شرح ديباجة القاموس ص١٦.
١٦- شرح ديباجة القاموس ص١٦.
١٧- المزهر ٩٨/١، وشرح ديباجة القاموس، للهوريني ص١٧.
١٨- من ذلك على سبيل المثال كتاب (بهجة النفوس في المحاكمة بين الصحاح والقاموس) للقرافي المتوفى سنة (١٠٠٨هـ).
١٩- ويسمى في بعض المصادر: (التنبيه والإيضاح على ما وقع من الوهم في كتاب الصحاح).
٢٠- انظر: المعجم العربي: للدكتور حسين نصار ٥٦٦/٢.

□□□

تداخل المصطلحات العلمية

بين المحدثين واللغويين والفقهاء

إعداد: الدكتور محمد علي الزركان[1]

القرآن *الكريم كتاب دين ودنيا على حد سواء، وقد سارع المسلمون إلى تفهم آياته، وتفهم الأحاديث النبوية التي توضحه وتبينه تفهماً صحيحاً، فنشأ في صدر الإسلام علماء أجلة؛ ونشأت معهم نواة علوم وتشريعات هي من أسمى ما وضعه العقل البشري في هذه الموضوعات.*

ولقد زاد القرآن الكريم هذه اللغة ثراء بما طرحه من المعاني الجديدة وبما نقله من الألفاظ من معانيها الأصلية وجعلها معبرة عن المعاني الجديدة، وبذلك يكون القرآن قد أهّل اللغة العربية لاستيعاب التعبير عن الحضارة الجديدة ذات المفاهيم الجديدة.

لقد غرست الحضارة الإسلامية في أعماق الإنسان مفاهيم جديدة في العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق مما لم يألفه العرب في جاهليتهم، وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة انعكس أثرها على اللغة العربية. إذ هي وعاء للفكر ودليله.

ومن الطبيعي أن تتطلب هذه الحضارة الإسلامية مادة لغوية جديدة تغاير معاني الألفاظ المعهودة قبل الإسلام للتعبير عن المعاني الجديدة تستمد معانيها من لغة القرآن والأحاديث النبوية، وهكذا نشأت طائفة من المفردات الإسلامية سماها العلماء بعد ذلك "المصطلحات الإسلامية" فتابع علماء الحديث والفقهاء القرآن الكريم والسنة النبوية والرعيل الأول من الصحابة في إدخال معانٍ جديدة لألفاظ عربية قديمة... فولدوا كلمات جديدة من أصول عربية عن طريق تعديل الصيغة العربية لها على الأوزان الصرفية المعروفة للتعبير عن دلالات معينة.

واقتضت علوم الفقه والحديث والتفسير وغيرها وتسمى "العلوم النقلية" وضع مصطلحات عديدة

(1) - كلية الآداب - جامعة حلب

استنبطوها من صلب اللغة العربية بوسائل الاشتقاق والمجاز والتضمين، وتركوا لنا في كتبهم النفيسة كثيراً من ذخائر المصطلحات وأعلاقها، يجب علينا أن نستعين بها في تصنيف الكتب القانونية على اختلافها.

والألفاظ التي وضعوها أو بدلوا معانيها تعد بالمئات بل بالآلاف، وقد أصبح لها معان جديدة، وأصبح لتلك المعاني شروط وحدود مذكورة في كتبهم، مثالها ألفاظ: الصلاة والزكاة والحج والوضوء والتيمم والحضانة والنفقة والشفعة والحجر وأرض العشر وأرض الخراج والمفارسة والمساقاة وأشباه ذلك من المصطلحات الكثيرة الدالة على علو كعب هؤلاء العلماء بالعلوم الإسلامية المختلفة وبعلوم اللغة العربية على حد سواء....

والذي يهمنا قوله هنا هو أن نقل الألفاظ من معناها الأصلي إلى معنى علمي كان وما زال من أنجع الوسائل في تنمية اللغة وفي جعلها صالحة لاستيعاب العلوم القديمة والحديثة كافة.

والألفاظ التي نقلها الأجداد من معناها اللغوي إلى معناها الاصطلاحي لا تعد ولا تحصى، كما قلنا، وهي مبثوثة في كتب العلوم الإسلامية وعلوم اللغة، والعلوم التي نقلت من اليونانية والفارسية والهندية وغيرها... فكلمة "الصلاة" مثلاً: معناها اللغوي الدعاء، ومعناها الاصطلاحي: أقوال وأفعال تبدأ بالتكبير وتنتهي بالتسليم. وكلمة "زكاة" معناها اللغوي: النماء، ومعناها الاصطلاحي هو أداء مقدار معلوم من مال معلوم لصرفه في مصارف معلومة.

وقد وقع النحت في بعض المصطلحات الإسلامية على ألسنة الفقهاء، فمن ذلك:"البسملة" وهي قول: "بسم الله الرحمن الرحيم"، و"الحوقلة" وهي قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، و"الحيعلة" وهي قول: "حي على الصلاة" و"الحيعلتان" وهي قول: "حي على الصلاة وحي على الفلاح" في الأذان.

وعلى الرغم من أنهم لم يتوسعوا في النحت إلا أنهم استخدموه.

وما أكثر ما وقع النقل في العربية بعد مجيء الإسلام، فقد كان يكفي وجود أدنى مناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي حتى يتم نقل اللفظ إليه. وما أكثر ما صنع القرآن والسنة وأصحاب الرسول (ص) والفقهاء الذين أتوا من بعدهم هذا الصنع فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

(سجد) فأصلها من قولهم: سجد البعير خفض رأسه عند ركوبه، وسجد الرجل وضع جبهته بالأرض.. ثم انتقلت بعد ذلك إلى المعنى الشرعي الإسلامي وهي عبارة عن هيئة مخصوصة في الصلاة.

(الاستمتاع) فإنه أصبح يدل عند الفقهاء على الوطء.

(الاستفتاح) صار يدل عند الفقهاء على الدعاء المخصوص الذي يُقرأ بعد التحريمة في الصلاة...

(الاستيلاء) فقد أطلق على اتخاذ الأمة للوطء طلباً للولد.

(المبتوتة) يطلق على المرأة المطلقة طلاقاً بائناً.

(المُبعَّض) يطلق على العبد الذي أعتق بعضه وبقي بعضه الآخر رقيقاً.

(المحاقلة) تطلق على بيع الزرع في سنبله بحنطة.

(المرابطة) تطلق على الإقامة في الثغور في مقابلة العدو وحراسته له من الغدر.

ويستحسن ألاّ يصطلح بلفظ واحد لتأدية معان علمية مختلفة ولكن يلاحظ أن الفقهاء المسلمين لم يتقيدوا بهذا الشرط كثيراً، إذ نراهم يطلقون لفظاً واحداً.. على معانٍ اصطلاحية متعددة... فمثلاً لفظ (العدة) له معان اصطلاحية ومدلولات متعددة، منها عدة الصوم، وعدة المرأة المطلقة أو المتوفى زوجها، وعدة الحيض والنفاس... الخ.

ولفظ (العدل) فإنه يرد في الرهن وهو الشخص المؤتمن على المال المرهون، كما يرد في الشهادة، فيقال عدلت الشاهد أي نسبته إلى العدالة ووصفته بها.

ولفظ (القضاء) الذي استعمله الفقهاء، بمعنى الأداء كما في قوله تعالى: "فإذا قضيتم الصلاة...." أي أديتموها، كما استعملوا اللفظ للعبادة. التي تفعل خارج وقتها المحدد شرعاً، فإنه يقابل (الأداء) للعبادة في وقتها وهو مخالف للوضع اللغوي لكنه اصطلاح للتمييز بين الوقتين.

ولفظ (النسك) فهو يدل على مناسك الحج، كما يدل على الكفارة في الحج كقولهم: ومن فعل كذا فعليه نسك أي دم يريقه.

ولفظ (الفرض) فهو يدل على العمل الواجب من صلاة وصيام وتقابله السنة.. وفرض القاضي للنفقة، ومثله الفرض في علم الفرائض والمواريث... ولفظ (التمتع) فقد ورد في الحج وهو الإحرام بالعمرة في شهر الحج ثم يحرم بالحج بعد قضاء عمرته، ثم ورد هذا اللفظ في تمتع الزوج بما بين السرة والركبة من زوجته.. ولفظ (المتعة) الذي يعني الزواج الموقت، كما تعني المال الذي يدفعه الزوج لزوجته إذا طلقها قبل الدخول.

ولفظ (الحدث) وهو عند الفقهاء الحالة الناقضة للطهارة شرعاً، وهو يقسم إلى قسمين: حدث أكبر وحدث أصغر، كما استعمل الفقهاء لفظ الحدث دلالة على الصبي الصغير ويجمع على أحداث.

ولوحظ أن الفقهاء كانوا يصطلحون للمعنى العلمي الواحد بألفاظ مختلفة من مذهب إلى آخر، فلا يتقيدون عادة بتوحيد المصطلح الفقهي كثيراً بل هم أكثر تحللاً منه عندما يخرج عن دائرة المذهب الفقهي الواحد إلى دائرة المذاهب المتعددة فشركة المضاربة مثلاً يطلق عليها بعض المذاهب لفظ (مضاربة) بينما يطلق عليها بعضها الآخر لفظ (قراض)، ولفظ (القنوت) الذي اصطلحوا عليه:

الدعاء في الصلاة قد اختلفوا في مكانه وزمانه، فالأحناف جعلوه في صلاة الوتر بعد العشاء والشافعية جعلوه في اعتدال الركعة الثانية من صلاة الفجر.

إن علم مصطلح الحديث علم إسلامي بحت أوجده علماء الحديث المسلمون منذ عهدهم الأول بما اتبعه الصحابة من قوانين الرواية ثم محاربة الكذب ثم تصنيف الأحاديث والرواة، ثم نما هذا العلم تبعاً لتطور الحاجة حتى تكامل تماماً، وأنه قام في كل مراحله على أسس دقيقة.

إن قواعد هذا العلم التي تبدو مفرقة في كتب المصطلح تكوّن في جملتها منهجاً متكاملاً يدرس الحديث وينقده من جميع الجهات: جهات الرواية والأسانيد والمتون... وإن أصول هذا العلم ومناهجه صارت نبراساً يهتدي به العلماء الآخرون من فقهاء وأصوليين ومفسرين ولغويين.. الخ. ويقتبسون منه ويسيرون على نهجه ويتبعون قوانينه.

فهذا الإمام جلال الدين السيوطي يقول في مقدمة كتابه الشهير (المزهر في علوم اللغة) بأنه اعتمد في تبويب كتابه علم مصطلح الحديث:

"...هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه وذلك في علوم اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع. وقد كان كثير ممن تقدم يلم بأشياء من ذلك ويعتني في بيانها بتمهيد المسالك...". وذكر منها خمسين نوعاً أهمها:

النوع الأول : معرفة الصحيح الثابت من اللغة، ويقابله في علم المصطلح الحديث الصحيح وهو ما اتصل إسناده بنقل العدل الضابط ضبطاً تاماً عن مثله إلى منتهى السند من غير شذوذ ولا علة قادحة.

النوع الثاني : معرفة ماروي من اللغة ولم يصح ولم يثبت. ويقابله في علم المصطلح الحديث الضعيف: وهو ما فقد شرطاً أو أكثر من شروط القبول كفقد اتصال وعدالة وضبط ومتابعة في المستور وكوجود شذوذ...

النوع الثالث : معرفة المتواتر والآحاد، ويقابله في علم المصطلح الحديث المتواتر وهو الذي رواه من الابتداء إلى الانتهاء جمع عن جمع تمنع العادة اتفاقهم على الكذب وهو مما يدرك بالحس. وحديث الآحاد هو ماروي من طريق واحد فهو الحديث الغريب أو المفرد.

النوع الرابع : معرفة المرسل والمنقطع في اللغة، ويقابله المرسل والمنقطع في مصطلح الحديث. فالمرسل هو ما رفعه التابعي إلى النبي قولاً أو فعلاً أو تقريراً... والحديث المنقطع ما سقط من رواته واحد قبل الصحابي، وقيل هو مالم يتصل إسناده بأي حال.

النوع الخامس : معرفة الإفراد في اللغة وهو ما انفرد به واحد من أهل اللغة ولم ينقله أحد غيره،

وهذا يقابل حديث الأفراد عند أهل الحديث.

النوع السادس : معرفة من تقبل روايته في اللغة ومن ترّد. وهو يقابل في علم المصطلح صفات الرجال من رواة الحديث الذين يجب أن تتوافر فيهم شروط معينة من الجرح والتعديل مثل العدالة والضبط،وتقابل في عرفنا اليوم الأمانة العلمية، وعكسها مراتب الجرح مثل: دجال، وضاع، كذاب،...الخ.

النوع السابع : معرفة طرق الأخذ والتحمل وهي كثيرة، منها: السماع والقراءة على الشيخ، والإجازة والمكاتبة....الخ. وهي الشروط نفسها التي وردت في علم مصطلح الحديث.

النوع الثامن : معرفة المصنوع في اللغة، ويقابله في علم المصطلح معرفة الحديث الموضوع أو المصنوع وهو الذي اختلقه راوية ونسبه إلى الرسول(ص)، وقد بين علماء المصطلح علامات وضع الحديث.

وهكذا نجد أن أسباب التطور الدلالي للكلمة الواحدة في اللغة العربية:

ضيق الدلالات المحملة لألفاظ اللغة عن استيعاب دلالات جديدة حدثت، وعندئذٍ يُلجأ إلى استعارة اللفظ من دلالته الأصلية لمصلحة دلالة جديدة مع وجود علاقة بين الدلالتين.

ومن هنا كانت القاعدة في علم اللغة بوجه عام أن الكلمة الواحدة تعطي من المعاني والدلالات بقدر مايتاح لها من الاستعمالات.

وإذا ما تم نقل اللفظ (المصطلح) من المعنى الأصلي إلى المعنى الاصطلاحي فإن ذلك لا يعني فقدان دلالته على المعنى الأصلي، بل يصبح اللفظ ذا دلالتين الأولى أصلية لغوية، والثانية اصطلاحية.

ونخلص من هذا إلى أن المعاني الاصطلاحية هي معانٍ مجازية للفظ وإن إطلاق اللفظ عليها هو إطلاق مجازي وليس من قبيل المشترك.

ويتضح من هذه اللمحة الخاطفة أن المصطلحات القديمة الإسلامية التي أدمجت في لساننا العربي في تلك الأيام هي آلاف مؤلفة من الألفاظ العربية التي اشتركت بين مختلف العلوم والفنون التي كان علم مصطلح الحديث رائدها ودليلها، فقد أفاد علماء اللغة والأدب والتاريخ والفقه والتفسير...إلخ.

وإذا ألقينا نظرة على مجمل المصطلحات العلمية العربية الإسلامية القديمة وجدنا أن النقلة اتبعوا في وضعها وسائل ناجحة، أهمها:

أ- تحوير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية وتضمينها المعنى العلمي الجديد.

ب - اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية أو معربة للدلالة على المعنى الجديد.

ج - ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها.

د - تعريب كلمات أعجمية وعدها صحيحة.

وهذه القواعد والأسس نجدها متكاملة متينة يجب الاسترشاد بها في وضع المصطلحات العلمية الحديثة.

□

□ "أهم المصادر والمراجع "

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل/ تفسير البيضاوي/ مصور عن المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ.

٢- المزهر في علوم اللغة/ جلال الدين السيوطي جـ١/ دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

٣- المعرب من الكلام الأعجمي/ أبو منصور الجواليقي/ وزارة الثقافة/ القاهرة١٩٦١.

٤- مثالب الوزيرين/ أبو حيان التوحيدي/ ط دمشق ١٩٦١.

٥- مقدمة تاريخ ابن خلدون/ المكتبة التجارية، القاهرة.

٦- تأويل مشكل القرآن/ ابن قتيبة/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة١٩٥١.

٧- إعجاز القرآن /أبو بكر الباقلاني/ دار المعارف/ القاهرة ١٩٥١.

٨- النهاية في غريب الحديث والأثر/ ابن الأثير/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة.

٩- الإتقان في علوم القرآن / جلال الدين السيوطي/ دار إحياء الكتب ١٩٥١ / القاهرة.

١٠- مراتب النحويين/ أبو الطيب اللغوي/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة.

١١- كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية/ أبو حاتم الرازي ١٩٥٧ / القاهرة.

١٢- الصاحبي في فقه اللغة/ ابن فارس/ تح الشويمي/ بيروت.

١٣- تفسير في ظلال القرآن، /سيد قطب/ إحياء الكتب العربية / القاهرة.

١٤- دلالة الألفاظ /د.إبراهيم أنيس/ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ القاهرة.

١٥- دراسات في فقه اللغة/ د.صبحي الصالح/ دار العلم للملايين ١٩٧٠ بيروت.

١٦- المصطلحات العلمية في اللغة العربية/ مصطفى الشهابي/ المجمع العلمي ١٩٦٥ دمشق.

١٧- المختصر في علم رجال الأثر/ عبد الوهاب عبد اللطيف/ دار التأليف ١٩٤٩/ القاهرة.

١٨- مفتاح السنة أو تاريخ فنون الحديث/ محمد عبد العزيز الخولي/ المكتبة التجارية ١٩٢٨/ القاهرة.

١٩- السنة المطهرة و التحديات/ د.نور الدين عتر/ ط٦ دار الفلاح ١٩٨٦ حلب.

٢٠- الوجيز في فقه اللغة/ محمد الأنطاكي/ مكتبة الشهباء ١٩٦٩ حلب.

٢١- موسوعة عمر بن الخطاب/ محمد رواس قلعجي/ مكتبة الفلاح/ الكويت.

□□□

المعجم المجهول في الفصاح المظلومات

هشام النحاس

ما المعجم العربي؟ ومن يهتم به؟!.

من شاهد التلفاز واستمع إلى موضوع: لغة الحاسوب في بعض برامج الدكتور آغا القلعة والجمعية السورية العلمية للمعلوماتية، فإنه يتعجب من صرخات العاتبين على وصف العربية باللغة العلمية المرنة المناسبة لعصر المعلوماتية والمطواعة للحواسيب... على الرغم من شعوره بخشية هؤلاء العاتبين وتخوفهم من إثارة أنصار (القاموس المحيط) أو أشباهه من (تاج العروس) وغيره، من مثل هذه الأقاويل:

وما أشك أن إخواننا من الكتّاب والمثقفين والعلماء، يعرفون أن عدد المعاجم- أو المعجمات كما يجمعها بعض علماء النقد اللغوي- من مؤلّفات التراث العربي القديم فقط، قد بلغ ألفاً وخمسمائة معجم، كما ورد في كتاب: ((معجم المعاجم)). الصادر عن مكتبة لبنان سنة ١٩٨٩م من تأليف: أحمد الشرقاوي إقبال.

فإذا أضفنا مؤلفات المعجميين والعلماء واللغويين في عصر النهضة وفي عصرنا فلنذكر قول مؤلف منهم[1]: (المعجم يُبدأ به ولكن لا يُنتهى منه).

وعشاق (الفيروزا بادي) المكتفون به وحده والذين كانوا السبب في إطلاق اصطلاح (القاموس) على كل معجم إطلاقاً مما جعل المجامع اللغوية ذاتها تقبله وتتخذ القرار بقبوله! على الرغم من أنها لفظة فارسية الأصل، ومعناها الأصلي (البحر). وقد اتخذه الفيروزابادي اسماً علماً على معجمه ليميزه من معجم الصاحب بن عباد قبله وكان الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥هـ و ٩٩٥م قد اتخذ لمُعْجَمِه الذي اتُّهم بالضعف ونقص الثقة به! اسم (المحيط). فجاء بعده ابن سِيدَه (ت. سنة ٤٥٨هـ و ١٠٦٦م) يسمي معجمه: (المحكم والمحيط الأعظم). هذان وغيرهما ممن سبقوا مؤلف

[1] هو: د. جورج متري عبد المسيح مؤلف معجم (لغة العرب) الذي مازالت أجزاؤه تصدر عن (مكتبة لبنان) في بيروت، وعنها صدر له بالاشتراك مع هاني جورج تابري: (الخليل: معجم مصطلحات النحو العربي) ١٤١٠هـ و ١٩٩٠م.

(القاموس المحيط) إلى تسمية معجمهم باسم البحر المحيط.

يُذكر أن وفاة مجد الدين الفيروزا بادي سنة ٨١٧هـ و ١٤١٥م. وقد فاقت شهرة (القاموس) شهرة أي معجم قبله ولقي من المؤلفين وعلماء النقد اللغوي اهتماماً كبيراً، ومنهم محمد بن مصطفى داود زادة من علماء القرن الحادي عشر الهجري في مخطوطه: (الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط) وقد عرّفنا بهذا المخطوط د. إبراهيم السامرائي في مجلة المجمع العلمي العراقي وفي المجلد الثاني عشر الصادر في سنة ١٩٦٥م، أما أشهر المطبوعات في تتبع هنات القاموس المحيط فهو (الجاسوس على القاموس) لأحمد فارس الشدياق سنة ١٢٩٩هـ و ١٨٨١م في مطبعة الجوائب في استانبول ويقع في زهاء ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير[١].

وفي مطلع عصرنا كتب أحمد تيمور في مجلة المجمع اللغوي ما بين سنة ١٣٣٤هـ و ١٣٤٣هـ متتبعاً العثرات والأوهام التي يراها في كل من (القاموس المحيط) و (لسان العرب). وتجد ترجمة أحمد تيمور في أعلام الزركلي ٩٥/١.

ترجم (القاموس المحيط) في إيطالية إلى اللغة اللاتينية في سنة ١٦٣٢. شرح (القاموس...) وعقب عليه محمد مرتضى الزبيدي في أوسع معجم عربي هو (تاج العروس من جواهر القاموس) وقد طبع بعد قرن واحد من تأليفه أي سنة ١٣٠٧هـ و ١٨٨٩م واستغرقت طباعته عشرين عاماً ويطبع هذا (التاج...) الآن في وزارة الثقافة الكويتية طبعة علمية فنية محققة ومدقق فيها وموضحة.

وفي سنة ١٨٦٩ وضع "بطرس البستاني" معجمه المؤسس على (القاموس...) وسماه (محيط المحيط). ثم اختصره للطلاب في (قطر المحيط).

وانتقد البستانيَّ في (محيط المحيط) الأبُ أنستاس ماري الكرملي (من سنة ١٨٨٣ إلى ١٩٣٨) ثم جمع انتقاداته هذه في (المعجم المساعد).

ولعل كثرة المخطِّئين والمنتقدين والمشتغلين بهذا (القاموس المحيط) قد أسهمت في زيادة شهرته.

وكذلك معجم لويس معلوف (المُنجِد) الذي كانت طبعته الأولى سنة ١٩٠٨، لقي من المخطِّئين والمنتقدين ما أشهره وجعل طبعاته تتعدد أكثر من أي معجم عصري آخر؛ حتى إنني وجدت من يسمي أيّ معجم (منجداً)؛ كما سمَّوا قبله أي معجم قاموساً.

وقد لا يُعرف أن المعلوف مسبوق إلى اسم (المنجد)؛ فإن لعلي بن الحسن الهنائي المشهور بأبي الحسن كُراع النمل ت. سنة ٣٠٩هـ و ٩٢١م. عدة مؤلفات لغوية يحمل أحدها اسم (المنجد).

ولذلك أتمنى على سادتنا العلماء الأجلاء الذين يفرون من (معجم فصاح العامية)، بالسكوت والتجاهل والتباعد عنه والنجاة إلى موضوع تفانيهم في خدماتهم الجلّى من أجل اللغة والأمة، أن

[١] أصدر معهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية بالقاهرة كتاباً بعنوان: (أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية) تأليف د. محمد أحمد خلف الله.

يتفضلوا علي وعلى كل من بحث في فصاح العامية بالتشهير وافتضاح العيوب العلمية والسقطات الموضوعية لهذه البحوث وأمثالها؛ ورحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة   لقد سرني أني خطرت ببالك

مصادري ومراجعي في توثيق (فصاح العامية)

اعتمدت في بحثي كما اعتمد أغلب الباحثين قبلي في فصاح العامية أو تفصيحها على أوثق المصادر والمراجع ومنها:

(معجم مقاييس اللغة) لأحمد بن فارس (ت. سنة ٣٩٥هـ و ١٠٠٥م). و (لسان العرب) لمحمد ابن مكرم بن منظور الأنصاري (ت. سنة ٧١١هـ و ١٣١١م).ومحمد مرتضى الزبيدي (ت/ ١٢٠٥هـ و ١٧٩٠م) وهو شارح القاموس والمستدرك عليه بالتعقيب في (تاج العروس...)، وعلى (أساس البلاغة) للزمخشري ت. سنة ٥٣٨هـ و ١١٤٤م، و (المصباح المنير) للفيومي ت. سنة ٧٧٠هـ و ١٣٦٨م.

ومن المحدثين كنت أقبل على معجم مجمع القاهرة (المعجم الوسيط) ط١ سنة ١٩٦٠، ثم ط٢ سنة ١٩٧٢م. وأوسع منه معجم (متن اللغة) للشيخ أحمد رضا العاملي وقد طبع في خمسة مجلدات في بيروت ١٩٥٨- ١٩٦٥ بعد وفاة مؤلفه.

ومن قبله أمثال (محيط المحيط) للبستاني ت. سنة ١٨٨٣ و (الكليات) للكفوي (ت. سنة ١٠٩٤هـ و ١٦٨٣م) وقد طبعته في خمسة مجلدات وزارة الثقافة بدمشق من سنة ١٩٨١ إلى ١٩٨٣م، وهي طبعة ثامنة لهذا المعجم. وموسوعة (المعجم) التي أصدر منها الشيخ عبد الله العلايلي ت. ١٩٩٧ أربعة أقسام في بيروت ١٩٥٤ وتوقف قبل إنهاء حرف الألف. ثم انصرف إلى تأليف معجم (المرجع).

وفي المعاني كنت أرجع إلى: كنز الحفّاظ في تهذيب الألفاظ لابن السكيت (ت. سنة ٢٤٣ أو ٢٤٦هـ و ٨٥٨م) وقد هذبه "الخطيب التبريزي" (ت. سنة ٥٠٢هـ و ١١٠٩م) وضبط طبعةَ الأب لويس شيخو (١٨٩٦-١٨٩٨م).

ولم آلُ جهداً في مراجعة (العين) للخليل حين كانت تتاح لي (ت. سنة ١٧٠هـ و ٧٨٦م) و(الجمهرة) لابن دريد (ت. سنة ٣٢١هـ و ٩٣٣م)، و (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري (ت. سنة ٣٩٣هـ و ١٠٠٣م)، و(التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة... للجوهري) للصغاني أو الصاغاني (ت. سنة ٦٥٠هـ و ١٢٥٢م)، و قد طبعه مجمع القاهرة سنة ١٩٧٠-١٩٧٩ في ستة مجلدات. و (النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير الجزري (ت. سنة ٦٠٦هـ و ١٢١٠م)، وغيرها كثير مما أشرت إليه في موضعه من (معجم فصاح العامية).

علم القاموس والمعجم

لست أقصد إلى الإدهاش أو الادعاء أو الدعوة إلى وضع علم يضاف إلى العلوم الوضعية... أو...

وإنما أنا أشعر وأفكر مع من يشعرون بأن للمعجم العربي قضيته التي لا بد من التفكير فيها والإجابة عن السؤال: لماذا؟ مادام علماء العرب من أوائل واضعي المعاجم وكتب اللغة، وتعدّ مؤلفاتهم الأقدم والأوسع والأكثر والأكبر والأعمق والأدق والأقوى من بين المؤلفات اللسانية والمكتبات اللغوية للإنسان في شتى عصوره؛ ومع هذا فجمهور المثقفين العرب هم الأكثر إهمالاً من بين من أهملوا استعمال المؤلفات اللغوية؛ وقعدوا يتشكون من لغتهم المعقدة والصعبة التحصيل، ومن بحرها الذي لا يسلم فيه أمهر الملاّحين مهما ضبطوا ودققوا وتدربوا...

فهل شكا مثل هذه الشكوى أولئك المستشرقون الأجانب الذين اندفعوا إلى الإسهام في حركة تطوير المعجم العربي فكان منهم:

- المستشرق الإنكليزي إدوارد لَين E. W. Laine المتوفى سنة ١٨٧٦. ألف معجماً عربياً ضخماً في ثمانية مجلدات (ترجمته في أعلام الزركلي جـ١/ ٢٧٣) واسم معجمه (مدّ القاموس).

- والهولندي دوزي R. P. A. Dosy ت ١٨٨٣ ألف معجماً يستدرك فيه على ما أهملته المعاجم العربية. طبع في ليدن بهولندة وترجم إلى العربية وعنوانه: (تكملة المعاجم العربية) أو (مستدرك المعجمات).

- والألماني فيشر A. Fischer ت. ١٩٤٩، اهتم بالتطور التاريخي للألفاظ العربية وأصول بعضها في اللغات السامية أو العربية القديمة، في مخطوط معجم أودعه مجمع القاهرة الذي ما يزال يفكر في المجهودات التي يجب أن تبذل في تحقيقه قبل إعداده للطبع.

بعضنا يتناسون البديهيات وبعض الكليات ونحن في قمة حماستنا للتفاصيل الكثيرة المعقدة من قضايا الفكر؛ فنغفل عن بعض الأسباب الأساسية لتخلف أجيال من أجيالنا؛ فكرياً، وارتباطه بتخلفهم لغوياً...

ولذا نجد من يسخر منا حين نطالب هؤلاء الذين لا يستعملون (المعجم) في تعاملهم اللغوي... كأن صحة الفكر ليست من صحة اللغة. وكأن دقة اللغة لم تبق عادة اجتماعية راقية، وكأننا لا ندرك أن اللغة هي الأداة الفكرية الوحيدة في ترقية النفس البشرية وصياغة الفكر الإنساني الرائع وأن دقة استخدام اللغة، وإجادتها وتصويبها وتقويم اللسان بها؛ عادة من العادات الضرورية التي يُربّى عليها الفرد، من غير المتخصصين؛ وبتأثير مجتمعه إذا كان هذا المجتمع حريصاً على التربية الحضارية الراقية.

لا صحة فكر للأمة إلا في صحة اللغة:

فاللغة الصحيحة شرط التفكير الصحيح. وتحصين الحضارة والثقافة والبنيان العقلي والشعوري يبدأ بتحصين اللغة، ودعم صحتها، وسد الثغرات، وعلاج مواطن الضعف ومسارب العوز والحاجة الماسة إلى التصحيح؛ وإلى هذا قصد القائد بطل التصحيح حينما خاطب جمهور المعلمين في رسالته لتهنئتهم في عيدهم في ٢٤ رجب سنة ١٤٠٨ هـ و ١٩٨٨/٣/١٢م، وأجتزئ ها هنا بفقرة منها:

((أيها الإخوة المعلمون: لغتنا العربية هي عنوان هويتنا، وهي الرابطة بين الناطقين بالضاد، وهي أهم صلات الماضي بالحاضر والمستقبل. بها نعبر عن ذاتنا، وننشر في الوطن والعالم نتاج الفكر العربي، وننقل إلى أبناء الأمة العربية النتاج الفكري للشعوب الأخرى.

لستم جميعاً مختصين بتدريس اللغة العربية كمادة من مواد المنهاج الدراسي؛ ولكنكم جميعاً مسؤولون عن الحفاظ عليها وعلى قواعدها، فلا عجمة ولا ركاكة بل تركيب سليم وفصاحة مما اشتهرت به أمة العرب)).

الفصيح المهان والفصاح المجهولة المظلومة:

ستة عقود ونيف مضت علي وأنا أتحمس للتخلص من الازدواجية اللغوية بالفصيحة لغة العلم؛ وأناضل ما وسعني النضال في التعليم والكتابة والتصحيح والتدقيق اللغوي للكتب المدرسية والمطبوعات الأخرى من أجل وضع الفصاح في موضعها العملي الصحيح من مسار الحياة؛ حتى لا تكون الفصيحة لغة الكتابة فقط... وحتى أزيح وأبعد عن الألسنة والأفهام عاميات الجهل ولهجات التفرقة والتباعد والإغراق في إهمال الصحة والضبط والتدقيق.

وضحيت وبذلت من أجل العربية الموحدة وسُعي.. وكان المعجم العربي التليد صاحبي وأليفي وموطن إدماني الذي قادني إلى اكتشاف فصاح العوام؛ وهي الفصاح التي أشعرتني أنها –على كثرة ما كتب عنها قديماً وحديثاً– بقيت منبوذة مهجورة من الفصحاء والكتّاب والمربين وكتّاب الحواريات القصصية والمسرحية؛ مع أن فصاح العامية يمكن أن تكون أهم ما في فصيح لغتنا لأنها أثبتت وتثبت أنها الأقوى على الحياة والأقدر على البقاء على الألسنة وفي الأفهام؛ فليست تحتاج إلى إحياء، وإنما تحتاج فقط إلى الدفاع عنها من أنصار الجهالة العصبية، ومن المتظاهرين باحتقار كل ما هو شعبي وحيوي... ففصاح العوام هي أساس اللغة الوسطى المنشودة، وهي جديرة باكتشافها وترويجها وإنقاذها من هذه الازدواجية اللغوية التي أصابتنا في ألسنتنا وعقولنا فجعلت بعض أطفالنا يعجزون عن فهم لغة العلم لأن سن ما قبل السادسة هي السن المناسبة لتعلّم اللغة واكتسابها بالفطرة والموهبة الغريزية التي سوف تحل محلها القدرة على بذل الجهد للتحصيل الدراسي بعد سن السادسة حينما تضمر وتنتهي الغريزة اللغوية الفطرية كما ثبت للعلماء من المربين اللغويين[٣]. ولذا دعوت وعملت طويلاً في تفصيح ألسنة المربيات في دور الحضانة ورياض الأطفال. وعملت أيضاً على إنصاف

[٣] راجع مقدمة (معجم فصاح العامية) طبعة (مكتبة لبنان) بيروت ١٩٩٧ في ص ٥٦و ٥٣و ٥٤و ٥٥.

هذه الفصاح المظلومة؛ ضحية التنافس الحماسي أو التظاهر بالانحياز إلى الفصحى في معاركها الوهمية مع أقزام العاميات.

يقول لي متقرباً وممالئاً: (نعم... العامية فصحى غير قياسية). ذلك أني قدمت نفسي له فقلت: مؤلف (معجم فصاح العامية) الذي لم يسمع به أحد؛ فعلي أن أسمع غيري بنفسي. فيهشّ ويبشّ ويضحك مرحّباً للوهلة الأولى، ولكنه سرعان ما ينتبه إلى أنه قد تسرّع ولم يفكر بالعواقب الوخيمة التي ستعود عليه بالضرر البالغ إذا شوهد واقفاً مع أحد أنصار العامية، كما يتوهم... مع أني أعرف في نفسي محاربة كل فكر عاميّ أو لسان عامي خاطئ جاهل منذ أن فطرت، ومع أني كتبت في مقدمات (معجم فصاح العامية) أني لا أرى في اللهجات العامية إلا انحرافات عن الفصيحة، ومفرزات الخطإ والإهمال والتجهيل والتخلف؛ فهي لهجات تعيش عيالاً على الفصيحة وتستمد منها كل مقومات حياتها، ولا يمكنها أن تصارعها؛ فالعاميات ستموت بجهلها إذا قتلت الفصيحة العلمية المتحضرة التي لن يوجد لها قتلة؛ واسألوا المجربين ممن كانوا أنصاراً للعاميات في فترات قصيرة جداً من أنشطتهم، وسرعان ما اكتشفوا أنهم ضيعوا أعمارهم وهم يطحنون الهواء ويدقون الماء وينقضون في الليل غزلهم في النهار كما قال عزّ من قائل: "كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً" -السورة ١٦ النحل الآية: ٩٢.

اختلاف اللهجات قديم جداً:

لابن الأنباري (ت. ٣٢٧هـ و ٩٤٠م) في (كتاب- الأضداد)[4]: ((٥٣- و (وثب) حرف من الأضداد، يقال: وثب الرَّجُلُ إذا نهض وطفر من موضع إلى موضع، وحِميَر تقول: وثب الرَّجُل، إذا قعد. وقال الأصمعي وغيره: دخل رجل على ملك من ملوك حِميَر، وكان الملك جالساً في موضع مُشْرِف، فارتَقَى إليه، فقال له الملك: ثِبْ، يريد: اجلِس، فطَفر، فسَقط فاندَقَّت عُنُقه فقال الملك: "من دَخَلَ ظَفارِ حَمَّرَ" أي تكلّم بلسان حِميَر" وكذلك تناقلت كتب تراثية كثيرة هذه الحادثة كمثل ياقوت الحموي في (معجم البلدان) مادة ط ف ر، وابن جنّي (ت. ٣٩٢هـ- ١٠٠٢م) في الخصائص[5] إذ استشهد بها على صحة فكرته التي سبقتها وهي: ((.. إنما أمر بحمل الأمور على ما تبدو وإن كان في المُغَيَّب غيره، فإن لم تأخذ بها دخل عليك الشك في لغة من تستفصحه ولا تنكر شيئاً من لغته مخافة أن يكون فيها بعضُ ما يخفى عليكِ فيعترض الشك على يقينك، وتسقط بكل اللغات ثقتك، ويكفي من هذا ما تعلمه من بُعْدِ لُغَة حِميَرَ من لغة ابْنَي نزار..))... وبعد قصة (من دخل ظفار حمَّرَ) يعقب ابن جني عليها: "فإذا كان ذلك كذلك جاز جوازاً قريباً كثيراً أن يدخل من هذه اللغة في لغتنا وإن لم يكن لها فصاحتنا، غير أنها لُغَة عربية قديمة".

---

[4] من سلسلة كتب (التراث العربي)، التي تصدرها دائرة المطبوعات في دولة الكويت، تأليف محمد بن القاسم الأنباري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط. سنة ١٩٦٠م ص ٩١.

[5] الخصائص تأليف أبي الفتح عثمان بن جني. تحقيق محمد علي النجار. ط٢. دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٧٤هـ و ١٩٥٥م. ج٢ ص٢٨.

لقد كان الاختلاف في اللهجات واللغيّات منذ عصور سحيقة قبل الإسلام... ولكن لهجة قريش كانت المحور الذي استقطب اللهجات واللغيات فوجهها نحو طريق التوحد الذي أنجزه نزول القرآن الكريم بلغة قريش فلم يبق من اللغيات إلا بقايا تمثلت في القراءات والأحرف السبع..كما تمثلت في اتجاه الأقطار المختلفة بعد عصر الفتوحات الإسلامية إلى تطورات وتأثيرات لغوية تباعد ما بين لهجاتها... يساعد على ذلك فنون لغوية محببة من المتكلمين: كالقلب والإبدال، وأنواع من التلاعب اللفظي والتحريف والتصحيف والإمالة والإدغام والإشباع والترخيم وتخفيف الهمزة اليابسة، أي: المهموزة، بتليينها وحذف همزتها، كما في لهجة قريش أو إحلالها محل القاف في المدن أو غيرها..، أو نحت كلمات في كلمة، أو تطور دلالة المعنى بالنقل من الحقيقة الحسّيّة الماديّة إلى الصور البيانية والمجازات العقلية والتجريدية بأساليب وطرائق متخالفة من التجريد الذهني. أو حذف الموصوف وإبقاء الصفة حتى تنتقل بالاستعمال إلى أن تغدو أسماء لا مجرد صفات... وتغدو المجازات حقائق لغوية بعد طول الاستعمال، وقد تدخل في المعجم اللغوي أحيانا....

ولكن أخطاء الجهل والانحرافات اللغوية تباعد ما بين اللهجات العامية... ولكن تظل مهما تباعدت اللهجات تستقطبها لغة الخواص وتدقيقات العلماء فتتبع لدى المثقفين طريقاً من التطور نحو الاقتراب من اللغة الفصيحة حتى يُظهروا ثقافاتهم.. ولهذا نراهم يدعون إلى ما يسمونه: اللغة المبسّطة أو الوسطى ما بين قديم الفصاح وبين اللهجات الشعبية المحكيّة... وفي فصاح العامية ما هو أحق بالاهتمام، والمأنوس من العبارات الفصاح أجدر بالتقدير من غرائبها... والتسهيل والإيضاح واجب اللغويين والمربيّن والإعلاميين والأدباء؛ لتكون الثقافة في خدمة المجتمع، ومن أجل أن نسير على طريق الشفاء من شكوى كتّاب الفنون القصصية والمسرحية من افتقادهم لغة الحوار المناسبة والمفهومة، بسبب هذه الازدواجية اللغوية التي تقسم لغة الشخصية الواحدة بين حديث المشافهة وبين أسلوب الكتابة، فنحن نقول ما لا نكتب.

وفي كثير من دورات انعقاد مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، واتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، اهتم المجمعيون الأعضاء والمدعوون من العلماء بموضوع فصيح العوامّ، ونشروا البحوث فقرروا فصاحة العديد من المفرادت العامية ونشروها في أعداد مجلة المجمع؛ كما في الدورة السادسة والأربعين ١٩٨٠ -مثلاً- حيث قدم بحث عنوانه: (ما بين الفصحى والعامية من الوحدة في الألفاظ). ولطالما انعقدت (ندوات) و (احتفالات خطابية) من أجل هذا الغرض.

ولقد كنتُ أُلفتُ بعض الحواريات الفكاهية الفصيحة الموجهة نحو تصحيح لغة المثقفين وتذكيرهم بفصيح العوّام وتمنيت أن أجد من الكتّاب للشاشة المرئية ومن المخرجين والفنانين من ينشط لمثل هذه الأعمال... وبرنامج "في رحاب العربية"، في الإذاعة، يهتم بفصاح العامية كما ألاحظ من تتبع توجّهها اللغوي في برنامجها:" في رحاب العربية"وكذلك تجد في مجلة (نهج الإسلام) الصادرة عن وزارة الأوقاف بدمشق من هذه البحوث "د. حسان الطيان" مثلاً وغيره كثير... وللأستاذ نصر الدين البحرة اهتمامات بفصيح العامة يبدو في محاضراته وفي بحوثه اللغوية ومنها ما في العدد ٧٣ من هذه المجلة في تشرين الأول ١٩٩٨.

من مشكلات المعجم العربي:

المعجم العربي يتطلّب من مستعمله والكاشف فيه... أن يعرف الجذر أو الأصل الثلاثي لمادة الكلمة... ثم أن يعرف الصيغة الصرفية للعبارة.. وقد لا يجد، بعد ذلك كله الصيغة ذاتها، فعليه أن يستخلص من معلوماته الصرفية ما يضيفه إلى معاني الصيغ الأخرى في مادة الجذر ذاته، فهناك إهمال متعمدٌ لكثير من مواد اللغة القديمة التقليدية التي ما تزال تحيا على ألسنتنا وأقلامنا إلى اليوم! أعني: المشتقّات القياسية التي يحذف كثير منها اختصاراً؛ كمصادر الأفعال فوق الثلاثية، وكاسم التفضيل، وبعض أسماء الزمان والمكان والآلة، والمنسوبات والمصغرات، وجموع السلامة، وصيغ المبني للمجهول وصيغ فعل الأمر وصيغتي التعجب... الخ. وذلك تصغيراً لحجوم معاجمنا التي يُشتكى تضخمها، بعد أن سجّلت التطورات اللغوية الممتدّة في الزمن عشرين قرناً ونيّفاً، والشاملة من الأمكنة والناس ما يكاد يشمل أكثر من نصف شعوب العالم القديم، على امتداده المكاني والزماني وما مرّ فيه من لهجات ولحن لغوي منذ الجاهلية حتى عصر الاحتجاج... وما حدث بعده واستحدث من الألفاظ المولدة والمعربة والدخيلة و... الخ.

ولذلك اعتاد المعجميون أن يهملوا الكثير مما يتطلّبه المحتاج إليه اليوم من مفردات لغتنا الحديثة ومصطلحات حياتنا المعاصرة التي يستجدّ فيها الجديد يوميًا...

إليك هذا المثال على حذف اسم التفضيل في مادة: (أمِنَ): فالفعل المضارع المسند إلى ضمير المتكلم: أنا (آمَنُ)، صيغته اللفظية تجانس صيغة اسم التفضيل: (أأمن) الذي يلفظ بالتخفيف آمن كما في المثال المشهور: (بيتك آمَنُ لك من مسالك المهالك)؛ وأما المضارع المسند إلى ضمائر لا تغير من صيغته فإليك مثاله عن الآية الكريمة (هل آمنكم عليه إلا كما أمِنتكم على أخيه) السورة ١٢ يوسف. الآية ٦٤.

ومن مظاهر إهمال كثير من المشتقات أنك لا تكاد تجد (الأوامر) الجمع الذي مفرده (الآمرة) وهوالمصدر الذي وزنه: فاعلة، إلا في القليل من المعجمات. وكأن (الأوامر) نادرة في ألسنتنا.

ولكن هذه الإهمالات كثيراً ما تؤدي إلى جعل مراجعي المعجم من العلماء أو ممن يكونون على مستوىً علميّ كاف ليستغنوا عما حذف أو أهمل.. ومع ذلك فإن توهم الخطإ في استعمال القياسي الذي أهمله المعجم كان سبباً لتضخم كتب الخلافات اللغوية ومعجمات الغلطات والأخطاء الشائعة، ولتناقضها، وانظر في خلافاتهم حول جمع: معجم على معاجم أم معجمات؟ وجمع زهرة على زهور أم أزهار... وغيرها كثير... كثير... وكم أهملت جموع فصاحٌ مهمة كثيرة الاستعمال شائعته، كما أهمل بعض المعاجم -مثلاً- جمع: (القاضية) بمعنييها المتخالفين على: (قواض). أما (الأونَة) فجمع مفرده: (الأوان). فكيف يدركه المبتدئ الذي علينا أن نغرس فيه عادة استعمال المعجم منذ الصغر؟

ولعلني أنظر إلى ألفي مؤلّف معجمي ونيّف في لغتنا العريقة على أنهم من المتفانين الذين يبذلون حياتهم ويذوّبون عبقرياتهم من أجل تسهيل استخدام المعجم والتيسير على طلبة العلم البادئين الشُداة المتشوقين إلى بلوغ المعرفة السهلة السائغة الميسرة... ولكنهم يجدون في إعادة لمّ هذه

الشوارد والمحذوفات مايؤدي إلى مزيد من التضخم في حجم المعجم فيزداد النفور منه... وطلبة العلم الأجانب يحملون في جيوب ألبستهم موسوعات (اللاروس مثلاً) مصغرات في مثل حجوم صغار المصاحف التي نتقنها -غفر الله لنا- ويكاشفونها في مجادلاتهم وهم في وسائل المواصلات أو في الحدائق سواء أكانت مجادلاتهم في جدّ أم لهوٍ يُمْتِعُ ويفيد.

ونظام الترتيب الجذري المعجمي للمداخل يحوي بقايا الفوضى في الخلاف على الجذور حتى في قديم المعرّبات -مثلاً- فالمغناطيس، يُدرجه (محيط المحيط) في الجذر: غ ط س كالقاموس المحيط. أما معجم مجمع القاهرة (.. الوسيط) فيدرجه في الجذر: م غ ن، وكذلك جذره في (المعجم العربي الأساسي) الصادر عن (لاروس) لحساب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية ١٩٨٨، وهذا على خلافات في ضبط شكل الميم بين هذه المعجمات.. ويصل الخلاف على الجذور الثلاثية إلى الاختلاف بين الألف الواوية الأصل، وبين اليائية الأصل، أو الألف اليابسة غير اللينة؛ أي: الألف المهموزة. فشهر (آب) في المعاجم التي تأخذ برأي (لسان العرب) لابن منظور المصري في: أو ب. ولكنه في معجم مجمع مصر (الوسيط) في ألب. والفعل: (آلى إيلاء) في (القاموس...) وفي (محيط المحيط) واويّ، ولكنه يائيّ في (المعجم الوسيط) أمّا سهولة الوصول إلى: (الآلاء) القرآنية الدارجة في تسمية الفتيات في أيامنا... فحدث عنها ولا حَرَج... ولمفردها صيَغ... منها: (الألو)، و (الإلى)؛ بمعنى: النعْمة. ومنها: (الّلأي)؛ بمعنى: الجهد أو الحاجة إلى الناس وتصغيرها: (لُؤَيّ) قلّ أن يذكره معجم.

والفضل في نقل (المتحف) من باب: و ح ف إلى: ت ح ف، يعود إلى (القاموس المحيط) الذي لم يترجم له، ولكنه ترجم لـ (التحفة) في ت ح ف ثم نصّ على أن أصلها من: و ح ف، وعلى أنه سوف يترجم لها في الواو؛ ثم لم يفعل! وقد تابعه (محيط المحيط)، أما الذي أضاف (المُتحَف) (فالمعجم الوسيط) وقد أورده في باب التاء، وبقرار معجميّ.

وعلينا أن نطلب ضمير المتكلم المفرد (أنا) في باب النون من معجمات الترتيب حسب الأواخر (كالقاموس واللسان والتاج...) وفيه أن الألف بعد النون زائدة؛ للوقوف عليها بالسكوت، ولفظها في غير الوقف لغية أو لغة رديئة.

وعلينا أن نطلب (التراث والإرث) من ورث. و (الإسم) من س م و. و (الهبة) من و هـ ب. و (تترى) في القول: جاء القوم تترى؛ ليست فعلاً مضارعاً، ولكن هي اسم منصوب لأنه حال؛ ولأن التاء منقلبة عن واو: وَتْرَى، مثل: (مَرْضى): وزناً. ومعناه: (وَتْرَى): تِباعاً متتابعين.

والمعاجم المستحدثة في لبنان والتي هجرت نظام الترتيب الجذري للمداخل؛ ورَتّبَتْها ألِفبائياً دون حذف للأحرف المزيدة من مثل (المعجم الرائد) لجبران مسعود ١٩٦٥ و (المعجم العربي: لاروس) لخليل الجر ١٩٨٧. و (المنجد الأبجدي) الذي أعيد ترتيبه، أول طبعة، مختصراً عن (المنجد) ١٩٦٧ فإنها ظلت تتأثر بإعادة المعتلّ بالألف اللينة إلى أصلها الواويّ أو اليائيّ قبل ترتيبها. وقد سمعنا بمعاجم اتبعت مثل هذا الترتيب في تونس والمغرب... وقد طبع (الرائد) لجبران مسعود سبع طبعات حتى ١٩٩٢.

فصاح مظلومات! على أنها الأشدّ حيوية:

وقد يحذف مؤلفو المعجم من المحدثين اختصاراً ما يظنونه غير مستعمل في لغتنا الحديثة، ويكون مستعملاً في إحدى العاميات التي قد لا نعرفها لتفرُّقنا في أقطارنا.. ولأن أغلب هذه العاميات غير مسجلة وغير مدروسة وغير معروفة إلاّ عند أبنائها وفي بيئتهم مع أنها قد تكون حافلة بـ (فصاح العامية)، وأول ما لفت نظري من فصيح العوام كان فيما كان يُظَنّ أنه الأبعد عن الفصاح، في الجزائر، فنشرت في هذه المجلة بعنوان (قبس من اللغة: الفصاح في العامية الجزائرية) في العدد المزدوج ٢٧-٢٨ السنة السابعة ١٤٠٧هـ و ١٩٨٧م من (التراث العربي) كان هذا حصيلة ثمانية عشر عاماً من التنقيب. وذكرت أني أتمنى أن أجد من العارفين بفصاح العاميات كلها من يجمعها لإضافتها إلى المعجم العصري الذي عليه أن يحافظ على ما لايزال حياً من فصاح الأمة. وفي صحيح الحديث الشريف: (رأس الحكمة بعد الإيمان بالله مُداراة الناس) والفعل (دارى يداري مداراة) وارد في لهجاتنا العاميات، ولكن المعاجم الحديثة التي تتبع الفيروزا بادي في (القاموس...) أهملته لأنه أهمله. وكدت أتورّط وأخطّئ عالماً يروي عن عالم (قَوْلَته) إذ لم أجد القولة في مصادر الفعل (قال) في (المعجم الوسيط)، ولكن حين كاشفت (محيط المحيط) وما هو أقدم وجدت (القَوْلَة والقِيْل والقال). والفعل (خبّط) المشدد الباء؛ أي: المضعّف العين لا تجده في المعجم إلا عند المستشرق دوزي في (مستدرك المعجمات) حيث يذكر أن العالم الأندلسي ابن جزلة استعمله في مخطوط له في الأدوية. ولكني وجدت عبد الواحد بن علي اللغوي. ت ٣٥١ يذكر المضعف (خبّط) في (كتاب الأضداد من كلام العرب) الذي طبعه مجمع دمشق ١٣٨٢هـ و ١٩٦٣م بتحقيق د. عزة حسن. وعبد الواحد يرويه عن قُطْرُبْ... وهذان أقدم من بعض المعجمات...

ومن فصاح العامية الشامية القديمة المهجورة حديثاً، قولهم لدى الانصراف من عند قوم: (أوْدَعْناكم) و (أوْدَعْناكنّ) على الإيجاز في حذف المفعول الثاني لأنه مفهوم بالفطرة والبديهة؛ وقد هجر أكثر الشاميين تحية التوديع هذه منذ أن كانت تستعملها في الحواريات التمثيلية (أم كامل: التي كان يمثلها بشخصيتها الفنان المرحوم أنور الباب). فتركوا استعمالها وفي ظنهم أنها عبارة مغرقة في العامية، مع أن الصحيح أنها مغرقة في الفصاحة، وهي مثال من أمثلة كثيرة على مالم أكتب عنه من قبل.

أما الثلاثي (وَدَعَ) فقد كتبت عمن رأوه فعلاً مُماتاً في صيغة الماضي مع أنهم ساقوا الشواهد عليه ومنها قراءة من القراءات وحديث نبوي شريف! ومن هؤلاء سيبويه في (الكتاب) قبل (القاموس المحيط) وغيرهما... وأما من رفضوا الادعاء بالموت على الماضي الثلاثي ودع فمنهم ابن جنّي في (الخصائص) وابن منظور في (لسان العرب) والفيومي في (المصباح المنير) والمُطَرِّزيّ في (المُغْرب في ترتيب المعرب) ومنهم أيضاً عوامّنا الذين حافظوا على حياته بلفظه ومعناه.

التصويب والتخطئة... وتخطئة المخطّئين:

ومنذ بدايات عصور التدوين في القرنين الثاني والثالث الهجريين؛ أي: الثامن والتاسع الميلاديين، ومع كثرة تدوين كتب اللغة؛ بدأت تؤلف الكتب والبحوث العديدة في تتبع أخطاء العوامّ، وبدأت أيضاً مؤلفات التنبيه على ما أنكره قوم على العامة وله وجه في اللغة.. فتكوّن الاتجاه نحو فصيح العوامّ.. وفي عصرنا تكاثرت هذه المحاورات والبحوث والنقود اللغوية... بسبب اختلاف المراجع المعجميّة الكثيرة بين أيدي هؤلاء الباحثين والنقاد، وقد بيَّنت هذا في دراسة جعلتها في مقدمات[6](معجم فصاح العامية).

من كُتُبٍ/ ما مضى عليه اثنا عشر قرناً

– (الفَاخر) لابن سلمة:

المفضّل بن سلمة بن عاصم المتوفى سنة ٢٩١ يفتتح مقدمة كتابه (الفاخر)[7] فيقول ((هذا كتاب معاني ما يجري على ألسنة العامّة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك فبَيَّنّاهُ من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره ليكون من نظرَ في هذا عالماً بما يجري في لفظه ويدور في كلامه)).

– (بحر العَوّام فيما أصاب فيه العَوَامّ):

لابن الحنبلي، رضي الدين، محمد بن إبراهيم بن يوسف المتوفى ٩٧١هـ. دراسة وتحقيق د. شعبان صلاح. طبعة دار الثقافة العربية في القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م. وقد تجدد في هذه الطبعة التحقيق الذي كان قام بما أتيح له منه أستاذنا المجمعيّ عز الدين علم الدين التنوخي قبله باثنين وخمسين عاماً ثم نشره في عددين من مجلة المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية بدمشق) ١٩٣٧ المجلد الخامس عشر.

وفي مقدمته: ((مُشتملاً على ما يعتقد الجاهل أو الناس أنه من أغلاط عوّام الناس، وليس في شيء من الغلط..)) ويذكر المؤلف ٢٢٣ قولاً من أقوال العامة؛ يثبت صحتها ومن ذلك قول العامة -مثلاً-: فلان وفلان حضروا، وهو قول جار على ماورد في التنزيل، وهو قوله تعالى: هذان خصمان اختصموا.

---

[6] انظر في ص ٢٦و ٢٧و ٢٨و ٢٩: (الخلافات المعجمية أنجبت الأخطاء الشائعة) و (مَن يخطِّئ مَن) وفي (في نقد الأخطاء الشائعة).

[7] المقصود من بين عدد من كتب التراث التي تحمل اسم (الفاخر) كتاب أبي طالب المفضل بن سَلَمَة بن عاصم المطبوع في القاهرة ١٩٦٠م في سلسلة (تراثنا). حققه عبد العليم الطحاوي رئيس تحرير مجلة مجمع اللغة العربية في مصر، مراجعة محمد علي النجار: دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي. وقد بينت في ص ٣١ من مقدمة (معجم فصاح العامية) الصادر عن مكتبة لبنان بـ ناشرون ببيروت ١٩٩٧م أن اسم (كتاب الفاخر) قد وسمت به عدة كتب أخرى من تراثنا.

ومن بعض ما وصلت إليه من هذه البحوث:

- **(قاموس العوام)** لحليم دموس المتوفى ١٩٥٧ لوضع المقابل الفصيح للمفردات العامية الخاطئة طبع في دمشق ١٩٢٣م قال فيه: ((ما هو إلا مجموعة مطالعات ومراجعات بل هو فهرس ما انتقدته أقلام الأدباء منذ سنوات)) ومنهجه استبدال ألفاظ صحيحة بالألفاظ العامية الفاسدة.
- **الشيخ أحمد رضا: ((رد العامي إلى الفصيح))**: محاولة لتوجيه العوامّ نحو التفصيح جمع فيه أكثر من ألف وأربعمائة مادة كان أشار إليها في حواشي المعجم الذي ألفه بتكليف من مجمع دمشق (متن اللغة) بعد أن نشر بحثه في أخطاء معجم الشرتوني... (أقرب الموارد إلى فصح العربية والشوارد). وقد طبع (رد العامي...) في حياة مؤلفه قبل طبع المعجم. وأتم أحمد رضا تسويد: (رد العامي إلى الفصيح) ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م. والطبعة الثانية من بيروت ١٤٠١هـ- ١٩٨١م وعرّف على الغلاف أنه ((قاموس يرد الكلمات العامية إلى صحيحها أو إلى ما تحتمله من الوجوه ويأتي بمرادفاتها من الفصيح بتحقيق وتدقيق لها قيمتها اللغوية)).
- **الأمير شكيب أرسلان في: (القول الفصل في رد العامي إلى الأصل)** شرحه وعلق حواشيه محمد خليل الباشا لإبراز ما في العامية من الفصاح وتفصيح وتصحيح ما يمكن تفصيحه. طبع ١٩٨٨م في المختارة: بلبنان: الدار التقدمية.
- **بقايا الفصاح: مقالات شفيق جبري** (شاعر الشام) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق من المجلد ١٧ لعام ١٩٤٢ حتى المجلد ٥٤ لعام ١٩٧٩.
- **د. عبد المنعم سيد عبد العال: (معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية)**. وقد جمع فيه ((ألفاظ منعزلة عن تحريراتنا الأدبية ولا نستخدمها في كتاباتنا، ونخطّئ طلابنا إذا عمدوا إلى استعمالها في كتاباتهم بحجة عاميتها مع أنها لا غبار على فصاحتها)).

  الطبعة لأولى بالقاهرة ١٣٩١هـ- ١٩٧١م والطبعة الثانية ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
- **(معجم فصيح العامة)** ١٩٩٠م دار العلم للملايين بيروت و (قاموس المصطلحات والتعابير الشعبية) في مكتبة لبنان: ناشرون ١٩٨٧ لأحمد أبي سعد.
- **وكنت أحياناً أتلقّط من (حوادث دمشق اليومية)** لأحمد البديري الحلاق ١١٠٤-١١٧٥هـ و ١٧٤١-١٧٦٢م. كذلك من بعض المطالعات في ألف ليلة وليلة والتراث الشعبي ومن بعض مصطلحات الصوفية وغيرهم...
- **وقد أفدت واستمددت مادة لغوية هامة من شهاب الدين أحمد الخفاجي المصري** ت ١٠٦٩هـ ومؤلفه (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل) ط١ القاهرة ١٣٧١هـ و ١٩٥٢م بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي.
- **وفي عصرنا: أفادتني كتب النقد اللغوي المتكاثرة من مثل: (نحو وعي لغوي)** تأليف د. مازن المبارك ط. بيروت ١٣٩٩هـ و ١٩٧٩م. مؤسسة الرسالة.

- وأفدت من البحوث والمتابعات التي ينشرها في (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق) رئيس المجمع د. شاكر الفحام. ومن الباحثين الآخرين في المجامع اللغوية ومطبوعاتها...
- وكذلك أفدت من المواد والبحوث اللغوية في العديد من الكتب مثل كتاب: د. مسعود بوبو (أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج). ط. وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٢، وكذلك من بحوثه المنشورة في الدوريّات.
- وللأستاذ الباحث محمود أمين العالم اهتمامات في البحث اللغوي ظهرت في العدد الخاص الذي صدر من السلسلة العلمية التي يشرف الأستاذ العالم على إصدارها: (قضايا فكرية) وموضوعه: (لغتنا العربية في معركة الحضارة): الكتاب السابع عشر والثاني عشر منها: مايو- أيار ١٩٩٧ بالقاهرة. ولقد كتبتُ إليه فأجابني وأخبرني أن لأخيه المرحوم محمد شوقي أمين أحد العلماء الأربعة المشاركين في وضع (المعجم الوسيط) معجم مجمع القاهرة؛ مسوّدات لبحوث في فصاح العامية.
- وما أكثر البحوث التي تفوتنا ممّا لم نسمع به من قبل؛ أو سمعنا به ولم يصل إلينا من مثل: (نحو تفصيح العامية في الوطن العربي) لعبد العزيز بن عبد الله. وغيره مما لا يحضر في ذاكرتي الآن...

الخطّة:

انتقيت المجهول من فصاح العامية لكي أتمكن من الإنجاز وأختصر العمل، ففي لغة الحياة الكثير من العبارات المعروفة بين الناس بفصاحة أصلها لو تحركت سواكنها، كمثل المفردات والعبارات عن الدراسة والعلم والتفكير والتذكر والتنقل والقيام والنوم والطعام والشراب واللبس وشتى مرافق العيش والتعاطف و... إلى ما لانهاية له... فالأصل أن العاميات انحرفت عن أمها الفصحية وتشردت... والناس يعرفون ما أصله فصيح من هذه وغيرها... وقد كان غرضي أن أبرهن على الفصاحة المجهولة في طائفة من الألفاظ العامية التي يتجنبها الكتّاب والأدباء والمربّون والفصحاء... وقد جمعت جذاذات من هذه الفصاح في زهاء ستة وعشرين عاماً، وكتبت عنها في ثلاثة أعوام تالية وطبع في: مكتبة لبنان ناشرون ١٩٩٧م، مع أني لم أستطع أن أنجز كتابة أكثر من نصف كمية المواد التي جمعتها... متّكلاً على أن للباحثين أن يستكملوا مثل هذا العمل ويغنوه ويجوّدوه، أو أن يدلّوني على أخطائي وعيوبي، ولكنني لم أجد من قرأ ما كتبت إلا ممن اهتموا بإخراجه إلى نور الطباعة وقد شهدوا أن الأسلوب جذاب ومشوّق، ذلك لأنني تعمّدت أن أروي قصصاً عن تطور هذه الألفاظ بأسلوب يمزج الشاعرية بالفكر العلمي الموضوعي؛ فقرّاؤنا يحبون القصة والشعر والمسلسلات المشاهدة على الشاشة، وقد أكثرت من فحص لغة هذه المسلسلات وأشرت إلى فنانيها... وبحثت في الفصاح في ألفاظ محاوراتهم لأنها المادة الأساسية في اللغة الرائجة في عصرنا؛ لغة الإعلام المرئي؛ فهي لغة مؤثرة أشد التأثير في لغتنا اليومية المعاصرة.. ولا يستطيع آلاف الأساتذة في المدارس والمعاهد وفي الكتب والمطبوعات أن ينشروا تعبيراً صحيحاً

كما ينشره إعلامي فنان على الشاشة المرئية... وانظر إلى ما كتبته في هذا الشأن في مجلة (المعلم العربي) الصادرة عن وزارة التربية بدمشق: العدد الثاني لسنة ١٩٨٦ أي السنة التاسعة والثلاثين لصدور هذه المجلة، وما بين الصفحات ٧١و ٧٥ بالعناوين الفرعية: وللإعلام التأثير الأكبر -ترسيخ التربية اللغوية إعلامياً- والجفاء بين المثقفين والمعجم، والعنوان الأصلي: التربية اللغوية والمعجم المدرسي.

نحو تسهيل التوجه إلى معجم التطور التاريخي العلمي المتكامل ليتابع الترقيّ

إننا لنتفاءل... ويسرنا تكاثر المعاجم والقواميس اللغوية والاختصاصية ومعاجم المصطلحات في علوم وفنون شتّى... في عصر الحاسوب الذي غدا قادراً على التقامها وغدا العلماء قادرين على تلقيمه إياها... ومن ثمّ تنظيم عملية تنقيحها وتحقيقها والنظر في الخلافات بينها لحسمها، والتوفيق بين أنظمتها.. ثم إعادة تأليف النتائج في معجم كبير يتتبع تاريخ التطور اللغوي وقصة حياة كل عبارة...

ولقد بدأ العمل في هذا الاتجاه في عدد من المؤسسات العلمية والمعلوماتية كالموسوعة العربية في دمشق، وكمراكز البحوث والدراسات العلمية والمجامع اللغوية واتحادها والوزارات المختصة في دمشق وفي عواصم ومراكز عربية... وغير عربية... والأمل معقود على بعضٍ من ألوان التعاون بين هذه المراكز والمؤسسات والوزارات والمجامع والمعاهد والهيئات العلمية والمعلوماتية.. والجامعات ومكتب تنسيق التعريب حيث بحوث ونشرات (اللسان العربي) في الرباط ونشرات عن مشروعات معاجم المصطلحات العلمية والفنية والحضارية.. ليكون لتعاون هذه الجهات المتباعدة جغرافياً... أساس تنظيمي موجه نحو الإنجاز المطلوب للمعجم الكبير الذي بدأ به مجمع القاهرة منذ زهاء سبعين عاماً، وأصدر منه ما مكّنته الإمكانيات التي كانت تتاح له.

لقد حلّ التطور الإلكتروني أكثر مشكلات التفكير والذاكرة المسجلين في السجلات البشرية طوال العصور... ولكنني أسائل المختصين: أيكون بمقدور الحاسوب أن يفكر ويكتشف، كما اكتشفت، مثلاً أن إبدال القاف إلى همزة -كما في لهجات بعض المدن- مما أجد له أمثلة في قديم الفصيح حيث كتبت بعنوان: (أذّى أو قذّى يؤذّي أو يقذّي؛ بمعنى يكفي ويوفي) في ص ١١٨. وكذلك بعنوان: (الأرْش والمُؤَارَشَة والمقارشة والمحارشة والمهارشة والموارشة ص١٢١) و (أرَمَ وقَرَمَ ص ١٢٣) على الرغم من أن حرف القاف ليس من أحرف الإبدال التي حصرها العلماء ولم يتحدث عنه أي لغوي سوى أن بعضهم تحدث من خلال نادرة غريبة عن إبدال القاف غيناً والغين قافاً في لهجة قديمة[٨].

□□□

---

[٨] ذهب عالم إلى قبيلة وسأل شيخها: (أصحيح أنكم تبدلون بالقاف غيناً وبالغين قافاً؟) فأجاب مستنكراً: (أستقفر الله! من قال هذا؟) وقد سمعت مثقفاً من بعض مناطق السودان يتحدث في الإذاعة فيقول: (غالَ فلان...) ويقصد أن يقول: (قال فلان..) راجع ص ٣٩ وحاشيتها وما بعدها حتى ص ٦٠ من الطبعة الأولى من (معجم فصاح العامية) ١٩٩٧ (مكتبة لبنان).

المعجمية في الشرق العربي القديم

الدكتور: عدنان البني

بدايات الكتابة وتطورها في الرافدين:

إن الكتابة التي هي إنجاز من أعظم منجزات الفكر البشري، إن لم يكن أعظمها جميعاً، مرت بعدة أطوار، طور يُعرّف حالياً باسم الطور الممهد للكتابة، وفق نظرية السيدة دنيس شماندت بيسيرا التي ترى أن الأشكال الطينية الصغيرة المستديرة والقرصية والبيضوية والمعينية والاسطوانية الخ..التي يعثر عليها في العديد من المواقع الأثرية في بلاد الرافدين وبلاد الشام وماحولها، والتي تعود لزمن يمتد من أواخر الألف التاسع وحتى الألف الرابع قبل الميلاد، هي نوع من الكتابة تدل على منتجات ومواش وأرقام كانت قد اصطلحت عليها المجتمعات البدائية المستقرة، في عمليات التبادل (شماندت بيسيرا ١٩٩٢) وكان الطور التالي هو طور الكتابة التصويرية التي وضعها السومريون في الرافدين في نهايات الألف الرابع قبل الميلاد. وذلك في حدود ما نعرف حتى الآن.

لن نقف عند مسألة أصل السومريين في هذا البحث... ولكن نقول باختصار إن اللغة السومرية هي من فصيلة اللغات الأورالية-الألطائية(وتسمى الأسبانية أيضاً). وهي من فئة اللغات الملصقة أو المدغمة، تقوم على جذر فعلي لا يتغير، يدخل كجزء ثابت في تركيب الأفعال. وتصرّف هذه الأفعال بإضافة مقاطع ملصقة قبل ذلك الجذر أو بعده أو قبله وبعده معاً. لدينا مثلاً الجذر الفعلي LAL(١) الذي يعني فعل الدفع أو الوزن. ويكون التصريف على الشكل التالي:

دَفَعَ = EN-LAL ، (أي دفع الثمن).

دَفَعه = EN - NA- LAL

دَفَعوا= EN - LAL- ENE

ويُشكّل كثير من المفردات أيضاً بإدماج كلمتين مثلاً LU-GAL = الرجل العظيم (أي الملك)، وE-GAL = البيت العظيم (أي القصر). وكثير منها أيضاً من مقطع واحد. مثلاً Ki = أرض LU = رجل، ŠU = يد.

كتب السومريون لغتهم هذه بالرسوم. وكانت تلك الرسوم تدل على الأشكال التي تمثلها فحسب. ثم اهتدوا إلىاستعمال هذه الأشكال للتعبير عن بعض المعاني والأفكار أيضاً. فصورة القدم أخذت معنى السيْر ومايتعلق به. وغدت صورة الشمس تدل على الضوء والحرارة. وبهذا الشكل أصبحت طريقة الكتابة السومرية صُوريّة ورمزية معاً. ثم احتاجوا للتعبير بشكل أكثر دقة عن الأفكار والعواطف والمعاني الأخلاقية والألوان، فاستخدموا الأشكال المرسومة كمقاطع لفظية وفي الوقت نفسه ظل لتلك الأشكال قيمٌ رمزية حيناً وقيمٌ صوتية حيناً آخر. وفي ذلك صعوبة بالغة في الكتابة والقراءة معاً.

تطورت العلامات التصويرية نفسها أول الأمر إلى رسوم خطية مبسّطة ومختزلة. ثم آلت إلى علامات تبتعد عن الأصل كثيراً تُنفّذ على الطين الطري، بريشةٍ أو بقلم معدني فتعطي أشكالاً كالمسامير المجمّعة، سميّت لدى الرافدين أنفسهم باسم «تيكيف سانتاكي» (أي خربشة الأسافين). وعُرفت في دوائر المختصين الأوروبيين منذ القرن الثامن عشر باسم الكتابة المسمارية أو الإسفينية «CUNEIFORM» نسبة لكلمة «CUNEUS» اللاتينية التي تعني المسمار أو الإسفين.

بدايات العمل المعجمي:

منذ طور الكتابة التصويرية المبكر، في الرافدين، نشأت الحاجة إلى إيضاح تلك الصور المرسومة والمقصود منها، الأمر الذي أوجد نوعاً من النشاط المعجمي يهدف إلى شرح المفردات المصوّرة للكتبة وللطلبة وللمعنيين بشكل عام. وأقدم المعروف من هذا النشاط المعجمي يرجع إلى زمن يعود لنحو ٢٨٠٠ قبل الميلاد، وقد كان ذلك على شكل قوائم تضم العلامات التصويرية مجموعة على أساس شكلها أو معناها. كانت تلك القوائم مخصصة. كما ذكرنا، لمساعدة الكتبة في معرفة المجموعة الضخمة من العلامات التصويرية التي كان عددها في ذلك الحين يصل إلى أكثر من ألفي علامة (بوتيرو، ج١٩٧٣، ص ٤١).



رقيم من طور أوروك (III) في حدود ٢٨٠٠ ق.م عليه ثبت بأسماء الأشجار (المربعات من ١ إلى ٣٩) وأشياء مصنوعة من الخشب (المربعات من ٤٠ وما بعد) والعلامة المستطيلة من كل مربع ترمز للخشب.

ومع تطور الكتابة التصويرية إلى الكتابة المقطعية التي اختزلت الصُور أو حوّرتها، وبسبب استخدام الأقلام المسمارية الرأس على الطين، وانقلاب العلامات التصويرية تسعين درجة إلى اليسار(٢)، أخذت تلك العلامات تبتعد عن الأصل ويستعصي بعضها على الإدراك، ومع تعقد حاجات المجتمع الرافدي في نطاق المعبد ومن ثم في نطاق القصر، اللذين أصبحا مشروعين اقتصاديين كبيرين، تطورت الكتابة باغتنائها بمفردات جديدة ومرادفات ومقتبسات ومشتركات لفظية وغدت السيطرة عليها مركباً صعباً، الأمر الذي تطلب مزيداً من المجهود المعجمي الذي نضج في ظل السيادة الأكادية على الرافدين، في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. ونشأ عنه قيام نوع من المدارس للكتبة تعلم الأكادية مع السومرية وتضم مجموعات من النصوص في اللغتين تحفظ في خزائن خاصة تعرف بسام É DUB (أي بيت الرُقم).

تطور المعجمية الأكادية- البابلية- الآشورية:

في الزمن الذي ذكرناه سادت اللغة الأكادية، لا في الرافدين فحسب، بل في آسيا الغربية كلها تقريباً، واعتُبر ملوك أكاد مصلحي الكتابة الرافدية، وغدت الأكادية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد اللغة الدبلوماسية(آميية، ١٩٨٢، المقدمة)، وانكمشت اللغة السومرية في العبادات وبعض العلوم. ماتت كلغة محليّة وغدت كاللاتينية في العصور الوسطى. وفي هذه الحال نمت طبقة هامة من الكَتَبَة الديوانيين في الإدارات الرسمية والمراكز الدينية تحسِن الأكادية وتستخدمها بديلاً من السومرية. لكن على الرغم من زوال السومرية كلغة كلام بقيت العلامات السومرية مستخدمة لكتابة اللغة الأكادية نفسها. والمقطع السومري أخذ يُلفظ بالأكادية، فالعلامة التي تدل على الملك تُقرأ LUGAL في السومرية ولكن الأكادي أو البابلي يلفُظها en أو Šar. ونتج من ذلك الحاجة لوضع إثبات بما يقابل المقاطع أو المفردات السومرية من المفردات الأكادية. وتعددت الأثبات بتعدد الدواوين وانتشار اللغة الأكادية في المناطق المحيطة بالرافدين، حتى قبل فتوح سرجون الأكادي وإنشائه امبراطوريته الواسعة في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد(٣). والأمر واضح في نصوص إيلا وتل بيدر في سورية(٤). وقد خلّف عصر مملكة أور الثالثة (السومري الجديد)، في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وثائق اقتصادية تدل على بقاء الاتصالات التجارية بين الرافدين وسورية. ومن دلائل ذلك العثور على نموذج معجم مفردات من مدينة أور في مدينة جبيل (كلنغل ١٩٩٨ ص ٣٣-٣٤).

تتضمن المعجمية الأكادية، فضلاً عن ترجمة المفردات والأفعال، البحث عن دلالاتها ودرجها في مجموعات ميسّرة استخدمها الإبليون (نسبة لمدينة إيلا) والأموريون (البابليون) والكنعانيون في أوغاريت وغيرها، وكذلك الآشوريون والكلدانيون والحثيون والحوريون.

كانت هذه المؤلفات المعجمية تضم أحياناً آلاف السطور. وهي بمثابة موسوعة تضم أحياناً أكثر من عشرين رقيماً كبيراً. ومفرداتها تشمل تقريباً كل العالم المعروف آنئذٍ، وكل ما يشتمل

عليه. فثمة قوائم بأسماء الحيوانات والنباتات من أهلية وبرية وأنواع الشجر والخشب والقصب والفخار والأواني الفخارية والجلد والأشياء الجلدية والمعادن وأجزاء الجسم الإنساني والنجوم والأرباب (بوتيرو ١٩٧٣ ص٤٢). وثمة معاجم لغوية فقط، ومعاجم بلغتين أو بعدة لغات، ومجموعات حكم وأمثال. ويذكر أن في وثائق مكتبة أشور بانيبال الشهيرة في مدينة نينوى مايدل على أن علماء النبات الآشوريين قد صنفوا النبات تصنيفاً علمياً (حشائش وقصبيات وقرعيات الخ والمفردات النباتية تنيف على ثلاثمئة.

إن المدن الرافدية التي وقع فيها المنقبون الأثريون على رقم من طبيعة معجمية هي كثيرة العدد، ومن أكثرها أهمية «نيبور» (نُفّر)(٥) و«سيبار» (أبو حبة)(٦) و«شادوبم» (تل الحرمل)(٧) ومن ثم «شور وباك» (فارة)(٨). وأبو صلابيخ(٩). وتأتي في مقدمة تلك المواقع نينوى (بجوار الموصل) التي جمع فيها الملك الأشوري آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٦ ق.م)، في مكتبة عظمى، نحو ثلاثين ألف رقيم تضم معظم التراث العلمي والثقافي في الرافدين وفي مختلف الأغراض وفي مقدمتها الأثبات التاريخية. وقد خلّف الرافديون أثباتاً بأسماء ملوكهم لكن الآشوريين ابتدعوا في هذا المجال نوعاً من المعجم التاريخي مؤلف من حقلين: يُذكر في الحقل الأول منه اسم الملك البابلي وفي الحقل الثاني اسم الملك الآشوري المعاصر له. نجد مثلاً أن الملك البابلي "نبوكدوري أوصر" (أي بختنصر الأول) يعاصره ملوك آشوريون ثلاثة هم: "تنورتا-توكلتي-أشور" و"موتكل- نسكو" و"أشور- ريش- إيشي" (باقر ١٩٥٥ ص ٣٢٢)، ويذكر المؤلف المذكور أن الرافديين "ألفوا في الجغرافية أثباتاً... مطولة بأسماء البلدان والمدن والأنهار في العراق وفي الأقطار المجاورة. وقد جاءتنا من هذه الأثبات نماذج مهمة من الزمن البابلي القديم، فمن ذلك ثبتٌ جغرافي مطوّل وجد في تنقيبات مديرية الآثار العراقية في تل حرمل. ووصلت إلينا نماذج من هذه المؤلفات الجغرافية من الزمن الآشوري المتأخر، وكذلك من العهد البابلي الأخير، وفيها إضافات بأسماء المعابد وتفسير أسماء بعض الأقاليم والمدن. وهي مدونة بالسومرية وباللغة البابلية."(باقر ١٩٥٥ ص ٣٢٧).

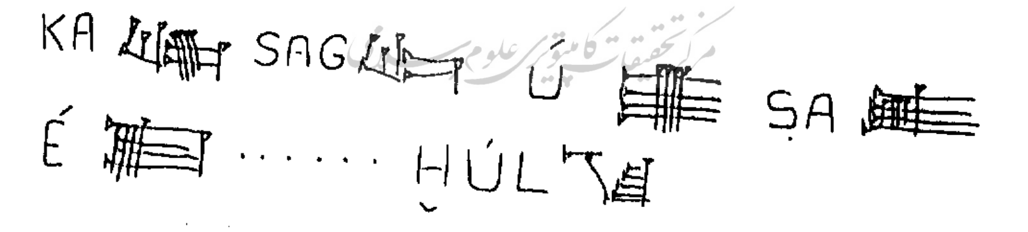
إبلا (تل مرديخ) والوثائق المعجمية:

لا أرانا بحاجة للتعريف بإبلا مالئة الدنيا وشاغلة الناس، فقد غدت المراجع والدراسات المفصّلة عنها تعد بالمئات، وقد أدرجها جميعاً مدير البعثة الإيطالية مياولو ماتييه في خاتمة مقال يعرض فيه عشرين عاماً من أعمال التنقيب (١٩٧٧-١٩٩٦) ونتائجها الجديدة (ماتييه، ١٩٩٧، ص ١٢-١٥) وفي اللغة العربية صدر الكثير عنها، بين مطبوع ومسموع. وشاركنا بدورنا في التعريف بهذا الكشف الخارق للعادة في أكثر من مناسبة (البُنّي ١٩٨١ ص ٢٢-٣٥ وكذلك البُنّي ١٩٨٤، ص ٩-١٧). ولكن على سبيل التذكرة نقول إن رُقُم إبلا التي تجاوزت، بين كاملة وناقصة، ماينيف على ستة عشر ألف رقيم محرّر بالمسمارية السومرية، بأجمل مايكون الشكل الهندسي لهذه الكتابة. أما اللغة التي كتبت بالعلامات السومرية. فهي لهجة قديمة قريبة من الأكادية في رأي البعض، ومن

الكنعانية في رأي البعثة. ولكن إدمون سولبرجه، عضو اللجنة الدولية التي شكلتها سورية لدراسة رُقم إبلا يميل لتسميتها أكادية غربية (سولبرجيه، ١٩٨٦-ص١). ومع ذلك يقال الآن إنها لهجة إبلية دون زيادة ولانقصان، وكل هذه اللهجات هي في الواقع عربية قديمة.

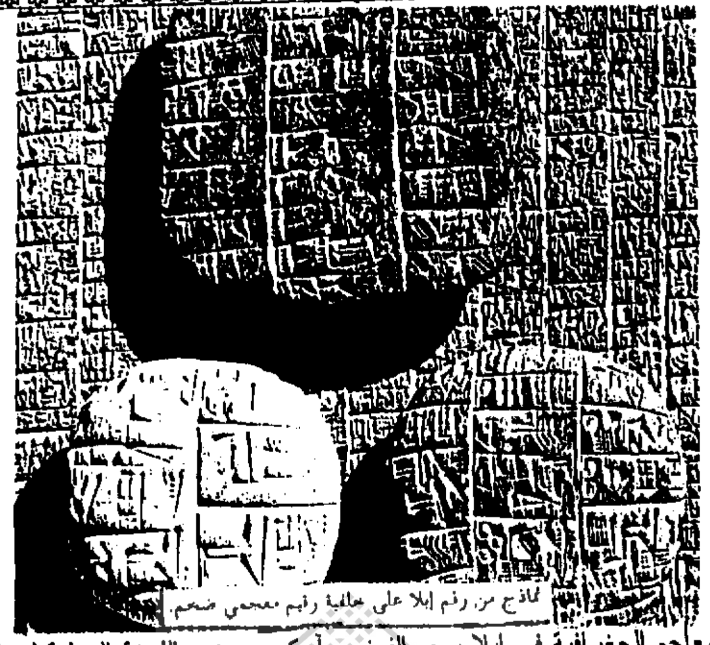
ومحفوظات إبلا متعددة الأغراض وفيها وثائق معجمية متميزة. ويقول مدير بعثة إبلا في هذا الصدد إن في إبلا قليلاً من النصوص الأدبية والأساطير والأناشيد الدينية، وأكثر منها النصوص المعجمية. والعديد من هذه النصوص هو عبارةعن قوائم تضم كلمات سومرية. لكن في بعضها شروح باللغة الإبلية(ماتييه ١٩٧٨ص٢٥).

إن كل النصوص المعجمية في إبلا وُجدت في النقطة الطبوغرافية (L.2764) وهي موضع صغير تحت الرواق في باحة القصر (G) أو (ساحة المدينة)(١٠). وهو مكان المحفوظات الملكية في المدينة. والنصوص المعجمية السومرية ذات اللغة الواحدة وردت على ٤٧ رقيماً جيدة الحفظ إجمالاً و٢٠٦ أجزاء رُقُم. والمجموع يعادل ما عُثر عليه في موقع "فارة" في العراق (مدينة شوروباك) وتلك الرُقُم مشابهة لأمثالها في الموقع المذكور وكذلك في موقع "أبو صلابيخ" (آركي ١٩٨٠ ص٨٢). وكلا الموقعين مر ذكرهما من قبل هذه الدراسة. هذا ويبلغ عدد النصوص المعجمية التي تشمل لغتين ٣٢ كاملة و٩١ جزءاً وبعض الشظايا. وبعضُ الرُقُم المعجمية يصل حجمه إلى ٢٤ × ٢٦ سم ويحمل على الوجه عشرة أعمدة ومثلها من الجهة الخلفية وترتيب الكلمات السومرية يتبع الأشكال المتشابهة (آركي ١٩٨٠ ص ٨٢). كما في الشكل التالي:



ويرى الأستاذ آركي أن هذا الترتيب غير معروف في موقعي "فارة" و"أبو صلابيخ". ولكن ثمة نصوص معجمية في إبلا تسير وفق النسق المعروف في ذينك الموقعين. ومن ذلك قوائم بأسماء المهن والطيور والأسماك وقوائم مفردات وأثبات جغرافية مماثلة لما يقابلها في موقع "أبو صلابيخ" (آركي ١٩٨٠ ص ٨٣).

أضافت إبلا لهذه السلاسل المعجمية التي كانت معروفة في التقاليد الرافدية أثباتاً بما يقابلها في اللغة الإبلية فكانت الشروح المذكورة تكتب في المربع التالي أو في المربع نفسه وفي عدد كثير من النصوص كان الشروح في زاوية المربع(١).



نماذج من رقم إيلا على هيئة رقيم معجمي ضخم.

وفي صدد المعاجم الجغرافية في إيلا يرى ألفونسو آركي، عضو اللجنة الدولية لدراسة نصوص إيلا (آركي ١٩٨٠ ص١ ومابعدها)، النظر إليها على مستويات أربعة نلخصها فيما يلي:

١-**المستوى الأول:** يشمل أسماء المدن في منطقة سومر (جنوب الرافدين) أو البلاد الأجنبية ذات الصلة بسومر. وقد انتقلت هذه الأسماء إلى إيلا عن طريق القوائم المعجمية السومرية. ومن هذا القبيل الرقيم (TM. 75. 1521) الذي نجد عليه أسماء ثلاث عشرة مدينة من مدن منطقة سومر وما حولها، مرتبة وفق النسق التالي: لاغاش، نيبرو(أي نيبور)، أداب، شوروباك، أمّا، عيلام، دلمون، غرسو.

٢- **المستوى الثاني:** يضم أسماء أمكنة في قائمة معجمية أخرى برقم (TM.75.6223) تماثل ماوجد في موقع أبو صلابيخ في العراق. وفيها أسماء مدن منتشرة من وسط ذلك القطر إلى الساحل السوري وبينها أوغاريت وأرواد ويبلغ مجموع الأسماء فيها مائتين وتسعة وثمانين.

٣- **المستوى الثالث:** مدن لها علاقة سياسية واقتصادية مع مملكة إيلا.

٤- **المستوى الرابع:** له علاقة بمدن في مملكة إيلا نفسها.

والمستويان الأخيران: ليس لهما، في رأينا، صفة معجمية لأنهما استُقيا من نصوص إدارية ومعاملات اقتصادية مختلفة. ولم يردا في جدول واحد.

أوغاريت مركز نشاط معجمي متميز:

في هذا القسم الأخير من بحثنا سنعرض للنشاط المعجمي في أوغاريت/ رأس الشمرة بصفتها المدينة السورية الأكثر نشاطاً وتألقاً في الميدان الثقافي وفي مجال الانفتاح الفكري، في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، والتي سهلت العلاقات الدولية على جميع الأصعدة عن طريق إنجازها الأعظم، ألا وهو وضع الأبجدية التي يدين العالم كله بها لأوغاريت.

لنرجع إلى المرحوم جبرائيل سعادة في مؤلفه المعروف عن أوغاريت. إذ يحدثنا باستفاضة عن أهمية الموروث المكتوب في أوغاريت وعن المكتبات والمحفوظات المكتشفة فيها فنقتبس منه بإيجاز بعض المذكور من الوثائق المعجمية. ومن ذلك العثور في "الأرشيف الجنوبي" من القصر الملكي على رقيم أدرجت عليه الأبجدية الأوغاريتية. وأمام كل حرف أوغاريتي العلامة المقطعية الأكادية التي تقابله لفظياً. وفي محفوظات بيت "رب آنو" (أو رف آنو) وُجد رقيم ضخم منقوش بخمسمائة سطر موزعة على ثمانية أعمدة. هذا الرقيم الضخم هو جزء من موسوعة متعددة الأغراض تجمع أسماء الأسماك والطيور والنباتات والمعادن والأنسجة والألبسة. ويضاف لهذا الثبت الموسوعي رُقُمٌ متعددة اللغات تضع الكلمات الأوغاريتية وما يقابلها في الأكادية والسومرية والحورية (سعادة ١٩٨٧ ص ١٨٣).

ومن محتويات المكتبة المعروفة باسم مكتبة "المثقف" وجد العديد من الوثائق المعجمية وجزء من موسوعة لم تنشر بعد. ومن الطرائف في تلك المكتبة مقاله عن "فن الكتابة" ومنها نسخة أكادية وأخرى سومرية. وقد حرر النص بشكل "استرحام" لرب غير معروف، لمصلحة تلميذ يدرس مهنة الكاتب. ويقول القسم الباقي من النص:

إلى الملك الرباني قل: هكذا يتكلم لوغا لبيلا كاهنك الموّلج بالتطهير. في مقامك السامي لاتكن غير مبالٍ... لا تنظر باللامبالاة إلى التلميذ الصغير الجالس أمامك. اكشف له عن كل سر في فن الكتابة... بيّن له الكتابة السرية. لقد زوّد هذا التلميذ الصغير بالقصبة المبريّة والجلد وبالشحم والطين الطري... لا تهمل إذن أي شيء له مساس بفن الكتابة (سعادة ١٩٧٨ ص ١٨٤).

ووفق أحدث الإحصاءات التي يقوم بها السيدان بوردروي وباردي(١٢)، حول الموروث الكتابي في أوغاريت، وذلك في مقر المتحف الوطني وبمساعدة أمناء المتحف المذكور، وجدت في أوغاريت حتى ١٩٩٧ كتابات بتسع لغات ومن ثم بتسع طرائق كتابية: أوغاريتية، أكادية، سومرية، حورية، هيروغليفية مصرية وهيروغليفية حثية ومقطعية حثية، وقبرصية مينوية وكذلك نص كنعاني متأخر (فينيقي). وعدا بعض الكتابات المصرية والنص الكنعاني المتأخر، فإن معظم الكتابات هي من نحو ١٤٠٠ قبل الميلاد وحتى ١١٨٦ ق.م تاريخ سقوط مدينة أوغاريت على يد شعوب البحر. وفي ما يخص اللغة الحثية ثمة رقيم واحد محرر بالحثية ونص أدبي ثلاثي اللغات (سومرية- أكادية- حثية). ووجد نص يتضمن أمثالاً وعظات بالأكادية والحثية. وفي مايتعلق بالكتابة التصويرية الحثية

(أي الهيروغليفية الحثية)، ليس هناك سوى بعض الأختام المنقوشة بتلك اللغة.وأخيراً هناك قائمة مفردات فيها أربعة أعمدة متقابلة بالترتيب التالي: سومرية أكادية حورية وأوغاريتية (ياردي ١٩٩٧ ص ٢٦٤) وما عدا ذلك من آلاف النصوص فإنها محررة بالأوغاريتية وتليها الأكادية.

إن التفاسير الكنعانية الأوغاريتية للنصوص الأكادية - البابلية في أوغاريت، وكذلك المعاجم المتعددة اللغات التي تضم عموداً باللغة الأوغاريتية، تهيء فرصة فريدة في تهجية الكلمات الأوغاريتية وتجويدها وتفسير العاملين لها في حقل الدراسات اللغوية الأوغاريتية، وكذلك في الدراسات المقارنة بين الكنعانية الأوغاريتية وشقيقتها العربية. ومن حيث تأثر اللغة الأوغاريتية بشقيقتها الأكادية البابلية يقول دومور إن النصوص الأكادية (البابلية) في أوغاريت دلّت على فائدة جمّة للباحثين. فإذا جمعت المفردات التي توجد في مجال دلالي واحد، في النصوص الأبجدية الأوغاريتية والنصوص المقطعية الأكادية، يتضح أن الكتّاب في أوغاريت استخدموا صيغاً واحدة في مجالات المجاملات وأسماء المهن والمؤسسات الاجتماعية والأدوات والمعدات والمنتجات والإجراءات القانونية الخ... وفي مثل تلك الحالات يمكن أن يسهل الأكادية تحديد معنى الكلمات الأوغاريتية (دومور ١٩٧٣ ص ١٠١).

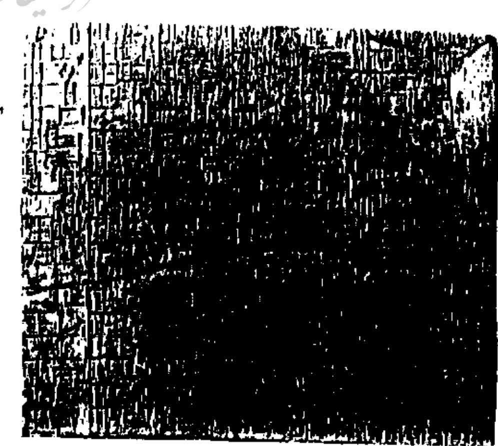
ونود أخيراً أن نعطي فكرة أولية عن النصوص المعجمية التي عثرنا عليها خلال أعمال التنقيب السورية الفرنسية المشتركة في رأس ابن هاني، الذي شُيّدت عليه مدينة أوغاريت الجديدة، نحو منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد (البني ولاغارس ١٩٩٨).

كانت دراسة النصوص المحررة بالمسمارية المقطعية (الأكادية البابلية) منوطة بعضو بعثتنا م.د.كينيدي، الذي ذكر في تقريره أن تلك النصوص، على قلتها النسبية، تمتاز بالتنوع. وبينها نصوص معجمية منها النص الذي يحمل الرقم (هاني ٩/٧٧) وهو محرر بالسومرية والأكادية البابلية ويشابه نصاً مماثلاً اكتشف في أوغاريت. ومضمونه ثبْتٌ بالخشب وأنواعه ويشبه المعروف في العراق. وثمة نص برقم (هاني ٢٤/٧٧) عليه أربعة أعمدة محرَّرة باللغة السومرية، اثنان منهما يُكمِلان المعروف في أوغاريت. وهو يشتمل على أسماء جغرافية على الأرض وأسماء جغرافية في السماء (أي الكواكب) وعدد تلك الكواكب يزيد على المعروف في نصوص العراق (لاغارس ١٩٧٨ ص ٥٧).

ومن النصوص المعجمية النص الذي يحمل الرقم (هاني ١٣/٧٨+ هاني ٣/٧٧) وهو بستة أعمدة. ولابد لاستكمال الصورة من ذكر النص رقمَ (هاني ٥/٧٧) الذي هو جزء من جدول تهجية نموذجي يُعرف بالمقطع Sa. وهذا الجزء يعطي المقاطع السومرية من رقم ١١(BU) إلى رقم ٢٧(ZI). وتكمن أهمية هذه النسخة في أن الجدول السومري فيها أمامه جدول آخر بما يقابله في الأكادية- البابلية.وثمة جدول ثالث باللغة الأوغاريتية. وذلك يماثل جزئياً الرقيم (رأس الشمرة ١٤٩/٢٠). (١٣) كما يشابه نصاً آخر غير منشور من أوغاريت أيضاً (البُني ١٩٧٩ ص ٢٩٠شكل ١١).



جزء من ثبت بأسم مفردات سومرية - أكادية (نسخها من العصر الفارسي محفوظة في المتحف البريطاني



ليس ماقدمناه سوى مدخل إلى موضوع المعجمية القديمة وعينات من عدد محدود من مواقعنا الحضارية تهدف لإثارة الاهتمام ولا تدّعي إيفاء الموضوع حقه أو بعض حقه. ونأمل من القارئ الكريم أن يتعامل مع هذا الجهد المُقِل في حدود ماذكرنا.

الهوامش والشروح

(١) اصطلح العاملون في حقل المسماريات على أن يكون نقل العلامات السومرية بالحرف اللاتيني الكبير والأكادية – البابلية بالحرف الصغير.

(٢) كانت العلامات التصويرية بالأصل تقرأ تباعاً من الأعلى إلى الأسفل مشكلة عموداً ويكون العمود الأول إلى يمين وتتبعه الأعمدة متتالية حتى تصل إلى يسار الرقيم ثم قلبت العلامة التصويرية ربع دائرة وأخذت تتابع العلامات أفقياً من يسار الكاتب إلى اليمين والصورة التي تمثل الإنسان أصبحت

(٣) تتعدد الآراء حول بداية السلالة الأكادية ومنتهاها وهناك تقدير متوسط مقبول اعتمدناه في دراستنا وتدريسنا هو ٢٣٦٠-٢١٨٠ قبل الميلاد. وقد دوّر هذا الرقم بحدود ٢٣٥٠-٢٤٠٠ قبل الميلاد في معرض "في سورية عند مطالع الكتابة"، الذي أقيم في بلجيكا عام ١٩٩٧. أما سرجون الأكادي فقد حكم بين ٢٢٣٥- ٢٢٨٠ في التقويم المتوسط.

(٤) منذ ١٩٩١ تنقب في تل بيدر في الجزيرة السورية بعثة أوروبية أضيفت لها بعثة سورية في ١٩٩٤، عثرت هذه البعثة المشتركة في محفوظات هامة على الرقم المسمارية معاصرة لمحفوظات إيلا (من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد) وشكل الرقُم مماثل لشكل رقُم إيلا ومحرر مثلها بالعلامات السومرية ولكن لغتها أقرب منها إلى الأكادية.

(٥) تقع نفّر على بعد ٧٥كم إلى الجنوب الشرقي من موقع مدينة بابل. نقبت فيها بعثة أمريكية من ١٨٨٨-١٩٠٠ ومن ثم في١٩٤٨، كانت مركزاً دينياً كبيراً. عثر في هذا الموقع على عشرات الآلاف من الرقم المسمارية التي يمتد تاريخها من زمن السومريين إلى عصر الفرس وفيها معاجم كثيرة لغوية وعلمية في المواضيع التي ذكرناها في متن البحث.

(٦) تقع في موقع يسمى أبو حبة على بعد نحو عشرين كم إلى الجنوب الغربي من بغداد.

(٧) موقع قريب من بغداد، نقبت فيه مديرية الآثار العراقية فعثرت فيه على نحو ثلاثة آلاف من الرقم الطينية من زمن الدولة البابلية القديمة دونت عليها نصوص بمختلف الأغراض ومنها مؤلفات (معاجم) في النبات والحيوان والأحجار (باقر ١٩٥٥ص٣١٣).

(٨) موقع فارة الذي يضم أوابد مدينة شوروباك التي كانت عاصمة سلالة التي يزعم أنه في زمنها حدث الطوفان وقد كشف فيها وفي موقع أبو صلابيخ رقم ترقى إلى نحو ٢٧٠٠/٢٦٠٠ قبل الميلاد بينها فئات من الرقم التي تمثل أقدم آثار الأدب السومري.

(٩) راجع ماقبله وقد وجدت البعثة الإنكليزية في موقع أبو صلابيخ مجموعة أقيات وأمثال وسجلات عن تاريخ قدامى الملوك.

(١٠) جرت بعثة إيلا على تسمية هذا الفناء باسم باحة القصر ويرى البعض أن هذا الفناء هو ساحة المدينة التي يطل عليها القصر الملكي، ولا يمكن البرهنة أثرياً على صحة أحد الرأيين نظراً لأن أشكال منحدر أكروبول المدينة أزال الشواهد اللازمة لمعرفة الحقيقة.

(١١) كل جملة في الرقيم الإبلي كانت تكتب ضمن مربع دون ترتيب في عناصر الجملة. والمربع الأول يكون في الزاوية العليا اليمنى للرقيم وتحته مربع آخروثالث ورابع إلى أسفل الرقيم ثم يبدأ صف المربعات التالي إلى أن نصل إلى الطرف الأخر.

(١٢) الأستاذ بوردروي هو عضو بعثتنا السورية الفرنسية التي تديرها في رأس ابن هانئ مع جاك لاغارس وزوجته. أما دنيس باردي فهو مشارك في بعثة رأس الشمرة، وهو ضليع بالأوغاريتية.

(١٣) منشور في مؤلف "أوغاريتيكا" رقم ٥ باريس ١٩٦٨ ص ٢٣٢.

جدول المختصرات

باقر طه ١٩٥٥ -

مقدمة في تاريخ الحضارة، القسم الأول، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٥٥

البُني ع ١٩٨١ -

البُني عدنان، الكتابة المسمارية وإبلا، مجلة التراث العربي، العدد الرابع، آذار ١٩٨١،ص ٢٢ - ٣٥

البُني ع ١٩٨٤ -

البُني عدنان، إبلا، من الألف إلى الياء، مجلة تاريخ العرب والعالم، العدد ٧٠،آب ١٩٨٤،ص ٧- ١٩

كلنغل هـ ١٩٩٨ -

كلنغل هـ ، تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠- ٣٠٠ ق.م، تعريب سيف الدين دياب، دمشق١٩٩٨.

آمييه ب ١٩٨٢ -

AMIET P. : "Préface", *Naissance de l'écriture*, Exposition organisée par la Réunion des Musées Nationaux, Paris, 1982.

آركي آ ١٩٨٠ (١) -

ARCHI A. : "Notes on Eblaïte Geography", *Studi Eblaïti*, II/1, 1980.

آركي آ ١٩٨٠ (٢) -

ARCHI A. : "Les textes lexicaux bilingues d'Ebla", *Studi Eblaiti*, II/6, 1980.

بوتيرو، ج ١٩٧٣ -

BOTTERO J. : "La lexicographie accadienne", *Studies on Semitic Lexicograpgy*, éd. P. Fronzaroli, Firenze, 1973.

البُني ع ١٩٧٩ -

LAGARCE J. et E. : "Découvertes archéologiques à Ras Ibn Hani", *CRAI*, 1979.

لاغارس، البني، صليبي بوردروي ١٩٨٧ -

LAGARCE J. & E., BOUNNI A., SALIBY N. et BORDREUIL P. : "Les fouilles de Ras Ibn Hani (Syrie) 1984 et 1986", *CRAI*, 1987.

ماتيه ب ١٩٧٨ -

MATTHIAE P. : "The Excavation at Tell Mardikh-Ebla and their Historical Value", ***Annali di Ebla***, Roma, 1978.

ماتيه ب ١٩٩٧ -

MATTHIAE P. : "Tell Mardikh, 1977-1996, vingt ans de fouilles et de découvertes", *Akkadica*, janvier-février, 1997, pp. 1-29.

باردي د ١٩٩٧ -

PARDEE D. : "Ugaritic Inscriptions", *Oxford Encyclopedia of Archaeology of Near East*, New York-Oxford, 1997.

سعادة جبرائيل ١٩٧٨ -

SAADE G. : *Ougarit, Métropole Cananéenne*, Beyrouth, 1979.

شماندت بيسرا ١٩٩٢ -

SCHMANDT-BESSERAT D. : *Before Writing*, Vol I, Austin, 1992.

سولبرجه إد ١٩٨٦ -

SOLLBERGER Ed. : *Administrative Texts Chiefly Concerning Textiles (L. 2752)*, (= Archivi Reali di Ebla, Testi - VIII), Roma, 1986.

المعاجم الطبية باللغة العربية

بقلم
أ.د. محمد زهير البابا

كانت ممارسة الطب في بلاد اليونان، منذ القرن الثامن قبل الميلاد، تحتكرها أسرة كهنوتية تنتمي إلى ملك قديم يدعى صيقلاب Essculape. ونظراً لما اشتهر به من براعة في شفاء المرضى فقد أنزله اليونانيون منزلة الآلهة. وأقاموا له معابد عرفت باسم اسكلبيون Asklepeion. وكان الكهنة من أفراد أسرته يقومون بخدمة المرضى، كما كانوا يعلمون أولادهم معالجة المرضى بطريقة المخاطبة بالإشارات، أما إذا اضطروا للتدوين فكانوا يلجؤون إلى الألغاز، حتى لايفهم أحد سواهم تشخيص الأمراض، وطرق المداواة، وتحضير العقاقير والأدوية.

بقيت هذه الأسرة مسيطرة ومنتشرة في أرجاء اليونان إلى أن ظهر منها رجل يدعى أبقراط Hippocrate ولد في جزيرة قو Cos نحو سنة ٤٦٠ ق.م، ومارس فيها الطب حتى توفي ٣٧٧ ق.م.

كان أبقراط طبيباً يتمتع بأخلاق عالية، وتضحية واستقامة، فأتاح الفرصة لتعلم الطب وممارسته، لكل من تتوافر لديه الصفات الضرورية، والتي يجب أن يتحلّى بها الطبيب، ويقول ابن أبي أصيبعة، في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أن أبقراط صنّف مانيف على ثلاثين كتاباً، إلا أن مايدرس منها، وهي ذات الأصل الصحيح والترتيب الجيد، هو اثناعشر كتاباً.

ومنذ القرن الثالث قبل الميلاد ظهرت في مدينة الاسكندرية مدرسة مشهورة بالطب، قامت بدراسة مايسمى بالمجموعة الأبقراطية، ووضعت مؤلفات فيها انتقادات وتعليقات على مؤلفات أبقراط، وشروح للمفردات والمصطلحات الواردة فيها. ولم يبق لنا من تلك المؤلفات إلا ماكتبه إروتيان Erotian، طبيب الامبراطور نيرون (ت ٦٨م)، وماكتبه جالينوس، طبيب الامبراطور مارك أوريل (ت ١٨٠م).

لقد قام الطبيب ماكس مايرهوف بتحقيق كتاب إروتيان ونشره ١٩١٨م، أما كتاب جالينوس وعنوانه: "كتاب جالينوس في الأسماء الطبية التي استعملها الأطباء، وعلى أي المعاني استعملوها"، فيقول العالم والمستشرق مانفريد أولمان، في كتابه "الطب في الإسلام"، إن الأصل اليوناني لكتاب

جالينوس مفقود، إلا أن حنين بن إسحاق أشار إليه في أحد مؤلفاته، وقال إنه يملك نسخة مخطوطة منه، وإنه ترجم ثلاثة أقسام منه إلى السريانية، وترجم ابن أخته حبيش القسم الأول منه إلى العربية. وهذا القسم يوجد منه نسخة مخطوطة، محفوظة في مكتبة ليدن، عثر عليها الدكتور مايرهوف، ونشرها أيضاً ١٩٢٦م.

وتقول الدكتورة غادة الكرمي، في معجمها "كتاب التنوير في الاصطلاحات الطبية" إن لجالينوس مؤلفاً آخر عنوانه: "في التعريفات الطبية"، يعطي توضيحات موجزة لمعاني المفردات الطبية، الشائعة الاستعمال في علم المداواة. وإن في طبعة كون Kuhn لمؤلفات جالينوس تعريفاً للأوزان والمكاييل.

لقد كان للعلماء والأطباء والمترجمين العرب والمسلمين الفضل في نشر وحفظ التراث العلمي لجميع الأمم ذات الحضارة القديمة، من هنود ويونان وفرس وسريان. ويقول أبو الريحان البيروني، في كتابه "الصيدنة في الطب"، في معرض حديثه عن المعاجم التي استفاد العرب منها: (وفي أيدي النصارى، ويعني السريان، كتاب يسمونه "بُشناق شماهي" أي تفسير الأسماء، ويُعرف أيضاً باسم "جهار نام" بمعنى أن كل واحد مما فيه (من المصطلحات) مسمّى بأربع لغات، وهي: الرومية (اليونانية) والسريانية والعربية والفارسية. وكنت وجدت له نسخة بالخط السوري، وليس فيه من الآفات المؤدية إلى التصحيف، فنقلت أكثر ما فيه).

ثم يقول : (ولهم كتب تسمى لكسيقونات Lexicons، تشتمل على غرائب اللغات، وتفسير المشكل منها.

وعندي لكسيقون لزيج بطليموس، مكتوب بالخط السرياني، ثم بعينه بالعربي مع تفسيره. وإليه أرجع في مطالبي. ووجدت من كل واحد من كتاب الحشائش (لديسقوريد)، المنسلك بتصاويره، وكناش أوريباسيوس، مكتوباً عند الأدوية أساميها بالخط اليوناني، فنقلتها منها.. ولو ظفرت بباقي الكتابين لتمّ الأمر).

لقد قام البيروني المتوفى نحو سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م، بتأليف كتاب الصيدنة في أواخر أيامه. وهو معجم مفسّر يضم أسماء العقاقير، أو الأدوية المفردة، بأسمائها باليونانية والهندية والفارسية والعربية، مرتبة حسب حروف المعجم، ويزيد عددها على (١٢٠٠) دواء.

ويصف البيروني في نهاية مقدمة كتابه، حالته الصحية وماكان يعانيه من عمله المرهق، والناتج من ضعف السمع والبصر. ولقد لقي المعونة من أبي حامد أحمد بن محمد النهشعي، الذي كان مميزاً باللغة، ومبرزاً بالطب، مطلعاً على كتب القدماء والمحدثين، ومتولياً العمل بالبيمارستان. وكان يأتي للبيروني بنماذج من تلك الأدوية. ليطلّع عليها فيصفها عن عيان.

من المعلوم أن الرازي توفي سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م، أي قبل وفاة البيروني بـ(١٢٦) سنة. وحينما استعرض البيروني في مقدمة كتاب (الصيدنة)، أسماء أصحاب المراجع العربية التي اعتمد عليها عند تأليف كتابه المذكور قال: (لقد كنت طالعت لأبي بكر الرازي كتابيه في الصيدلة والإبدال، ولكن

لم أفز منهما بالكفاية، فأضفت بعض مافيهما إلى ما اجتمع عندي...). ولكن بالحقيقة لايكوّن كتاب الصيدلة والإبدال إلا جزءاً من موسوعة الحاوي التي تتألف من (٢٣) جزءاً، منها ثلاثة أجزاء خصصها الرازي للكلام على الأدوية المفردة، وخصص كتاب الصيدلة للكلام على الأدوية المركبة.

بقي كتاب الحاوي على شكل أوراق متفرقة مودعة لدى شقيقة الرازي بعد وفاته. ولما كان الوزير محمد بن العميد (ت٣٦٠هـ/٩٧١م) محباً للعلم ومقدراً للعلماء، سعى للحصول على تلك الأوراق بعد بذل الأموال، ثم كلّف بعض تلاميذ الرازي القيام بتنسيقها وترتيبها ونسخها. ونظراً لخضامة هذه الموسوعة، وثمنها الباهظ، كانت النسخ المخطوطة من أجزائه نادرة الوجود، وموزعة في عدة مكتبات عالمية. وفي سنة ١٣٣٨هـ/١٩٥٨م استطاعت دولة الهند الحصول على أجزاء كتاب الحاوي كلها . ثم باشرت مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن طباعة العدد الأول، وانتهت من طبع الجزء الأخير سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

ومما لاشك فيه أن الفضل الأكبر، في إحياء التراث الطبي العربي القديم، يعود إلى الطبيب محمد بن زكريا الرازي، ذلك لأنه استطاع أن يجمع في كتابه "الحاوي" مقتطفات ومصطلحات من مؤلفات يونانية وفارسية وسريانية، بعد أن ترجمها إلى اللغة العربية، يوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق ومدرسته، إلى جانب المؤلفات الطبية والنباتية، التي ظهرت في صدر الدولتين الأموية والعباسية، ومنها كناش أهرن القس الذي ترجمه إلى العربية ماسرجويه الخوزي، وفردوس الحكمة الذي ألفه علي بن سهل رابن الطبري، وكتب النبات التي ألفها عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت٢١٦هـ/٨٣١م) وأبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م). ومن مميزات كتاب الحاوي أنه يضم عدة معاجم، فمنها معجم بأسماء الأمراض، ومعجم بأسماء الأدوية المركبة، ومعجم بأسماء الأدوية المفردة، ومعجم بأسماء الأطعمة والأشربة، ومعجم بأسماء الأوزان والمكاييل.

لقد صنف الرازي مجموعة كبيرة من المؤلفات في الطب والفلسفة والكيمياء، ومنها مؤلف في الطب متوسط الحجم عرف باسم كتاب المنصوري لأنه أهداه إلى المنصور بن إسحق بن أحمد بن أسد صاحب خراسان، وقال في مقدمته: "إني جامع في كتابي هذا جملاً وجوامع ونكتاً وعيوناً في صناعة الطب، متحرياً في ذلك الاختصار والإيجاز، وذاكراً فيه حفظ الصحة، ومعالجة الأمراض وتوابع ذلك.." وقام بتحقيق هذا الكتاب الدكتور حازم البكري الصديقي، ونشره معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

ونظراً للشهرة التي حظي بها هذا الكتاب أشار الأمير أبو زكريا يحيى بن أبي محمد، وهو أول ملوك الحفصيين في تونس (حكم من سنة ٦٢٥-٦٤٧هـ/ ١٢٢٨-١٢٤٩م)، إلى الشيخ الفقيه الحكيم أبي جعفر أحمد بن محمد بن الحشاء، بتأليف معجم يفسر فيه الألفاظ الطبية واللغوية الواقعة في كتاب المنصوري للرازي.

وقام بعد ذلك المستشرقان (كولان ورونو) بتحقيق نسخة مخطوطة من ذلك المعجم، الذي دعاه ابن الحشاء (مفيد العلوم ومبيد الهموم)، وطبعه معهد العلوم العليا المغربية برباط الفتح ١٩٤١م.

بيّن ابن الحشاء الطريقة التي سار عليها، عند وضعه هذا المعجم، فقال: "هذا تفسير الألفاظ الطبية واللغوية الواقعة في الكتاب المنصوري خاصة، وهي مبوبة على حروف المعجم، بحسب استعمال أهل بلاد المغرب لها. واعتمدت في كل لفظ على أول حرف منه خاصة، زائداً كان لوصل أو غيره أو أصلياً، سوى ماأذكره. من المعلوم أن الصواب، في وضع الألفاظ اللغوية، أن يُعتمد في تبويبها على الأصول دون الزوائد وهو الأكثر في استعمال اللغويين، ولكن لما كان الغرض في هذه المقالة تنبيه المبتدئ، وكان ذلك مما يعسر عليه بنيت الأبواب، التي تقع فيها الألفاظ، مزيدة في أولها.. إلا أنه لما كانت حروف المضارعة، وصيغة الأمر في الأفعال، مما يكثر تكرارها، وكان ردّ الأفعال إلى مصادرها مما لايعسر على المبتدئ، رددتها كلها إلى مصادرها...".

وبلغ عدد الألفاظ والمصطلحات الواردة في هذا المعجم (١٢٢٧) بين اسم وفعل وصفة...

علماء الكوفة والبصرة يضعون نواة المعاجم العلمية العربية:

وظهر في بلاد الرافدين، بين القرنين الثاني والخامس للهجرة، مجموعة من علماء اللغة العربية، وكان منهم الكوفيون ومنهم البصريون. وكان الكوفيون يحترمون كل ماسمع من كلام العرب، متى وثقوا من سماعه صحيحاً، ويستشهدون به. فعاب البصريون عليهم ذلك، ووصفوهم بعدم التقيّد بضوابط الدّقة والفصاحة.

أما البصرويون فكانوا أسبق من الكوفيين في جمع ألفاظ اللغة، ووضع قواعد لها، والحرص على تطبيقها. وكانوا يلجؤون في ذلك إلى المنطق والفلسفة، في حين أن قواعد اللغة ليست منطقية دائماً، لأن اللغة كائن حي، فهي وليدة البيئة التي تنشأ فيها.

- لقد اهتم هؤلاء العلماء بموضوع خلق الإنسان والحيوان، والحشرات والنبات. وكان من أوائل من كتب في "خلق الإنسان" النضر بن شميل (ت٢٠٣هـ/٨١٨م)، والأصمعي (ت٢١٣هـ/٢٢٨م)، وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، وأبو إسحاق الزجّاج (ت٣١٠هـ/٩٢٢م).. وكان آخر من كتب في هذا الموضوع جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، الذي استوعب الكثير مما صنّفه الأوائل، ووضع كتاباً دعاه "غاية الإحسان في خلق الإنسان".
- لم يبق من هذه المصنفات إلا القليل، وأولها "كتاب خلق الإنسان" للأصمعي. وهو يتألف من مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة. تكلم في مقدمته على الولادة والحمل والسن، ثم تناول الوصف العام للإنسان، وفصّل في أجزائه مبتدئاً بالرأس ومنتهياً بالقدم. وختم موضوعه بالكلام على الصفات الخَلقية والخُلقية للإنسان.
- وفي موسوعة "المخصّص لابن سيده" الأندلسي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، وفي السفر الثاني منها، بحوث كثيرة تتعلق بصفات أعضاء جسم الإنسان ووظائفه، وقد سار فيها على نهج الأصمعي.

أما ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) في كتابه "أدب الكاتب" فقد خصص فصلين للكلام على عيوب الإنسان وأمراضه، وبيّن الفروق بين المترادفات من الألفاظ والمصطلحات.

ومن المؤلفات القديمة المهمة، والتي كشف عنها الغطاء حديثاً، كتاب "خلق الإنسان لأبي إسحاق إبراهيم بن السّريّ الزجّاج". لقد قام بتحقيق نسخة مخطوطة من هذا الكتاب الدكتور والتدقيق فيها إبراهيم السامرائي، ونشره في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة (١٣٨٢هـ/١٩٦٣م).

ويقول الدكتور السامرائي إن الزجّاج استفاد من كتاب الأصمعي، كما استفاد من غيره. لكنه لم يهتم بالشواهد الشعرية الكثيرة كالأصمعي. وذكر الأبواب التي أغفلها الأصمعي في كتابه وهي: باب الأذن وصفاتها، وباب الأست، وباب الفرج. كما جاء بفوائد كثيرة لم تكن موجودة في كتاب الأصمعي.

علم النبات في خدمة الطب: كان أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) من أوائل من بحث في نباتات الجزيرة العربية ووصفها وصنّفها . لقد كان عشاباً ماهراً وعالماً بخواص نباتاتها المفيدة والضارة، والصالح منها لتغذية الإنسان والحيوان ومداواتهما. ألف كتاباً ضخماً في علم النبات، جمع فيه كل ماقيل عنها في مؤلفات من سبقه من علماء اللغة العربية، ومنهم أبو عمرو بن العلاء، وأبو زياد الكلابي، والأصمعي، والفرّاء، والكسائي، واللحياني وغيرهم، إضافة إلى ماورد على لسان الشعراء العرب ورواتهم. وكتابه موسوعة تتألف من ستة أجزاء، جعلها على شكل أبواب. وبيّن فيها علاقة النبات بالإنسان والحيوان.. ويقول عبد القادر البغدادي، في كتابه "خزانة الأدب" إنه رأى نسخة كاملة منه في ستة مجلدات كبيرة، ولكن المستشرق برنهارد ليفين يقول إنه لم يصل إلينا من ذلك الكتاب سوى الجزأين الثالث والخامس. لقد عثر هذا العالم على نسختين مخطوطتين، الأولى محفوظة في مكتبة جامعة يال Yale بالولايات المتحدة، وتضم الجزء الثالث من كتاب أبي حنيفة، والثانية محفوظة بمكتبة جامعة استامبول، وتضم قسماً من الجزء الخامس. ثم قام بعد ذلك بتحقيقهما ودراستهما، وأصدرهما في كتاب طبع سنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

يضم الكتاب الذي أنجزه المستشرق ليفن ثلاثة عشر باباً، وهي: باب الرعي والمراعي- باب الجراد- باب الكمأة- باب انصمغ- باب الدباغ- باب الزناد- باب الوان النيران- باب مايُصبغ به- باب الروائح- باب المساويك- باب الحبال- باب العسل والنحل- باب القِسيّ والسهام. وتتضح من عناوين هذه الأبواب الفوائد التي يمكن أن يحصل عليها، كل من الإنسان والحيوان، من عالم النبات.

لقد استفاد من كتاب أبي حنيفة كلّ من ألف في علم العقاقير، بدءاً من البيروني وانتهاءً بابن البيطار.

العصر الذهبي للطب العربي: امتد هذا العصر من القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر للميلاد، وظهر فيه مجموعة من الأطباء العرب والمستعربين، بحثوا وألفوا في جميع فروع الطب والصيدلة. ووضعوا موسوعات ظلت حتى عصر النهضة المراجع الأساسية لطلاب العلم. واشتهر

من هؤلاء: علي بن سهل رابن الطبري مؤلف كتاب فردوس الحكمة، وأبو بكر الرازي مؤلف كتاب الحاوي، وعلي بن العباس الأهوازي مؤلف كتاب كامل الصناعة، وأبو منصور القمري مؤلف كتاب غنى ومنى وكتاب التنوير في الاصطلاحات الطبية، والشيخ الرئيس ابن سينا مؤلف كتاب القانون. أما في المغرب العربي فقد اشتهر أبو القاسم الزهراوي صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وأبو مروان عبد الملك بن زهر مؤلف كتاب التيسير في المداواة والتدبير. وسنكتفي فيما يلي بالكلام على طبيبين من مشرق العالم العربي وطبيبين من مغربه.

أبو منصور القمري صاحب أول معجم طبي عربي: وهو طبيب من أهالي بخارى، يدعى أبو منصور الحسن بن نوح القمري والمتوفى نحو سنة (٣٩٠هـ/٩٩٩م). ذكره ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء فقال: "كان سيّد وقته، وأوحد زمانه، مشهوراً بالجودة في الصناعة الطبية، فاضلاً في أصولها وفروعها، جيد المداواة، متميزاً عند الملوك في زمانه. حدثني الإمام شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي أن الشيخ الرئيس ابن سينا كان قد لحق به وهو شيخ كبير، وكان يحضر مجلسه، ويلازم دروسه، وانتفع به في صناعة الطب". ثم قال:

ولأبي منصور القمري من الكتب كتاب "غنى ومنى"، وهو كناش حسن (أي كتاب موجز)، قد استقصى فيه ذكر الأمراض ومداواتها على أفضل مايكون. ولخص فيه جملاً من أقوال المتقنين لصناعة الطب، وخصوصاً ماذكره الرازي متفرقاً في كتبه".

ولكن الحقيقة أن هنالك كتاباً آخر ألفه أبو منصور القمري، عنوانه "التنوير في الاصطلاحات الطبية"، لم يذكره ابن أبي أصيبعة في كتابه. ولهذه الكتب عدد من النسخ المخطوطة موزعة في مكتبات العالم. وقد ذكر العالمان بروكلمان، وسزكين تسع نسخ مخطوطة منها، وهي تحمل عناوين مختلفة، منها: "مصطلحات في الطب"، "ورسالة في حدود الأمراض"...

كتاب التنوير معجم صغير الحجم، عدد المصطلحات فيه (٣٤٣) مصطلح، وهي موزعة على عشرة أبواب، وتضمّ الموضوعات الآتية:

الباب الأول: في أسامي العلل الحادثة من الرأس إلى القدم.

الباب الثاني: في أسامي العلل الحادثة في سطح البدن.

الباب الثالث: في أسامي الحميات وتوابعها.

الباب الرابع، في أسامي أعضاء البدن ومايجري مجراها.

الباب الخامس: في أسامي الطبائع ومافي معناها من ألفاظ.

الباب السادس: في أسامي الأشياء المستعملة في العلاج.

الباب السابع: في أسامي الأطعمة والأشربة.

الباب الثامن: في الألفاظ الواردة في الاقرباذينات.

الباب التاسع: في أسامي الأوزان والمكاييل.

الباب العاشر: في اتخاذ الأشياء التي لابد منها كل يوم.

لقد حقق كتاب التنوير ودرسه سيدتان، بصورة منفردة، وبآن واحد تقريباً وهما: الدكتورة غادة الكرمي والأستاذة وفاء تقي الدين. ونشرت الدكتورة الكرمي هذا الكتاب بعد تحقيقه عن طريق مكتب التربية العربي لدول الخليج بالرياض. ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق كتاب التنوير الذي حققته الأستاذة تقي الدين، وذلك في عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

وقام الأستاذ الدكتور نشأت الحمارنة بكتابة بحث دقيق عن المعجميات الطبية بين العامين (١٩٨٥-١٩٩١)م ونشره في عدة أجزاء من المجلدات (٦٠-٦٦) من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، وبين فيه تأثير كتاب التنوير في المؤلفات الطبية العربية، والتي ظهرت بعده، وهي:

١-*"كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم" لابن الحشاء.*

٢-*"كتاب حقائق أسرار الطب" للسجزي.*

٣- *"كتاب بحر الجواهر" لمحمد بن يوسف الهروي.*

٤- *"كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" لابن البيطار.*

٦- *"كتاب المعتمد في الأدوية المفردة" لابن رسول الغساني.*

كتاب القانون لابن سينا:

مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، ولد في قرية أفشنا بالقرب من بخارى في تركستان سنة (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م). له عدة مؤلفات في الطب والفلسفة ومختلف العلوم، ويعد كتابه "القانون في الطب" أشهر مؤلفاته على النطاقين العربي والأجنبي، واستمرت هذه الشهرة خلال فترة دامت أكثر من خمسة قرون. لقد حُقِّق هذا الكتاب وشُرِح وطُبع في الهند وطهران والقاهرة وروما، كما تُرجم إلى اللغتين اللاتينية والعبرية. وكان جيرار الكريموني أول من ترجمه إلى اللاتينية في مدينة طليطلة خلال القرن الثاني عشر للميلاد. وفي أوائل القرن السادس عشر قام المستشرق أندريا الباغو بإعادة ترجمته، بعد أن مكث في الشرق مدة ثلاثين سنة، تعلم خلالها اللغة العربية، فجاءت ترجمته أفضل مماسبقها، ثم قام بجمع المصطلحات العلمية، الواردة في القانون، وجعلها على شكل معجم طبع في عام ١٥٢٧م.

يتألف كتاب القانون من خمسة كتب أو أجزاء، تكلم ابن سينا في أولها على تعريف الطب وأغراضه، والأمزجة والاخلاط، وتشريح الجسم ووظائف الأعضاء. وخصص الكتاب الثاني للكلام على الأدوية المفردة، متجنباً ذكر ماكان عسر الوجود في الأسواق. وبلغ عددها (٧٥٠) عقاراً تقريباً، مرتّبة أسماؤها حسب حروف أبجد. وفي الكتاب الثالث عدّد الأمراض التي تصيب أعضاء الجسم، مع بيان أسبابها وأعراضها وعلاجها. وفي الكتاب الرابع بحث عن أنواع الحميات وطرائق معالجتها، وبحث آخر عن الجراحة الصغرى. أما الكتاب الخامس والأخير، فيُطلق عليه اسم أقرباذين

ابن سينا، لأنـه يضمّ أسماء الأدويـة المركبـة، وطرائـق تحضيرهـا، إضافـة إلـى الأوزان والمكـاييل المستعملة في البلاد العربية والإسلامية، وهي مقتبسة من كنّاش الساهر، وكنّاش يوحنا بن سرابيون.

لقد سعت الأستاذة وفاء تقي الدين، منذ عام (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) لجمع مصطلحات الصيدلة والعقاقير، وتفسيرها، والموجودة في كتاب القانون، لجعلها على شكل معجم. وبدأت بنشر مقدمة لهذا المعجم في الجزء الثاني من المجلد (٦٨) من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. وبيّنت في تلك المقدمة مميزات كتاب القانون وأجزاءه، ونسخه القديمة، المخطوطة والمطبوعة. واستعرضت أخيراً أهم المؤلفات الطبية والصيدلية التي استفاد منها ابن سينا عند تأليف كتابه، والمؤلفات المماثلة التي ظهرت بعده.

العصر الذهبي للطب العربي في بلاد المغرب والأندلس:

بدأ هذا العصر منذ القرن الثالث الهجري، الموافق للقرن العاشر للميلاد. ففي مدينة القيروان، وخلال حكم الأمراء الأغالبة ظهر ثلاثة أطباء مشهورون، وهم إسحاق بن عمران، وإسحاق بن سليمان، وأبو جعفر أحمد بن الجزار.. ولكل واحد من هؤلاء الأطباء مؤلف بالأدوية المفردة. وكان أجودها "كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة" لابن الجزار، وهو بمثابة معجم مرتب بأسماء تلك المواد. ولابن الجزار مؤلف آخر اسمه "كتاب البغية في الأدوية المركبة" سار في تأليفه على نسق أقرباذين ابن سينا، الموجود في الجزء الخامس من كتاب القانون.

أما في بلاد الأندلس، فقد بدأ العصر الذهبي للطب العربي خلال حكم الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م). وكانت مصادر علم الأطباء في ذلك العصر المؤلفات الطبية التي كانت ترد إليهم من دمشق وبغداد. وفي سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، وصل إلى قرطبة نسخة مخطوطة من كتاب ديسقوريدس باللغة اليونانية، هدية من امبراطور بيزنطة إلى الخليفة الناصر. وبما أنه لم يكن يوجد في قرطبة من يتقن تلك اللغة لذلك أرسل الخليفة رسالة إلى الامبراطور يطلب فيها إرسال ترجمان يحسن اللغتين اليونانية واللاتينية، فأرسل إليه الراهب نقولا سنة (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م).

التفّ حول نقولا مجموعة من الأطباء، وكان منهم من يعرف اللاتينية، فصار نقولا يخرج معهم إلى أطراف قرطبة تعرفوا عن كثب بعض نباتات ديسقوريد، كما عرفوا أسماءها باللغات اليونانية واللاتينية والعربية والبربرية. وهكذا نشأت في الأندلس مدرسة علماء النبات والأدوية المفردة. وكان من أوائل أعضائها الطبيب سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل، وهو الذي وضع كتاب "في تفسير أسماء الأدوية المفردة" كما يوجد له "مقالة في الأدوية المفردة التي لم يذكرها ديسقوريد". وكان آخر أفراد هذه المدرسة الصيدلي العشاب ضياء الدين ابن البيطار، الذي ألف كتاب "الجامع لمفردات

الأدوية والأغذية" وهو أكبر معجم في هذا المجال.

وإلى جانب هذه المؤلفات الطبية الهامة ظهر في الأندلس موسوعتان الأولى في مدينة الزهراء بالقرب من قرطبة، وهي من تأليف أبي القاسم الزهراوي (ت٤٠٤هـ/١٠١٣م) والثانية في إشبيلية وهي من تأليف أبي مروان عبد الملك بن زهر (ت٥٥٨هـ/١١٦٢م).

أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي:

وهو يعد من أكبر علماء الأندلس الذين أسهموا بتطوير علم الجراحة وصنعة الصيدلة. ألف كتاباً دعاه "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وانتهى منه أواخر القرن العاشر للميلاد. يشتمل هذا الكتاب على ثلاثين مقالة، تضم تقريباً علوم الطب المعروفة في ذلك الوقت. وكل مقالة فيه يمكن اعتبارها كتاباً مستقلاً، لضخامتها وتناسق موادها.

اتبع الزهراوي في المقالتين الأولى والثانية منهاج ابن سينا، المعاصر له، من حيث تقسيم الطب إلى ثلاثة أقسام: العلم بالأمور الطبيعية- العلم بأسباب الأمراض- العلم بعلاماتها ودلائلها. ثم الكلام على الأمراض التي تصيب جسم الإنسان، عضواً عضواً، ثم الأمراض التي تصيب الجسم كله وهي الحميات، مع الكلام على طرائق معالجتها.

أما في المقالات التي تلي ذلك فقد تكلم الزهراوي على الترياق، وعلى مختلف الأشكال الصيدلية المعروفة في زمنه، مع شرح أسمائها وطرائق تحضيرها. وأخيراً قام بتقسيم الأدوية إلى زمر بحسب تأثيرها الدوائي.

ويستدل القارئ لهذه المقالات على أن الزهراوي لم يكن ناقلاً ومقتبساً لعلوم الصيدلة، بل كان ممارساً لتحضير الأدوية ومتقناً لصناعتها. فقد وصف قالباً من الخشب فيه ثقوب أسطوانية الشكل تملأ بالمساحيق بعد مزجها، ثم تضغط بمكبس فتخرج على هيئة أقراص.

قسم الزهراوي المقالة الثامنة والعشرين إلى ثلاثة أبواب وهي:

الباب الأول: في تدابير الأحجار المعدنية، من غسل وتكليس وإحراق. كما ذكر صفات بعض المعادن وأكاسيدها.

الباب الثاني: في تحضير العقاقير النباتية، من جمع وتجفيف وادخار، وعصر وتلبيب. كما تكلم عن الزيوت واللعابات.

الباب الثالث: عدد فيه أسماء بعض العقاقير ذات المنشأ الحيواني، وذكر طرائق تحضيرها وحفظها.

حازت هذه المقالة شهرة واسعة في أوربا، فترجمت إلى اللاتينية تحت اسم كتاب التدبير Liber

Servitoris وطبعت في مدينة لندن ١٤٧١م، وأصبحت النواة الأولى لعلمي الكيمياء والصيدلة والعقاقير.

وقسم الزهراوي المقالة التاسعة والعشرين إلى خمسة أبواب، تكلم في الباب الأول على أسماء العقاقير النباتية بخمس لغات هي: العربية واليونانية والسريانية والفارسية والبربرية، وجعلها على شكل معجم.

وفي الباب الثاني ذكر الأدوات والأجهزة التي يستعملها الصيدلي في صيدلته أو معمله. ومنها الأنبيق والأثال، والفرن المنقلب اللهب والقناطير وغيرها.. ووصف العقاقير النباتية في الباب الثاني، وذكر منشأها، وبديل كل عقار يتعذّر وجوده بالأسواق. وفي الباب الرابع تكلم على أعمار الأدوية المفردة والمركبة، أي مدة حفظها، ومنشئها ومصدرها الجغرافي. وخصّص الباب الأخير للكلام على الأوزان والمكاييل، وأسمائها أو نسبة بعضها إلى بعض واستعمالها. وتعدّ المقالة الثلاثون من أشهر مقالاته، وهي تضم بحثاً مستفيضاً بالجراحة، إضافة إلى تسع لوحات رسمت فيها بدقة الأدوات الجراحية المستعملة في مختلف العمليات الجراحية وعددها (١٧٠) أداة.

أبو مروان عبد الملك بن زهر الإيادي: وهو أحد أفراد أسرة اشتهرت بممارسة الطب، وخاصة بالتوليد وأمراض النساء. عمل طبيباً خاصاً للملك أبي محمد عبد المؤمن، مؤسس دولة الموحدين. له مؤلفات عديدة من أشهرها "كتاب التيسير في المداواة والتدبير". ونظراً للشهرة التي نالها هذا الكتاب فقد ترجم إلى اللغة العبرية ثم اللاتينية، تحت اسم Facili Adjumentum، وكانت آخر طبعة له ١٥٧٤م.قام بتحقيق هذا الكتاب المرحوم الدكتور ميشيل الخوري، الأستاذ في المعهد الطبي العربي بدمشق. وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بنشره ١٩٨٣م يتألف كتاب التيسير من جزأين، تكلم ابن زهر في أولهما عن حفظ الصحة، ثم بدأ بذكر علاج أمراض الرأس والصدر والبطن.

أما الجزء الثاني فخصصه للكلام على أمراض أسفل البطن، وختمه بذكر الحميّات والبحاري والأمراض الوبائية وعلاجها.

وبما أن المرحوم الأستاذ الخوري قد توفي قبل أن ينجز طبع هذا الكتاب، لذلك تولى الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي مراجعة الكتاب على أصوله، ووضع بعض الحواشي له. كما قام الأستاذ الدكتور مختار هاشم بوضع جدولين في نهاية الكتاب، يضم الأول المصطلحات الطبية الواردة في الكتاب، ويضم الثاني مفردات الأدوية والأغذية الواردة فيه.

خمود نشاط التأليف في علوم الطب والصيدلة وأسبابه:

مرت على البلاد العربية الإسلامية مجموعة من الكوارث البشرية والحضارية والبيئية، منذ

القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد، فأدت إلى انحطاط مختلف العلوم، بمافيها علوم الطب والصيدلة. لقد بدأ الصليبيون حملتهم الأولى على بلاد الشام في عام (٤٩٠هـ/١٠٩٦م)، فاستولوا على إنطاكية والرها والمعرّة. ثم تابعوا سيرهم فاستولوا على القدس بعد عامين.

وقد ساعد على سرعة تقدم تلك الحملة عدم التعاون بين السلاجقة الحاكمين في سورية مع الفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر في ذلك الحين.

كان عماد الدين زنكي أميراً على الموصل، فهب لنجدة أهل الشام، فدخل حلب سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م)، ثم غزا اللاذقية واستعاد الرها. لكنّ أتباعه قتلوه في قلعة جعبر سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م)، وكان ابنه نور الدين إلى جانبه فأخذ خاتمه وتوجه إلى حلب فملكها، كما توجه أخوه سيف الدين غازي إلى الموصل فملكها أيضاً.

كان نور الدين قد أسر بنفسه أحد ملوك الفرنج، فاستشار أمراء الجيش بقتله، أو بقبول الفدية، ولما اختلف الأمراء في الرأي، استحسن نور الدين قبول الفدية، فأخذها وبنى بها البيمارستان الكبير بدمشق، وذلك سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م). واشترط أن تكون الخدمات فيه مقصورة على الفقراء والمساكين، دون النظر لديانتهم. أما الأدوية التي يعزّ وجودها في الأسواق، فلايمنع من أخذها من يحتاج إليها غنياً كان أو فقيراً.

كان البيمارستان النوري منذ إنشائه مقراً لتعليم الطب وممارسته. وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" أسماء عدد كبير من الأطباء الذين عملوا فيهن وسيرتهم كان منهم الرئيس مهذب الدين الدخوار، وتلميذه موفق الدين ابن أبي أصيبعة، صاحب كتاب الطبقات. وكان أكثر أولئك الأطباء من البارزين في ممارسة الطب، ولكن لم تكن لهم مؤلفات تضم إنجازات قيمة في هذا العلم، باستثناء علاء الدين بن النفيس، الذي صنف عدة مؤلفات منها. كتاب المهذّب في الكحل المجرّب، كتاب الموجز في الطب، كتاب شرح تشريح القانون، وقد سجل فيه أعظم اكتشاف طبي عربي، وهو وصف الدورة الدموية الصغرى.

لقد عانت البلاد العربية والإسلامية خلال الحروب الصليبية كثيراً من الويلات، فأدى ذلك إلى انتشار الفقر والجهل والمرض.. وظهر عجز الطب التقليدي في علاج كثير من الأمراض، واختفت العقاقير الثمينة المستوردة فارتفعت أثمانها وعزّ وجودها، لهذا اضطر كثير من المرضى إلى اللجوء إلى المنجمين والمشعوذين ليعالجوهم بالتعاويذ والرقى والحجب، لذلك سعى الطبيب داود الأنطاكي في بعض مؤلفاته إلى الجمع بين الطب التقليدي الذي أرسى دعائمه أبو بكر الرازي وابن سينا، وبين الطب الشعبي. وكان ذلك من الأسباب التي دعت أعداءه من المتزمتين لذمّه والطعن في عقيدته.

احتل الطبيب المصري داود عمر الأنطاكي الضرير، المتوفى في مكة سنة (١٠٠٨هـ /١٥٩٩م) مكانة مرموقة في القطرين المصري والسوري، خلال الحكم العثماني، تكلم عنه المؤرخ محمد أمين المحبيّ الدمشقي، في كتابه "خلاصة الأثر في تراجم أهل القرن الحادي عشر" فقال: (هو الحكيم والطبيب المشهور، رأس الأطباء في زمانه، وشيخ العلوم الحكيمة، وأعجوبة الدهر".

صنّف داود الانطاكي مجموعة من المؤلفات الطبية أشهرها "تذكرة أولي الألباب والجامع للعجيب العجاب". وهي تعدّ من الموسوعات الطبية العربية التي كانت ولم تزل من أهم المراجع التي يعتمد عليها عند ممارسة الطب الشعبي، لذلك يطلق عليها اسم تذكرة العطارين. وهي تتألف من مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة.

تكلم في المقدمة على العلوم بصورة عامة، وعلى مكانتها وصلتها بعلم الطب، والصفات التي يجب أن تتوافر في من يرغب أن يمارس مهنة الطب. وتكلم في الباب الأول على كليات هذا العلم والمدخل إليه.

وفي الباب الثاني بحث في المعالجة بالأدوية المفردة والأدوية المركبة. وتكلم في الباب الثالث على طرائق تحضير العقاقير ونوعية تأثيرها ودرجاته، ومايتعلق بها من اسم وماهية ونفع وضرر، ومقدار وبديل. وعدد أسماء مايزيد على عشرين عالماً وطبيباً، ممن اشتهرت مؤلفاتهم بعلم العقاقير، وكان آخرهم رشيد الدين الصوري. ومن المستغرب أنه لم يتعرض لذكر ضياء الدين بن البيطار، ولم يبين فضله في هذا المجال، علماً أن أكثر ماورد في كتابه قد سبق ذكره في كتاب "الجامع لمفردات الأغذية والأدوية" لابن البيطار. وفي الباب الرابع تكلم داود الأنطاكي على الأمراض وعلى أسبابها وأعراضها وطرائق معالجتها. وخصص الخاتمة للكلام على نكت وغرائب وقصص عجيبة.

مما لاشك فيه أن الباب الثالث من تذكرة داود يعد أهم أبوابها، ذلك لأنه يضم مالا يقل عن (١٧٠٠) موضوع عن الأدوية المفردة والمركبة. وتكلم الأنطاكي في هذا الباب، ولأول مرة، على نبات البن، الذي ظهر في اليمن خلال القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد، فقال: شجرة البن يُغرس حبّها في شهر آذار، وينمو ويقطف في آب، يطول ساقه نحو ثلاثة أذرع، وهو في غلظ الإبهام. له زهر أبيض، يخلف ثمراً كالبندق، وربما تفلطح كبذرة الباقلاء. إذا قشر انقسمت بذرته إلى نصفين. أجوده الرزين الأصفر، وأردؤه الأسود. جُرّب لتجفيف الرطوبات والسعال البلغمي والنزلات وإدرار البول. يجلب الصداع، ويُهزل ويُورث السهر.

لقد طبعت تذكرة داود الأنطاكي عدة مرات. وفي آخر كل طبعة يوجد قسم من الكتاب أطلق عليه اسم ذيل التذكرة، وهو غير موجود في المخطوطات القديمة. ويشكل بعدد أوراقه ثلث حجم الكتاب الأصلي. ويقال إن أحد تلامذة المؤلف قد قام بتأليفه. ويوجد في ذيل التذكرة بحوث تتعلق بالعلوم الخفية وهي: دعوة الكواكب والتنجيم، علم الحرف، السيمياء، ماوراء الطبيعة، التعافين، النيرنجات، الأوفاق، الرقى...

المعاجم الطبية في العصر الحديث: ظهر في أوربا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد تيارات أدبية وفنية وعلمية، وكان لها تأثير عميق في المجتمع الأوربي وأدت لما يسمى بعصر النهضة. ولم ينج من تلك التيارات علم الطب التقليدي، الذي استمد أصوله من المؤلفات العربية التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية، منذ أوائل القرن الحادي عشر. ويعد الطبيب السويسري

باراسلز Paracelse حامل لواء هذا التيار.

كان باراسلز أستاذاً للطب والكيمياء في جامعة بال بسويسرا. وخلال أحد الأعياد الدينية وقف أمام باب الجامعة وطلب من تلامذته أن يأتوا بما لديهم من كتب الطب والكيمياء، فضمها إلى كتاب القانون لابن سينا ورمى بها إلى النار قائلاً: أنت يا ابن سينا وأنتما يارازي ويا جالينوس، وأنتم أيها العرب والأغريق، ليس علماً ماكتبتموه، وليس علماً ماابتدعتموه.

ألف باراسلز (المتوفى ١٥١١)، كتاباً عنوانه "الطب الجديد الكيميائي" اعتمد فيه على معالجة الأمراض بالمواد الكيميائية. بينما اعتمد الطب التقليدي، الذي نشره الأطباء العرب والمسلمون، على المداواة بالنباتات الطبية بصورة خاصة.

كان باراسلز يعتقد بأن على الطبيب أن يكون على علم بتأثير الكواكب في جسم الإنسان، فهنالك سبعة كواكب تؤثر طوالعها على أجهزة جسم الإنسان، فكل كوكب يساعد على تشخيص ومعالجته، العضو الذي ينتمي إليه، فالشمس تؤثر القلب، والقمر بالدماغ، والزهرة بأجهزة التناسل، والمريخ بالمرارة وعطارد بالرئة وزحل بالطحال والمشتري بالكبد. أما العناصر المعدنية وأملاحها التي تفيد في معالجة تلك الأمراض فهي: الذهب للقلب، والفضة للدماغ، والنحاس للزهرة، والحديد للمرارة، والزئبق للرئة، والرصاص للطحال، والقصدير للكبد.

لقد افترض باراسلز وجود عنصر خامس، إضافة إلى العناصر الأربعة التي يتألف منها الكون هي: الماء والهواء والتراب والنار، ودعا ذلك العنصر بالروح الخامس وهو جسم طيار، موجود بجميع العناصر، وإليه يعزى التأثير الدوائي. وللحصول عليه لابد من تقطيرها، وجمع السائل المتقطر، وهو المستعمل بالمداواة.

ظهر بعد باراسلز بضعة أطباء ألمان وسويسريون، اعتنقوا آراءه ووضعوا مؤلفات طبية وأقرباذينات باللغة اللاتينية. ومن أشهرهم كرولليوس المتوفى سنة ١٦٠٩م/ ١٠١٨هـ)، وقد ألف كتاب الكيمياء الملكية Chimica Basilica، ودانييل سينارتوس المتوفى سنة ١٦٣٧م ،١٠٤٧هـ، وهو مؤلف كتاب الممارسة الطبية Practica medicinne.

الطبيب صالح بن سلوم الحلبي يترجم ويشرح مؤلفات باراسلز وأقرانه:

كان الطبيب صالح بن سلوم الحلبي أحد أعلام الطب في مدينة حلب. ففيها تعلم الطب وأتقن ممارسته، وفيها تولى مشيخة الأطباء. ونظراً للشهرة التي حازها، فقد استدعي للعمل في اسطمبول، حيث عمل طبيباً خاصاً للسلطان محمد بن إبراهيم خان، ورئيساً لأطباء المملكة العثمانية سنة (١٦٥٦م ،١٠٦٧هـ).

لقد تعلم ابن سلوم اللغة اللاتينية، كما يرجح منذ ما كان في مدينة حلب. ذلك لأن هذه المدينة

كانت منذ القديم المركز التجاري الرئيسي لبلاد الشام. وكانت تقطن فيها جاليات أجنبية تتعاطى التجارة الخارجية، كما كانت فيها قنصليات لبعض البلاد الأوربية، وارساليات تبشيرية منذ أوائل العهد العثماني. وهذا ما ساعد ابن سلوم على متابعة التيار الطبي الجديد، الذي جاء به باراسلز وأقرانه، والمتعلق بالمداواة بالمركبات الكيميائية المعدنية، فقام بترجمة وتصنيفهما:

الأول: دعاه "الطب الجديد الكيميائي"، ولخص فيه نظريات باراسلز في علم المداواة الجديد.

والثاني: دعاه "الكيمياء الملكية" وهو ترجمة كتاب أشعالد كرولليوس الذي مرّ ذكره.

ومما ألفه ابن سلوم أيضاً في العلوم الطبية كتابان أحدهما باللغة العربية وعنوانه "غاية الاتقان في تدبير بدن الإنسان" ويوجد نسخة مخطوطة منه محفوظة في مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب (رقمها ١٢٨٢ احمدية).

والكتاب الثاني ألفه باللغة التركية، وعنوانه "غاية البيان في تدبير بدن الإنسان" وقد قام بترجمته إلى العربية محمد بن شريف الحلبي. وفي المكتبة الظاهرية بدمشق أربع نسخ مخطوطة منه، اثنتان باللغة التركية، واثنتان بالعربية. والنسختان الأخيرتان بخط المترجم. ويعود تاريخ النسخ لعام ١٢٥٩هـ للأولى، و١٢٦٢هـ للثانية.

كتاب غاية الاتقان في تدبير بدن الإنسان:

قام بتحقيق هذا المخطوط ودراسته الدكتور محمد كمال شحادة، الأستاذ المحاضر في معهد التراث العلمي العربي بحلب. ويعود إليه الفضل في الكشف عن مؤلفات صالح بن سلوم الحلبي وترجماته، في دراساته لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ الطب العربي.

يتألف كتاب غاية الاتقان من أربع مقالات وهي:

المقالة الأولى: في الأمراض الحادثة من الفرق إلى القدم.

المقالة الثانية: في الأمراض التي لاتختص بعضو دون عضو، وهي الحمّيات.

المقالة الثالثة: في العلل الظاهرة على سطح البدن.

المقالة الرابعة: في السموم ونهش الحيوانات السامة.

وفي هذا المخطوط ملحق يتضمن كتابين: الأول الطب الجديد الكيميائي الذي ابتدعه باراسلز، والثاني كتاب الكيمياء الملكية لكروللبوس.

عدد صفحات المخطوط مع الملحق (٧٤٣) صفحة، قياس (١٦×٢٥سم)، وعدد الأسطر (٢٩) سطراً.

يمتاز كتاب غاية الاتقان بوجود عدد كبير من أسماء الأمراض، وأسبابها وأعراضها وطرائق معالجتها، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من الوصفات الطبية وطرائق تحضيرها، مما يجعله أشبه

مايكون بمعجم طبي وأقرباذين صيدلاني.

من الملاحظ أن الطبيب صالح بن سلوم قد سعى، عند تأليف كتاب غاية الاتقان، للجمع بين طرائق المداواة التقليدية التي عرفها ومارسها الأطباء العرب والمسلمون، وبين الطب الكيميائي الجديد، الذي جاء به الطبيب السويسري باراسلز وأنصار مدرسته من الأطباء الألمان.

فمن الأدوية الكيميائية التي أتي على ذكرها في كتابه (ملح الطرطر) وقد استعمله للتليين والتبريد، كما ذكر الزاج الأبيض وهو (كبريتات التوتيا)، استعملها ممزوجة بالسمن كمادة مقيئة، تخلص الجسم من الخلط المتعفن الذي يصادف في المعدة والكبد. واستعمل الإثمد وهو (كبريت الانتموان) كمادة معرّقة.

ويعود الفضل لصالح بن سلوم في الكشف عن تاريخ ظهور الداء الافرنجي (السفلس)، الذي ظهر لأول مرة في إسبانيا عام (٩٠٤هـ ١٤٩٨) عقب عودة الحملة التي أرسلها ملك إسبانيا إلى بلاد العالم الجديد (أمريكا)، فعاد منها جنوده وهم مصابون بهذا المرض الجنسي. ولعلاج هذا الداء الخبيث يلجأ ابن سلوم لتنقية البدن بالفصد والاستفراغ، ويعطي المريض قليلاً من الزئبق بشكل حبوب أو دهون. أويعالج بأبخرة الزئبق الناتجة من تسخين مزيج من مسحوق الزنجفر (كبريت الزئبق) مع صمغ البطم والكندر والمصطكي، في حيز مغلق صباحاً ومساءً، بعيداً عن أنف المريض.

كتاب قاموس الأطباء وناموس الألبا:

وهو من تصنيف مدين بن عبد الرحمن القوصوني، الطبيب والأديب والمؤرخ المصري. ولد وعاش وتلقى العلم بالقاهرة، وأخذ الطب عن الشيخ داود الأنطاكي، ولما برع بممارسة الطب واشتهر أمره ولي مشيخة الطب بمصر بعد السريّ أحمد، الشهير بابن الصائغ، والمتوفى سنة (١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م).

صنف الطبيب مدين القوصوني عدة مؤلفات، وهي تنمّ عن ميوله الأدبية والتاريخية والطبية. ويعد كتابه قاموس الأطباء وقاموس الألبا أجود مؤلفاته وأشهرها . وموضوعه الأمراض: شرح أسمائها، وطرق معالجتها بالأدوية المفردة والمركبة وبأنواع الأغذية. وقد فرغ من تأليفه في شهر ربيع الأخر ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م).

يتألف هذا الكتاب من جزأين، يوجد نسخة مخطوطة حسنيي، ومحفوظة من كل منهمافي المكتبة الظاهرية بدمشق.وقد قام مجمع اللغة العربية بدمشق بين عامي ١٩٧٩-١٩٨٠ بتصوير هاتين المخطوطتين وطبعهما بطريقة الأوفست. كما قام المرحوم الدكتور حسني سبح، رئيس المجمع بوضع مقدمة له. وكان من جملة ماقاله: إن هذا الكتاب لم ينج من شوائب التصحيف والتحريف، إلا أن جل ذلك مما لا يتعذر على القارئ المتدبر أن يهتدي إلى وجه الصواب فيه. ولكن أخطر من ذلك أن الناسخ سها فيما يظهر فأسقط بعض الأبواب والفصول، وطائفة من المفردات...

رتب القوصوني معجمه حسب ترتيب القاموس المحيط، فجعله أبواباً، وقسم كل باب إلى فصول. ورتب المفردات بحسب الحرف الأخير من أسماء الأبواب، وبحسب الحرف الأول من أسماء الفصول. ويضم هذا المعجم بجزأيه مالا يقل عن ألفي مدخل كتبت باللون الأحمر. وكل مدخل يدل على اسم دواء مفرد من أصل حيواني أو نباتي أو معدني، مع ذكر صفاته وتأثيراته الدوائية، والأدوية المركبة منه، يضاف إلى ذلك أسماء أعضاء جسم الإنسان وماتصاب به من أمراض. وكانت أهم مراجعه: معجم تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، كتاب العين للخليل بن أحمد، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار.

معجم الشذور الذهبية في الصناعة الطبية:

كان الطبيب الفرنسي الدكتور أنطوان برتلمي كلوت قد عينه الخديوي محمد علي الكبير سنة (١٨٢٥م/ ١٢٥١هـ) مديراً للشؤون الطبية، ورئيساً للمشفى العسكري في أبي زعبل بمصر فسعى لتحويل المشفى المذكور إلى مدرسة طبية لتعليم أبناء القطر المصري، وذلك بالاستعانة بأساتذة فرنسيين. وكانت أكبر صعوبة واجهته هي تأمين التفاهم بين الأساتذة الذين يجهلون اللغة العربية والطلاب الذين يجهلون الفرنسية.

فاستعان الدكتور ببعض المثقفين المسيحيين، ممن كانوا يحسنون العربية والفرنسية، وتم تعيينهم بصفة مترجمين، مع التزامهم دارسة الطب على نحو نظامي، ليكونوا أكثر قدرة على فهم المصطلحات الفرنسية ومعرفة مايقابلها باللغة العربية. وكان الأستاذ الفرنسي يملي دروسه على الطلاب بوساطة المترجمين الذين كانوا يهيئون المحاضرة وترجمتها قبل ذلك. مكث الدكتور كلوت في مصر عام (١٨٦٠م/ ١٢٧٧هـ)، وقد سعى خلال تلك المدة لإيفاد بعثات من الطلاب المتخرجين في المدرسة الطبية للتخصص في فرنسا. وكانت أولى تلك البعثات التي أوفدها محمد علي باشا سنة (١٨٣٢م/ ١٢٤٨هـ) وبعد ثلاث سنوات دراسية عاد أكثر الموفدين وتم تعيينهم في هيئة التدريس بمدرسة الطب بمصر، وبما أن التعليم في تلك المدرسة استمر باللغة العربية لذلك كان على كل فرد من أعضاء تلك الهيئة أن يسعى لترجمة أحد المؤلفات الفرنسية المتعلقة باختصاصه.

لقد ظهر في ذلك الوقت في فرنسا معجم طبي موسّع عنوانه قاموس القواميس الطبية وهو يشمل المصطلحات الطبية إلى جانب مصطلحات العلوم الأخرى موزعة في ثمانية أجزاء. قام بتأليفه العالم الفرنسي فابر Fabere، وجلب كلوت نسخة منه إلى مصر، فتعاونت هيئة التدريس في مدرسة الطب على ترجمة هذا المعجم إلى اللغة العربية تحت إشراف الدكتور بيرون، أستاذ الكيمياء، والذي كان يتقن تلك اللغة. كما كلف بعض علماء الأزهر، ومنهم الشيخ عمر التونسي، استخراج المصطلحات الطبية، وتعريفها وشروحها، والمنتشرة في أمهات كتب الطب العربي، ومنها القانون لابن سينا، وكامل الصناعة للمجوسي، والتذكرة لداود الأنطاكي. وتم إنجاز ترجمة هذا المعجم سنة (١٨٤٩م/ ١٢٦٦هـ).

بقي هذا المعجم محفوظاً في الخزائن حتى سنة (١٩١٠م/ ١٣٢٨هـ). وفي ذلك العام كلفت نظارة المعارف المصرية كلاً من الدكتور أحمد عيسى والدكتور فارس نمر الإشراف على طبعه. ولكن هذا العمل لم يتم بسبب تحول تدريس العلوم في مصر من اللغة الفرنسية إلى اللغة الانكليزية، وذلك عام (١٨٩٧م/ ١٣١٥هـ).

ترجمة معجم كليرفيل الفرنسي للمصطلحات الطبية:

في عام (١٩٠٣م/ ١٣٢١هـ) تأسست في دمشق أيام الحكم العثماني مدرسة لتدريس علوم الطب باللغة العثمانية. وكانت الحكمة من إنشائها الوقوف في وجه المدرستين الطبيتين اللتين أنشئتا في بيروت، وهما الكلية الأميركية البروتستانتية (١٨٦٦م/ ١٢٨٣هـ) والكلية الفرنسية اليسوعية سنة (١٨٨٣م/ ١٣٠١هـ). وهناك سبب آخر لإنشاء هذه المدرسة وهو أن الدولة العثمانية قد كلفت أمر اللواء خير الدين باشا وضع دراسة عن الأوضاع والحاجات الصحية للمنطقة التي تقرر أن يمر فيها الخط الحديدي الحجازي. وكان في نص تقريره أن تلك المنطقة بحاجة إلى مراكز صحية وإلى أطباء، ومن المستحسن أن يكون هؤلاء الأطباء من أهل تلك المنطقة.

معجم المصطلحات الطبية لكفرفيل:

في عام (١٩٠٣م/ ١٣٢١هـ) أنشئت في مدينة دمشق مدرسة للطب والصيدلة، بقرار من السلطان عبد الحميد الثاني. وكان مقرّها في قصر زيور باشا، الكائن في منتصف شارع الصالحية. أما لغة التدريس فيه فكانت اللغة العثمانية. وهذه اللغة هي مزيج من اللغة التركية والمصطلحات الطبية العربية، أما الكتابة فكانت بالحروف العربية.

وحينما انتهت الحرب العالمية الأولى تألفت في سورية أول حكومة عربية برئاسة الأمير فيصل بن الحسين. وفي عام ١٩١٩ صدر قرار من تلك الحكومة بإعادة افتتاح تلك المدرسة، وأصبح مقرّها في بناء شيد لها خلف المستشفى الحميدي، والمعروف حالياً باسم المستشفى الوطني، وأطلق على تلك المدرسة اسم المعهد الطبي العربي. تولّى التدريس فيه مجموعة من الأطباء والصيادلة العرب، واختير الأستاذ الدكتور رضا سعيد عميداً له، وأصبحت لغة التدريس فيه باللغة العربية.

وفي عام (١٩٤٦م/ ١٣٦٦هـ) تحول المعهد الطبي إلى كلية للطب أصبحت تضم فرعين أحدهما للطب والأخر للصيدلة. ونظراً للحاجة الماسة لتوحيد المصطلحات الطبية العربية المقابلة للمصطلحات الفرنسية، فقد ألفت لجنة لجمع تلك المصطلحات وتنقيحها وتوحيدها، مستفيدة من كتب التراث الطبي العربي الإسلامي، ومن المؤلفات التي ترجمها أو صنّفها أساتذة مدرسة القصر العيني في مصر، والكلية البروتستانتية الأميركية في بيروت.

وفي عام (١٩٥٦م/) قام ثلاثة أعضاء من تلك اللجنة وهم الأساتذة: مرشد خاطر.. وأحمد

حمدي الخياط، ومحمد صلاح الدين الكواكبي بترجمة "معجم المصطلحات الطبية" من الفرنسية إلى العربية، وهو من تأليف الدكتور كليرفيل، علماً بأن هذا المعجم يضم (١٤٤٨٠) مصطلحاً طبياً أو صيدلانياً.

معجم المصطلحات الطبية الموحّد:

في عام (١٩٦٦م/ ١٣٨٦هـ) تألف اتحاد للأطباء العرب، وكان من أهم مقرراته إصدار معجم طبي موحّد، وألف لجنة اختصاصية من الأطباء للقيام بهذا العمل. وقد وجدت هذه اللجنة نفسها تجاه فيض من الألفاظ العربية المترادفة، والمعبرة عن المصطلح الأجنبي الواحد. كما وجدت العديد من الألفاظ الأعجمية الدخيلة، فاضطرت إلى وضع خطة تلتزم بأسس لغوية ومبادئ علمية عند انتخاب المصطلح العربي. حينما جمعت تلك المصطلحات ورتبت في معجم ثنائي اللغة (انكليزي عربي) صدرت الطبعة الأولى في بغداد سنة ١٩٧٣، تحت عنوان "المعجم الطبي الموحد". ثم أعيد طبعها في القاهرة سنة ١٩٧٧، وفي الموصل سنة ١٩٧٧.

وقد تبيّن لاتحاد الأطباء العرب أن الضرورة تقضي بأن يشفع هذا المعجم الانكليزي العربي بمعجم فرنسي عربي، وذلك لوجود عدة دول عربية يتم فيها تدريس العلوم باللغة الفرنسية، أي أن يكون المعجم الطبي الموحد ثلاثي اللغة. ولما عرض هذا الأمر على مجلس وزراء الصحة العرب وافقه عليه وعهد إلى المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية بشرق البحر الأبيض المتوسط أن يتولى ذلك، فألف لجنة من بعض أساتذة كليات الطب في العالم العربي، لتأليف هذا المعجم. وكان أول عمل قامت به هذه اللجنة إعادة النظر في المصطلحات الطبية العربية الواردة في المعجم السابق، وتعديل وانتخاب ماوجدته صالحاً. كما أضافت كثيراً من المصطلحات التي لم يشتمل عليها المعجم الموحد في طبيعته الأولى والثانية، والتي أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

استغرق إعداد هذه الطبعة الثالثة لذلك المعجم أربع سنوات، وتم طبعه في سويسرا عام ١٩٨٣م، وذلك بالتعاون مع مجلس وزراء الصحة العرب، واتحاد الأطباء العرب، ومنظمة الصحة العالمية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

وفي عام ١٩٨٨ أعيد طبع هذا المعجم، بعد تنقيحه وإضافة ماصدر من مصطلحات جديدة في العلوم الطبية، بحيث أصبح يضم مالا يقل عن (٢٤) ألفا من تلك المصطلحات.

□□□

أقدم المعجمات الطبّية العربية

نشات الحمارنة

١-مقدّمة في نشوء المعجم الطبيّ العربي
٢-أبو منصور الحسن بن نوح القمري
٣-معجم (التنوير في الاصطلاحات الطبيّة).

مقدمة حول نشوء المعجم الطبي العربي

في *القرن الثامن الميلادي وفي أوائل القرن التاسع (-ق٢ هـ، أوائل ق٣هـ) واجهت العلماء العرب في الدولة الإسلامية مسألتان جديدتان تتعلقان بالعلم.*

أولى هاتين المسألتين هي *مسألة الترجمة أو النقل*[1] *من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية*، وتحديداً: مسألة إيجاد مصطلح عربي علمي يقابل المصطلح العلمي الأجنبي، وذلك في كلّ مرة تواجه اللغة العربية فيها الحاجة إلى وضع مصطلح كانت تخلو منه من قبل.

وثانية هاتين المسألتين هي *مسألة التفاهم بين علماء الشعوب* التي دخلت في نطاق الخلافة، والتي اعتنقت الإسلام وصارت العربية لغة أساسية في حياتها، ويتلخّص كنه هذه المسألة في تعرّف المصطلح العلمي[2] في اللغات المختلفة ومعرفة المقابل الأعجمي للمصطلح العربي العلمي وذلك على نحو دقيق يتناسب وطبيعة الاصطلاح العلمي في كلّ اللغات.

وكانت هاتان المسألتان بحاجة إلى حل سريع.

وأما المسألة الأولى: فقد حُلّت على نحو سريع حلاً جذرياً برهن على عبقرية اللغة العربية وقدرتها على الاستيعاب ومرونتها في مجال اشتقاق الألفاظ ونحتها[3]، كما برهن على عبقرية التراجمة العرب الذين أنجزوا هذا العمل بمعزل عن اللغويين.

---

[1] كان لها أساليب كثيرة لوضع المصطلح العلمي، ترجمة المعنى أو توليد كلمة جديدة... إلخ.
[2] المصطلح العلمي TERMINUS TECHNICUS.
[3] الاشتقاق والنحت أسلوبان من أساليب عديدة لجأت إليها العربية لتوليد معان جديدة واصطلاحات مستحدثة ليس هذا هو مجال الخوض فيها.

أما المسألة الثانية: فقد كانت اللغة السريانية -شقيقة العربية- قد عرفتها في القرون التي سبقت الإسلام، ذلك أن الثقافة السريانية هي التي سادت المنطقة لعدة قرون وصارت لغة للعلم[4] في عدد من الأقطار التي يسكنها مزيج من الشعوب طيلة المرحلة الهلنستية المتأخرة (البيزنطية).

والحلّ الذي لجأت إليه اللغة السريانية كان وضع معجمات عديدة اللغات لمصطلحات العلم سميت "بشقشماهي" تفسير الأسماء"[5]. وقد كانت هذه المعجمات مختلفة الحجم والأهميّة بعضها يشرَح الأسماء العلمية في لغتين وبعضها يشرحه في ثلاث لغات أو أكثر.

ولما جاء الإسلام وأخذت اللغة العربية في الازدهار العلمي، لم تبق اللغة السريانية بعيدة عن هذا التطوّر الإيجابي، فظلّت لغة رئيسة من لغات العلم، ودخلت -بدورها- في مرحلة زاهية من تاريخها، فزاد احتكاكها بلغات أخرى (كالفارسية) واحتكت بلغات جديدة (كالسنسكريتية). ونتيجة لذلك ظهرت معجمات "تفسير الأسماء" بشكل أحسن وأكبر حجماً، فوصل بعضها إلى درجة صار يشرح فيها الأسماء في أربع لغات أو خمسة[6].

تفسير الأسماء: لانعلم على وجه الدقة من هو المؤلف العربي الذي كان له شرف السبق إلى كتابة معجم من نوع (تفسير الأسماء) في المرحلة الإسلامية[7] لكننا نعرف أن أحد أقدمهم هو بختيشوع.[8]

ونعرف أيضاً أن الرازي في موسوعته الهامّة (الجامع) خصّص جزءاً كاملاً (لتفسير الأسماء): أسماء الأمراض والأعراض والأعضاء والعقاقير وأسماء الأوزان والمكاييل المستعملة في الطب والصيدلة.

يقول ابن أبي أصيبعة[9] في معرض حديثه عن كتاب (الجامع): (.. كتاب الجامع.. وهو ينقسم إلى اثني عشر قسماً... القسم السابع في تفسير الأسماء والأوزان والمكاييل التي للعقاقير، وتسمية

---

[4] صارت لغة للعلم إلى جانب اليونانية في بعض الأقطار، وإلى جانب الفارسية في أقطار أخرى.

[5] شرح الأسماء- في اللغة السُريانية "بشاق شماهي" وقد استعمل الرازي تعبير "تفسير الأسماء".
من المؤكد أن أطباء خوزستان (جنديسابور) السريان قد استعملوا معجماً من هذا النوع كان يسمى (بشقشماهي الخوز). وهذا المعجم كان موجوداً أيام الرّازي (نهاية القرن ٣ -بداية القرن ٤هـ)، وقد أشار إليه الرازي في (الحاوي) المجلد ٢٠ ص٤١١ س١٠، ص٤١٢ س٥ عن: (أولمان ص٢٣٦).
ومن الواضح أن هذا المعجم كان يهدف إلى تفسير الأسماء الطبية في لغات العلم السائدة في مدرسة جند يسابور الطبية في خوزستان (الأهواز) وهي اليونانية والسريانية والفارسية على الأقل.

[6] عند أولمان ULLMAN يصل العدد إلى عشرة أحياناً انظر: أولمان ٢٣٥.

[7] ربما كان هذا المؤلف هو حنين بن اسحق، وذلك بشهادة ابن البيطار. ابن البيطار | الجامع ٣: ٤٧س٤، ٤: ٢٧س٧(عن أولمان ٢٣٦).

[8] وذلك بشهادة الرازي في (الحاوي)، الحاوي ١١: ٦٥ عن (أولمان ٢٣٦). لم يحدّد الأستاذ أولمان -الذي لفت نظر الباحثين إلى هذا الأمر- شخصية بختيشوع هذا، هل هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع معاصر حنين والمتوفى عام ٢٧٠هـ أم جدّه بختيشوع بن جرجيس بن جبريل بن بختيشوع المتوفى عام ١٨٠هـ. انظر: مقالتنا (المعجمات الطبية) مجلة المجمع ٦٠ (١٩٨٥) ١١٢.

[9] عيون الأنباء ١: ٣١٨..

الأعضاء والأدواء باليونانية والسريانية والفارسية والهندية والعربية، على سبيل الكتب المسمّاة بشقشماهي).

وبعد الرازي[10] لا نعجب أن نرى أن علي بن العباس[11] أو الزهراوي[12] أو البيروني[13] ينسجون على منواله.

ولا نعجب أيضاً أن نرى أن لغات أخرى قد جاءت مفرداتها إلى هذه الكتب، ومن هذه اللغات: الآرامية والنبطية والقبطية والبربرية واللاتينية وعامية الأندلس. كل ذلك بسبب تعايش رجال العلم تعايشاً يتناسب وتعايش شعوبهم في ظل الحضارة الإسلامية التي امتازت بالسماحة: الاحترام المتبادل بين الآراء المتباينة والتآخي بين المذاهب المختلفة.

معجمات (تفسير الأسماء) قامت بدور القاموس عديد اللغات في يومنا هذا، وإن كان شكل بعضها قد جاء بدائياً، إلا أنها أدت الدور المرجوّ منها سواء كانت على شكل كتاب مستقل -كما هو الحال في (الجامع)- أو على شكل جزء من كتاب -كما هو الحال في كتاب الزهراوي (التصريف...)-[14].

وهذه المعجمات حلّت المشكلة الأولى التي واجهت العلماء المسلمين وقد نسج العرب في حلها على منوال أبناء عمومتهم السريان[15] فكيف حُلّت المشكلة الثانية؟.

الترجمة : لقد جهد العلماء العرب في مسألة (نقل) المصطلح العلمي من لغة أعجمية إلى اللغة العربية، وقد لجؤوا في ذلك إلى طرق شتى ليس هذا مجال الخوض فيها. ولكننا نلمح إلى بعضها باختصار شديد. فبعض الكلمات كانت تحمل معنى يمكن ترجمته.. (كشبكية العين) التي تحمل في اللغة الإغريقية معنى (الشبكة)، ومن هنا أطلقوا على تلك (الطبقة) من طبقات جدار العين (جدار المقلة) اسماً يشبه اسمه في اللغة اليونانية: الإغريق شبهوا هذه الطبقة بشبكة الصياد، فنسب العرب إلى (الشبكة) اسماً يتناسب وهذا المعنى (الشبكية)[16].

---

[10] نجد في (الحاوي) مسوّدات هذا المعجم (الجزء السابع من الجامع) ذلك أن هذا الجزء من (الجامع) لم يصل إلينا. انظر: مقالتنا في مجلة (التراث العربي) (دمشق) وذلك لمعرفة الفرق بين (الجامع) و (الحاوي).، الجامع كتاب ألفه الرازي ليكون موسوعة طبيّة.، والحاوي هو مسوّدات هذا الكتاب الذي لم يكتمل.| التراث العدد ٧٣ (١٩٩٨) ص٢٩-٣١، ٣٤-٣٥.

[11] كتب علي بن العباس كتابه في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي (=٤هـ).

[12] كتب الزهراوي كتابه في مرحلة الانتقال بين القرنين ١٠، ١١م. تقريباً.

[13] كتب البيروني كتابه في الربع الأول من القرن ١١م (=٥هـ).

[14] المقالة التاسعة والعشرون من الكتاب.

[15] بُشقشماهي الخوز جاء من الأهواز، وكان بين أيدي الأطباء الخوز، الذين يحيطون بمدرسة جنديسابور. هذه المدرسة التي أنشأها الفرس مستعينين بالأطباء السريان النساطرة. وقد كان هؤلاء خير ممثلين للطب السرياني في الدولة الفارسية. والطبُّ السرياني كان على اطلاع كاف على الطب اليوناني. تتفاعلت في مدرسة جنديسابور ثقافات عديدة (السريانية، الفارسية، اليونانية) انضم إليها فيما بعد العلم الهندي.

[16] الخوارزمي: (...والشبكية شُبِّهت بالشبكة) الفصل الأول (التشريح) من الباب الثالث (الطب) من المقالة الثانية (علوم العجم) من الكتاب (مفاتيح العلوم).، الخوارزمي (مفاتيح العلوم) (... طبقات العين سُمِّيت بالأشياء التي تشبهها: كالمشيمية: شُبِّهت بالمشيمة وهي التي فيها الولد في البطن.| والشبكية: شُبِّهت بالشبكة. | والعنكبوتية: شُبِّهت بنسيج العنكبوت.| والقرنية: شُبِّهت بالقرن في صلابته...).

مصطلحات أخرى استعملوا لها لفظة معروفة في العربية استعمالاً مجازياً، مثلاً (انتباج كيس الدمع) في مؤق العين الأنسي (بين الفرجة الجفنية وجذر الأنف) شبهه العرب بالوعاء الدموي الذي يظهر عند الخيل في المكان نفسه ويكون حجمه كبيراً لافتاً للنظر. وهذا الوعاء الدموي اسمه في العربية (الغرب)، لذلك استعملوا كلمة (غرب) استعمالاً مجازياً لتعني هذا (الانتباج) في كيس الدمع فاختصت كلمة (غرب) هنا بمعنى خاصّ جديد، وبذلك صارت مصطلحاً. فالغرب عند أطباء العين هو (انتباج كيس الدمع)، أصبح له معنى آخر غير معناه في اللغة.

وهكذا لجؤوا إلى وسائل عديدة (لتوليد) مصطلحات جديدة، منها النحت ومنها الاشتقاق إلخ. ولجؤوا في أحيان أخرى إلى تعريب بعض المصطلحات الأعجمية، أي أن (العربية) اقترضت من لغة أخرى (مصطلحاً) ظل على حاله.. مثلاً (المننجس) لتعني (غشاء الدماغ) أي مانسميه اليوم (السحايا). و(المننجس) لفظة يونانية. ومثال آخر: (شبكور) تعني المصاب بالعمى الليلي، اقتُرِضَت من الفارسية إذ إن (شب) تعني الليل و(كور) تعني الأعمى[١٧].

وبعد أن تعددت الاجتهادات، وكثرت طرق العمل توافر للعربية حجم ضخم من المصطلحات العلمية صار تفسيرها ضرورياً للأطباء وطلاب الطب. ومن هنا جاءت ضرورة كتابة نوع جديد من كتب الطب هو ذلك النوع الذي (يُعَرِّف) بالمصطلح أي (معجم التعريفات)[١٨].

وكما أسلفنا فإن هذه الحاجات لم تنشأ في مجال العلوم الطبية فحسب بل نشأت في مجالات العلوم كلها: علوم الدين وعلوم اللغة، والرياضيات وعلوم الطبيعة[١٩].. إلخ.

وعلى ذلك فإن هذا النوع من المعجمات ظهر في كلّ فروع العلم. ولن نتطرق هنا إلا إلى المعجمات الطبية، لكننا إنما أردنا –منذ البداية– أن ننبّه على هذه الظاهرة الهامّة في تاريخ العلم.

---

[١٧] شبكور إذاً لفظة اقترضتها العربية. والشبكرة: هي اللفظ المعرّب الذي طوّرته العربية لكي يخضع إلى قواعدها. الشبكرة عندئذ هي مرض (العمى الليلي).
انظر: مقالتنا (المعجمات الطبية) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٦٠ (عام ١٩٨٥) ص٥٠٨-٥٠٩.

[١٨] DEFINITION.

[١٩] من أوائل الذين اشتغلوا بتصنيف العلوم جابر بن حيّان، والكندي والفارابي والخوارزمي وإخوان الصفا.
انظر: جابر: –كتاب الحدود
–كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل.
الكندي: الرسائل.
الفارابي: –إحصاء العلوم.
–التنبيه على سبيل السعادة.
الخوارزمي: –مفاتيح العلوم.
إخوان الصفا: –الرسائل.
والخوارزمي صاحب (مفاتيح العلوم) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف المتوفى نحو ٣٨٧هـ. وهو غير الخوارزمي الرياضي الشهير المتوفى ٢١٨هـ، وغير الخوارزمي الطبيب.

لاعجب إذاً أن نجد في التراث العلمي العربي أنواعاً من معجمات التعريفات[٢٠] (DEFINITIONS) الطبيّة.

١-نوع عام للعلوم كلها -مثاله كتاب الخوارزمي (ق١٠) (مفاتيح العلوم) حيث يحتل (الطب) الباب الثالث من المقالة الثانية من الكتاب المخصصة للعلوم الدخيلة أي لعلوم العجم (كالفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والميكانيك والكيمياء).

٢-ونوع آخر: المعجمُ فيه جزء من الكتاب الطبي. ومثاله: كتاب (مفتاح الطب) لابن هندو (ق١٠-١١) وفيه يشغل المعجمُ الطبيُ المعنيُّ بالتعريفات البابَ العاشرَ من الكتاب[٢١].

٣-ونوع ثالث: الكتاب كلّهُ له موضوع واحد (معجم طبي) (معجم تعريفات) ومثاله كتاب القمري (ق١٠) (التنوير في الاصطلاحات الطبية)[٢٢].

وهكذا فإننا نعرف أن هذه (المعجمات) قد كُتبت ليستفيد منها الخاصةُ والعامّةُ، علماءُ اللغة والعلماءُ المتخصصون في الطبّ، والأطباءُ، وطلبةُ الطب.

وذلك لأن اللغويّ لا يفهم -مهما كان عالماً في اللغة[٢٣]- المعنى الاصطلاحيّ للكلمة التي يفهمها المتخصصون الذين اختاروها وتواضعوا عليها. وكذلك لايفهمها الأطباء والطلبة إلاّ إذا شُرِحَ معناها لهم[٢٤] ومن أجل ذلك وُضعت هذه المعجمات المتخصصة.

الثقافة السريانية قدّمت للعلماء العرب إذاً مثالاً يحتذى في مجال " المعجم عديد اللغات" للاصطلاحات الطبيّة، وهو معجم "تفسير الأسماء"[٢٥](=بشقشماهي).

فأين وجد التراجمة العرب مثالهم الذي ينسجون على منواله، أو الذي يستعينون به في مجال "معجم التعريفات"؟.

---

[٢٠] نقتصر هنا على ذكر (المعجمات) المعنيّة بالعلوم الطبية.

[٢١] يشتمل (مفتاح الطب) على عشرة أبواب: آخرها هو معجم التعريفات، لكن هذا الباب يشغل ثلثي حجم الكتاب. والأجزاء الأولى من الكتاب (الأبواب التسعة) لاتتطرق إلى صلب الدراسة الطبية، بل تقتصر على موضوعات عامة متعلقة بعلم الطب مثلاً :

-في حدّ الطب (أي تعريفه).

-في شرف الطب.

-في أقسام الطب.

-في تزكي الطب.

وهذه كلها عناوين لأبواب في الكتاب.

[٢٢] كتبنا عن هذا المعجم في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق عام ١٩٨٥، ١٩٨٧، ١٩٩١، المجلد ٦٠، ٦٢، ٦٦.

[٢٣] الخوارزمي (.. حتى أن اللغوي المبرّز في الأدب إذا تأمّل كتاباً من الكتب التي صُنِّفت في أبواب العلوم والحكمة ولم يكن شدا صدراً من تلك الصناعة لم يفهم شيئاً منه وكان كالأميّ الأعجم إذا نظَر فيه..) مفاتيح العلوم: خطبة الكتاب.

[٢٤] القمري (.. وأشرحُ كلّ شيء شرحاً كافياً وافياً، وأن لا أعدو مذهبَ أهل الصناعة، وإن كانت اللغةُ تحتملُ غيرَه وأهلُ البلدان والأقاليم مختلفون فيه..) انظر مقالتنا (المعجمات الطبية) في مجلة مجمع اللغة العربية) المجلد ٦٠ (سنة ١٩٨٥) ص ١١٥.

[٢٥] سبق أن أشرنا إلى أن التعبير "تفسير الأسماء" -كاصطلاح علمي لهذا المعجم مقابلاً للكلمة السريانية "بشقشماهي"- موجود عند الرازي.

سبق أن أشرنا[٢٦]إلى أن العرب استعانوا بتجربة جالينوس في كتابه (في الأسماء الطبيّة)[٢٧]ويجب أن نوضّح هنا بعض جوانب هذه المسألة، ذلك لاختلاط الأمر حديثاً على بعض الباحثين (مثلاً عام ١٩٩١) الذين لم يستوعبوا تماماً ماقاله الأستاذ أولمان[٢٨] (١٩٧٠) أو الذين لم يقرؤوا ماكتبه الأستاذ سزكين[٢٩](١٩٧٠).

كتب جالينوس كتابَ (في الأسماء الطبية) (وغرضه فيه أن يبيّن الأسماء التي استعملها الأطباء وعلى أيّ المعاني استعملوها)، (وجعله في خمس مقالات)[٣٠].

وقد ضاع الأصل اليوناني لهذا الكتاب، وكان حنين آخر من امتلك نسخة من هذا الأصل، ولم يكن أحد قد تَرْجمَ هذا الكتاب[٣١]إلى السريانية أو العربية.

وقد قام حنين بترجمة ثلاث مقالات منه إلى السريانية. ثم قام حبيش بترجمة المقالة الأولى من الكتاب من السريانية إلى العربية[٣٢].

ماوصل إلينا من هذا الكتاب إذاً ماهو إلاّ جزء منه، لذلك بات من الصعب أن نعرف كلّ شيء عن هذا الكتاب. إلاّ أن الذي يَعْرف هذا الكتاب هو حنينُ بن اسحق فهو الذي أعطانا تقريراً عنه، وهو الذي يَعرِف تراث جالينوس الطبيّ حق المعرفة، وهو الذي قام بأهم الترجمات الطبية من الإغريقية إلى العربية.

وماوصل إلينا من هذا الكتاب يسمح بإعطاء لمحة عن أسلوبه، فجالينوس كعادته يردّ على آراء الأطباء الذين لايوافق على مذاهبهم الطبية، ويهاجمهم، ويفسّر المصطلحات الطبيةَ التفسيرَ الذي يراه.

لذلك لانعجب إذا وجدنا أن العرب -منذ عصر حنين- يحرصون على إعطاء المصطلح الطبي تعريفاً دقيقاً غير قابل للتأويل، وحتى تعبير (التعريف)[٣٣] الذي نستعمله اليوم كان يسمى في التراث العربي (الحدّ).

أما كتاب (الحدود) المنسوب إلى جالينوس والذي هو من نوع كتب (معجمات التعريفات)[٣٤]فقد وصل إلى عصرنا بلغته الأصيلة[٣٥].

---

[٢٦] مقالة (المعجمات الطبية) مجلة المجمع. المجلد ٦٠ (عام ١٩٨٥)، ص١١٤.

[٢٧] تعريب اسم كتاب جالينوس يعود إلى حنين بن اسحق، انظر: رسالة حنين إلى علي بن يحيى بإخراج برغشترسر ص٤٧، رقم ١١٤، وفي الترجمة الألمانية ص٣٨ رقم ١١٤ وبإخراج بدوي (منقول بمعظمه وبجره عن برغشترسر) ص١٧٥ انظر كذلك كتاب: سزكين، ص١٢٥ رقم (٨٩). وكذلك أولمان، ص٥٢ رقم (٦٨).

[٢٨] أولمان ص٥٢، ٢٣٤-٢٣٦.

[٢٩] سزكين ١٢٥، ١٣٨.

[٣٠] حنين في (رسالة...) بإخراج برغشترسر ص٤٧ رقم (١١٤) وبإخراج بدوي ص١٧٥.

[٣١] انظر: برغشترسر، بدوي وانظر: سزكين ص١٢٥، أولمان، ص٥٦.

[٣٢] وقد قام العالمان شاحت ومايرهوف بتحقيق هذه المقالة وترجماها إلى الألمانية، وذلك عن مخطوطة محفوظة في ليدن -برقم (١٣٠٠)- Or ٥٨٠/٦) (الأوراق ٩٥-١١٨)- يعود تاريخ نسخها إلى القرن الثالث عشر.

وكان مايرهوف قد كتب عن هذه المخطوطة في عامي ١٩٢٦، ١٩٢٨ انظر: سزكين ١٢٦، أولمان٥٦.

[٣٣] الحدّ= التعريف= DEFINITION.

ويذكر حنين[٣٦]هذا الكتاب تحت اسم (في القياسات الوضعية). ويقول عنه: "لم أختبرها على ماينبغي، ولا عرفت مافيها".

فمن المستبعد إذاً أن يكون حنين قد تأثر بهذا الكتاب.

ويرجح الباحثون أن هذا الكتاب منحول لجالينوس[٣٧]. ويرى الأستاذ سزكين أن أورباسيوس كان أول من شكك في نسبة هذا الكتاب إلى جالينوس[٣٨].

ونجد ذكر هذا الكتاب عند الرازي الذي ربما كان آخر من اطّلع عليه. والرازي يقتبس عن هذا الكتاب دون أن يذكر اسم مؤلفه.

لذلك فإنه ليس من الصحيح القول بإن هذا الكتاب يمكن أن يكون قد قام بدورٍ في التأثير في عملية تأليف (معجم التعريفات)، وذلك لسبب بسيط، لأن حنين بن اسحق يعترف بانه لايعرف مافيه. ففي أيّ المؤلفين يمكن أن يكون هذا الكتاب قد أثّر؟.

إن العرب بعد عصر حنين فهموا تماماً فكرة (التعريف) ولم يبق لهم حاجة إلى مصدر أعجمي لهذه الغاية.

لقد استقرّ (المصطلح الفني) في عصر حنين استقراراً نهائياً.

أقدم كتاب -وصل إلى عصرنا- أراد له مؤلّفه أن يكون معجماً طبيّاً متخصصاً، قائماً بذاته هو (التنوير في الاصطلاحات الطبية) كما سبق أن ذكرنا.

فما هو الكتاب؟ ومن هو المؤلف؟.

[٣٤] انظر سزكين، ص١٣٨، رقم (١٥٣).

[٣٥] ونجده في المجلد التاسع عشر من (أعمال جالينوس) بإخراج كون KÜHN بين الصفحتين ٣٤٦-٤٦٢ انظر أيضاً Diels ص١١١.

[٣٦] في رسالته إلى علي بن يحي.
انظر: الرسالة (بإخراج برغشترسر) ص٤٨، رقم (١١٦) والترجمة الألمانية، ص٣٩ رقم(١١٦).
: الرسالة (بإخراج بدوي)، ص١٧٦. والأستاذ بدوي هنا ينقل الخطأ نفسه الذي وقع فيه الأستاذ برغشترسر.

[٣٧] يرى فلمان WELLMANN أن مؤلف هذا الكتاب لابُدّ أن يكون من أهل القرن الثالث الميلادي.
وقد أبدى فلمان هذا الرأي في دراسة مستفيضة نشرها عام ١٨٩٥
انظر سزكين، ص١٣٨-١٣٩.

[٣٨] انظر سزكين، ص١٣٩.

أبو منصور الحسن بن نوح القمري

***القمري وكتاباه: الكنّاش والمعجم.**
***شخصية القمري..**
***القمري في المصادر..**
***القمري في المراجع الغربيّة..**
***متى عاش القمري؟.**
***تحقيق اسم (القمري)..**

القَمَري وكتاباه: الكنّاش والمعجم.

يُنسَبُ أبو منصور الحسن[٣٩]ابن نوح القمري إلى بخارى، وقد أهملته كتب التراجم والطبقات[٤٠] أو كادت، لذلك فنحن لانعرف أيةّ معلومات عن سيرته، ولكن قراءة خطبة كتابه (غنى ومنى) تعطي الباحث المدقق معلومات هامّة عن شخصيته ، وعن طريقة تفكيره.

(غنى ومنى) هو أحد الكتابين اللذين وصلا إلى عصرنا، أمّا كتابه الآخر فهو (التنوير في الاصطلاحات الطبية) وهو معجم طبي صغير الحجم خطير الشأن[٤١] في تاريخ الطب العربي.

ونعرف من ابن أبي أصيبعة أنه -القمري- كان يقوم بالتدريس: "... إن الشيخ الرئيس ابن سينا كان قد لحق هذا وهو شيخ كبير، وكان يحضر مجلسه، ويلازم دروسه، وانتفع به في صناعة الطب..."[٤٢].

---

[٣٩] وقد ذكره حاجي خليفة مرة باسم (الحَسَن بن نوح) ومرة باسم (حسين بن نوح).
انظر: كشف الظنون ٢: ١٧٥٠ أبو منصور الحسن بن نوح القمري.
٢: ١٦١٠ أبو منصور حسين بن نوح القمري.
ولكن البغدادي في (هدية العارفين...) ذكر اسمه: (الحسن بن نوح القمري).
انظر هدية العارفين ١: ٢٧٢.
ومخطوطات كثيرة تذكر اسمه (الحسن) غالباً. ويندر أن نجد (الحسين)، مثلاً: غنى ومنى | الظاهرية رقم ٧٨٨٣.
انظر كذلك: سامي حمارنة: مخطوطات الظاهرية، ص٢٤٢، ٢٤٦.
:صلاح الخيمي: مخطوطات الظاهرية، ص٣٩٠.

[٤٠] لولا ابن أبي أصيبعة لما عرفنا شيئاً عن المؤلف من المصادر العربية القديمة. وقد ذكره أيضاً الصفدي (الوافي بالوفيات) وعن ابن أبي اصيبعة أخذ ابن فضل الله العمري (مسالك الأبصار..).
ومن المصادر الحديثة نسبياً ذكره حاجي خليفة و(البغدادي الذي كتب الذيل).
انظر الهامش (٣٩) حول ذكره في كشف الظنون وفي هدية العارفين. وكذلك انظر البغدادي في إيضاح المكنون (ذيل كشف الظنون) ٢: ٥٦-٥٧.

[٤١] نكتب عن هذا المعجم مقالة (في حلقات) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق.
انظر المجلد ٦٠ (١٩٨٥)، ص١١٨-١٢٣، ص٤٨٤-٥١٤. والمجلد ٦٢ (١٩٨٧) ص٥٤١-٥٦٠ والمجلد ٦٦ (١٩٩١)، ص٤٦٦-٥١٣.

الكتاب الأول (غنى ومنى) لايحتلّ إلا مكانة عاديّة في تاريخ الطبّ العربي، فهو أحد الكُنّاشات الكثيرة التي أُلّفت في الإسلام والتي وصلت إلى عصرنا[٤٣]، والكنّاش الطبيّ[٤٤]: كتاب مختصر يعالج كلّ موضوعات الطب السريري، ويبتعد عن الطبّ النظري، ويركّز اهتمامه على أعراض الأمراض ومعالجاتها، ويُفترَض أن يكون الكُنّاش الطبي كافياً لحاجات الطبيب الممارس.

ودراستُنا الأوليّة لكتاب (غنى ومنى) أظهرت أن ثمة تأثيراً واضحاً للقَمَري على ابن سينا[٤٥]، وهذا ماقد يعطي هذا الكتاب أهميّة خاصّة في تاريخ الطب العربي، وقد أظهرت هذه الدراسة أيضاً أن القَمَري نقل عن الرّازي وتأثر به -تماماً كما قال ابن أبي أصيبعة[٤٦]-.

والكنّاش الطبيّ لايمكن أن يرقى من حيث مستواه العلمي إلى مرتبة كتب الطب الشاملة (أو الموسوعية)، ذلك أن هذا النوع من الكتب يطمح إلى حصر الطب كلّه بين دفتي مجلد واحد، جامعاً العلوم الطبية النظرية (كليّات الطبّ) إلى جانب العلوم الطبية العملية. بما في ذلك السريريات والمعالجات والأعمال الجراحية، ونموذج هذه الكتب هو كتاب (كامل الصناعة الطبيّة) لعلي بن العبّاس المجوسي.

وعلى ذلك فإن جميع الكنّاشات تظل -من وجهة نظر مؤرخي الطب والأطباء- في مرتبة أخفض من تلك المرتبة التي تحتلها كتب الطبّ التدريسيّة الهامّة ككتاب (كامل الصناعة الطبيّة) للمجوسي، أو كتاب (المعالجات البقراطية) لأبي الحسن الطبري[٤٧].

فالكتابان (غنى ومنى) و (كامل الصناعة) ظهرا في عصر واحد، وكلّ منهما له غاية وهدف يختلفان عن غاية الكتاب الآخر وهدفه. وقد توفي علي بن العبّاس في الربع الأخير من القرن العاشر الميلادي (=القرن الرابع للهجرة)، وكذلك القَمَري، وربما كان تاريخ وفاة القَمَري متأخراً قليلاً عن تاريخ وفاة المجوسي[٤٨].

والشيء نفسه يقال عن كتاب (المعالجات البقراطية) إذا قورن بكتاب (غنى ومنى)[٤٩].

وإذا كان المؤرّخون وأصحاب كتب التراجم قد أهملوا الحديث عن المؤلف (القَمَري)، فبتنا لانعرف إلا القليل عن سيرته، فإن قراءة كتابيه تكفي للتعرّف على جوانب هامة من شخصيته.

---

(٤٢) ابن أبي أصيبعة (طبعة مولر) ١: ٣٢٧.

(٤٣) كان هذا الكتاب موضوع أطروحة الدكتوراه التي تقدمت بها الزميلة الدكتورة غادة الكرمي (لندن ١٩٧٨).

(٤٤) انظر: نشأت الحمارنة: مقدمة حول طب العيون العربي في: مجلة التراث العربي -دمشق (١٩٨٤) العدد ١٧، ص١٨١- الهامش رقم (٦١).

(٤٥) انظر: مقالتنا: المصحمات الطبية في: مجلة المجمع -دمشق ١٩٩١ المجلد ٦٦، ص٤٦٧ ١: ٣٢٧.

(٤٦) ابن أبي أصيبعة ١: ٣٢٧ (.. ولخص.. جملاً من أقوال المتميزين في صناعة الطب، وخصوصاً ما ذكره الرّازي متفرقاً في كتبه).

(٤٧) انظر مقالتنا (المصحمات الطبيّة) في: مجلة المجمع -دمشق (١٩٨٧) المجلد ٦٢، ص٥٤٣-٥٤٤.

(٤٨) انظر: المرجع نفسه، ص٥٤٧-٥٤٨.

(٤٩) انظر: المرجع نفسه، ص٥٤٨.

شخصية القمري

يبدو لنا المؤلف رجلاً واسع المعرفة والاطّلاع، توافرت له أمهات كتب الطب فنهل منها.

يقول في خطبة كتابه (غنى ومنى): "... وأحرص على تتبّع الكتب المؤلّفة.. ودراسة الكنّاشات المصنفة، حتى أحطتُ بمكنون خزائنه واطّلعت على أسراره ودفائنه[٥٠]...".

وعلى ذلك فقد اعتمد على عدد كبير من الأساتذة الإغريق، ونقل مقتبسات مختارة من كتبهم. وإذا أردنا أن نسمّي بعض أشهر هؤلاء نذكر بقراط وجالينوس وروفوس وبولص والاسكندر واهرن وانتيلوس.

أما الأساتذة العرب الذين أخذ عنهم فهم أهمّ أعلام القرنين التاسع والعاشر (٣-٤هـ): ماسرجويه وابن ماسويه وحنين وعلي بن ربن الطبري وقسطا بن لوقا وثابت بن قرة وجبريل بن بختيشوع ومحمد بن زكريّا الرّازي، وهذا يؤكّد لنا أنه أحاط حقّاً (بمكنون خزائن) الطب.

وهو أستاذ واثق تماماً من نفسه، يقول في مقدمته لكتاب (التنوير): "... واشرح كل شيء شرحاً كافياً وافياً.."[٥١].

وهو لايترك شاردة ولا واردة إلاّ وأحاط بها، كلّ ذلك بأسلوب مشوّق وعلى درجة رفيعة من الاختصار والتركيز. فلا عجب إذاً أن نرى أن ماكتبه القمري في الصيدلة والصناعات الدوائية بعنوان (في اتخاذ الأشياء التي لابدّ منها كلّ يوم) قد جاء قمّة في هذا الموضوع لا يصل إليها الآخرون في عصره، فينقل عنه المتأخرون من أصحاب الأقراباذينات نقلاً يكاد يكون حرفياً، ومن هؤلاء الناقلين القلانسي[٥٢]صاحب أحد أحسن الأقراباذينات التي وصلت إلى عصرنا (ق١٢-١٣م) (ق٦-٧هـ)، والسجزي[٥٣]الذي عاش قبل القرن الرابع عشر الميلادي (قبل ق٨هـ) في كتابه (حقائق أسرار الطب)، وذلك -على وجه التحديد- في القسم الثاني من الفن الثاني من الكتاب (في كيفية استعمال الأدوية من الدقّ والطبخ والإحراق والسحق وغير ذلك).

وبعد أن حقق الأستاذ الدكتور زهير البابا أقراباذين القلانسي ونشره تبيّن لنا أن القلانسي نقل أكثر من عشرين فقرة من كتاب القَمَري نقلاً حرفياً[٥٤]، وذلك في الباب المخصّص للأعمال الصيدلانية.

---

[٥٠] انظر: خطبة الكتاب في أحد مخطوطات (غنى ومنى) مثلاً: الظاهرية رقم ٧٨٨٩.

[٥١] انظر: التنوير: بتحقيق (وفاء تقي الدين) في: مجلة المجمع (دمشق) ١٩٩١ المجلد (٦٦)، ص١٢ س١٠-١١.، وكذلك التنوير: بتحقيق الدكتورة (غادة الكرمي) الرياض، ١٩٩١، ص٥٠.

[٥٢] انظر مقالتنا: (المعجمات الطبيّة) في: مجلة المجمع (دمشق) ١٩٩١ المجلد (٦٦)، ص٤٧٨.

[٥٣] المرجع نفسه المجلّد (٦٦)، ص٤٧٠، ٤٧٨.

[٥٤] انظر مقالتنا: (المعجمات الطبية) في: مجلة المجمع -دمشق (١٩٩١) المجلد (٦٦)، ص٤٨٠-٤٩١، وكان الأستاذ الدكتور البابا قد حقق المجلد كتاب القلانسي ونشره عام ١٩٨٣، انظر مقالتنا -المرجع نفسه، ص٤٧٧، الهامش (٣٧).

وكان الأستاذ أولمان[٥٥] قد أشار إلى أن القلانسي نقل عن القمري في باب (الأوزان والمكاييل) ولم يُشر إلى (الأعمال الصيدلانية)[٥٦].

القمري في المصادر

لا نعلم متى كتب القمري كتابَيْهِ الشهيرين، إلا أننا نعرف أن هذين الكتابين لم يكونا قد وقعا في يد ابن النديم حينما حرّر (الفهرست)، أو لعلّ القمري لم يكن قد كتب شيئاً حتى عام ٣٧٧هـ- عام كتابة الفهرست[٥٧]- وعلى ذلك فإننا لانجد ذكراً للقمري عند ابن النديم.

والأمر نفسه ينطبق على ابن جلجل الذي لم يترجم للقمري للسبب نفسه، ذلك أنّه كتب كتابه[٥٨]في العام نفسه الذي كتب فيه النديم كتابه في بغداد، وهو إلى ذلك أبعد بلداً.

أما لماذا لم يترجم الأخرون[٥٩] للقمري، -وقد اشتُهر كتاباه في أيامهم- فسؤال تصعب الإجابة عنه، لكنه من المعلوم أن الذين ترجموا للأطباء لم يتمكنوا من الإحاطة بأسماء جميع الأطباء الكبار.

أولُ خبر عن القمري في المصادر العربية أتى به ابن أبي أصيبعة[٦٠]، وذلك في القرن السابع الهجري (-١٣م). وعنه أخذ الصفدي[٦١]الذي استدرك على ابن خلكان[٦٢]الذي لم يكن قد ترجم للقمري.

وكذلك فعل ابن فضل اللّه العمري[٦٣]الذي نقل أيضاً عن ابن أبي أصيبعة.

---

[٥٥] انظر المرجع نفسه، ص٤٧٥.

[٥٦] لأن الأستاذ أولمان لم يكن قد رأى أقراباذين القلانسي بإخراج الأستاذ الدكتور زهير البابا حينما كتب كتابه (الطب الإسلامي) عام ١٩٧٠.

[٥٧] ظهر الفهرست عام ٣٧٧هـ= ٩٨٧م وأول من حقق هذا الكتاب هو فلوغل (١٨٧١).
انظر: نشأت الحمارنة: تاريخ أطباء العيون العرب ١: ٣٧.

[٥٨] ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء) وقد عاش ابن جلجل في الأندلس. وقد حقق فؤاد سيد هذا الكتاب (١٩٥٥)
انظر: نشأت الحمارنة: تاريخ ١: ٣٧.

[٥٩] نعني بهم:
*البيهقي (ق٦هـ= ١٢م) في (تتمة صوان الحكمة) (بإخراج محمد شفيع-لاهور- ١٩٣٥). وهو نفسه الكتاب الذي أعاد تحقيقه الأستاذ محمد كرد علي سنة ١٩٤٦ بعنوان (تاريخ حكماء الإسلام).
*القفطي (ق٦-٧هـ=١٢-١٣م) في (إخبار العلماء بأخبار الحكماء). وقد وصلت إلينا من هذا الكتاب مختاراتٌ جمعها الزوزني بعد سنة واحدة من وفاة المؤلف. وقد عمل على إخراج هذه المنتخبات أوغست مولر، لكنه لم ينته من العمل، فقام بعد ذلك ليبرت بتحقيق الكتاب ونشره عام ١٩٠٣.
*الشهرزوري (ق٧هـ=١٣م) في (نزهة الأرواح وروضة الأفراح). وكان هذا الكتاب قد حُقّق في (دائرة المعارف العثمانية) في حيدر أباد الدكن في الهند، ثم أعاد تحقيقه الزميل د.عبد الكريم أبو شويرب(١٩٨٨).

[٦٠] في عيون الأنباء وقد توفي ابن أبي أصيبعة عام ٦٦٨هـ= ١٢٧٠م انظر: عيون الأنباء: ١: ٣٢٧.

[٦١] في القرن الثامن الهجري (=ق١٤م) وقد توفي الصفدي عام ٧٦٤ هـ (=١٣٦٣م) انظر الوافي بالوفيات (ط فيسبادن ١٢: ٢٨٢).

[٦٢] كتب ابن خلكان (وفيات الأعيان) في القرن السابع الهجري (=١٣م) وتوفي عام ٦٨١هـ (=١٢٨٢م).

[٦٣] من أهل القرن الثامن الهجري (=ق١٤م) في (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) انظر: الطبعة المصورة ٩: ٢٥٤.

وبعد أربعة قرون عاد الحاج خليفة[٦٤] إلى ذكر القمري، وذلك في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون).

القمري في المراجع الغربية

نذكر هنا أسماء العلماء والباحثين الغربيين الذين ذكروا القمري حينما كتبوا عن المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبات الأوربية[٦٥] أو الذين حققوا بعض أمهات كتب التراث العربي[٦٦] أو الذين كتبوا عن هذا التراث[٦٧].

أوّل هؤلاء هو اصطفان السمعاني الذي كتب عن مخطوطةٍ لكتاب (غنى ومنى) محفوظة في فلورنسا عام (١٧٤٣).

وثانيهم هو أوري (URI) الذي وصف مخطوطةً أخرى لهذا الكتاب محفوظةً في أوكسفورد. عام (١٧٨٧).

بعد ذلك أخرج فلوغل (FLÜGEL) كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) للحاج خليفة ونشره بالعربية عام (١٨٣٧).

ثم كتب فوستنفلد (WÜSTENFELD) عام (١٨٤٠) عن الأطباء وعلماء الطبيعة العرب).

ثم كتب لوكلير (LECLERC) في باريس كتابه الشهير (تاريخ الطب العربي). (عام ١٨٧٦).

وبعدها أخرج مولر (MÜLLER) كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ونشره بالعربية في القاهرة (١٨٨٢) ثم تتالت الكتابات:

***بيرتش (PERTSCH) (١٨٨٣): حول مخطوطات غوتا.**

***بروكلمان (BROCKELMANN) (١٨٩٨): في (تاريخ الأدب العربي).**

***مايرهوف (MEYERHOF) (١٩١١): في مقالة عن ثابت بن قرة.**

***سارتون (SARTON) (١٩٢٧): في (تاريخ العلم).**

متى عاش القمري

لم يذكر ابن أبي أصيبعة[٦٨] سنةَ وفاة القمري، وهو أوّل من ترجم له، وكذلك فعل الصفدي[٦٩]، الذي لابدّ أن يكون قد افتقر إلى مصدر آخر- للحصول على معلومات بشأن القمري- غير ابن أبي أصيبعة.

---

[٦٤] انظر: (كشف الظنون...) ٢: ١٢١٠: ١٧٥٠ وقد توفي الحاج خليفة عام ١٠٦٧هـ =١٦٥٧م.

[٦٥] مثلاً: أوري، بيرتش.

[٦٦] مثلاً: فلوغل، مولر.

[٦٧] مثلاً: فوستنفلد، لوكلير.

[٦٨] عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١: ٣٢٧ وفي طبعة (نزار رضا) -بيروت ٤٣٥-٤٣٦.

أما ابن فضل اللّه العمري[٧٠]فهو ناقل حرفيّ عن أبي أصيبعة في كلّ تراجم الأطباء التي جاءت في الجزء التاسع من كتابه، وعلى ذلك فهو لايذكر أيضاً سنة وفاة القمري.

ونجد ذكراً للقمري عند الحاج خليفة[٧١]دون أن يقول شيئاً عن سنة وفاته.

لكن ابن أبي أصيبعة[٧٢]يقول نقلاً عن الشيخ شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي مامعناه: أن ابن سينا حضر دروس الأستاذ القمري حينما كان ابن سينا طالباً، وأن الأستاذ القمري كان في ذلك الحين شيخاً كبير السن.

ومن جهة أخرى يقدّرُ الباحثون أن ابن سينا ولد عام ٣٧٠هـ=٩٨٠م. ونعرف من المصادر أن ابن سينا انتهى من دراسة الطب في الثامنة عشرة من عمره.

فإذا افترضنا أن ابن سينا كان قد حضر دروس القمري وهو في الخامسة عشرة[٧٣] من عمره، فإن ذلك يعني أن القمري كان حياً سنة ٣٨٥ للهجرة(=٩٩٥م)[٧٤].

وإذا افترضنا أن ابن سينا كان قد حضر دروس القمري قُبَيل انتهائه من دراسة الطب -أي حينما كان عمره (١٨ عاماً) ثمانية عشر عاماً- فإن هذا يعني أن القمري كان حيّاً سنة ٣٨٨ للهجرة (=٩٩٨م).

ليس صحيحاً إذاً أيُّ تقدير[٧٥] لسنة وفاة القمري يجعلها قبل عام ٣٨٥هـ (=٩٩٥م).

يقول سزكين[٧٦]إن القمري ربما كان قد توفي حوالي ٣٩٠هـ (=٩٩٩م). وهذا تقدير صحيح. أما أولمان[٧٧] فيقول إن القمري توفي بعد عام ٣٨٠هـ (=٩٩٠م) وكان عليه أن يقول بعد عام ٣٨٥هـ (=٩٩٥م).

القمري إذاً من أهل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وربما لحق القرن الحادي عشر، وتوفي في مطلعه، لكنه من المستبعد أن يكون قد لحق القرن الخامس الهجري[٧٨]وفقاً لرواية الخسروشاهي. وحسب ما بيّنا.

---

[٦٩] الوافي بالوفيات. طبعة فيسبادن (١٩٨٥) ١٢: ٢٨٢ والصفدي هنا ينقل عن ابن أبي أصيبعة.

[٧٠] مسالك الأبصار في ممالك الأمصار طبعة سزكين المصورة (فرانكفورت) ٩: ٢٥٤.

[٧١] كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٢: ١٢١٠، ١٧٥٠.

[٧٢] عيون الأنباء ١: ٣٢٧، "... وحدثني الشيخ الإمام شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي أن الشيخ الرئيس ابن سينا كان قد لحق هذا [القمري] وهو شيخ كبير، وكان يحضر مجلسه ويلازم دروسه، وانتفع به في صناعة الطب... "، والصفدي ينقل هذه العبارة حرفيّاً عن ابن أبي أصيبعة مشيراً إلى مصدره. انظر: الصفدي ١٢: ٢٨٢-٢٨٣.، أما ابن فضل اللّه العمري -الذي نقل عن ابن أبي أصيبعة- فلم يحالفه الحظ في (نسخ) ما أراد نقله فجاء المعنى مقلوباً: "أن القمري حضر دروس ابن سينا". انظر ابن فضل اللّه العمري ٩: ٢٥٤.

[٧٣] من المستبعد أن يكون الفتى قادراً على متابعة دروس في الطب أو غيره من العلوم قبل سن الخامسة عشرة.

[٧٤] ٣٧٠+١٥=٣٨٥هـ، ٩٨٠+١٥=٩٩٥م.

[٧٥] مثلاً: هدية العارفين ١: ٢٧٢ بروكلمان ١: ٢٩٣، ١ ط ٢ ٢٧٥، الذيل ١: ٤٢٤-٤٢٥. الترجمة العربيّة لبروكلمان ٤: ٢٩٩-٣٠٠، طبعة أخرى (١٩٩٣) ٦: ٧٠٨.

[٧٦] سزكين ٣: ٣١٩.

[٧٧] أولمان: ١٤٧.

تحقيق اسم القمري

لعلّ أقدم ذكر لأبي منصور الحسن بن نوح القمري في المؤلفات الاستشراقية قد جاء على لسان اصطفان السمعاني[٧٩]في منتصف القرن الثامن عشر. أما في الشرق العربيّ فقد ذكره ابن أبي أصيبعة[٨٠] (ق١٣) وابن فضل الله العمري[٨١](ق١٤) وصلاح الدين الصفدي[٨٢](ق١٤)، ثم ذكره بعد ذلك الحاج خليفة[٨٣](ق١٧).

كتب اصطفان السمعاني فهرساً للمخطوطات الشرقية في المكتبة الميدتسية (الميدتشية) في فلورنسا[٨٤].

وفي هذا الفهرس يأتي اسم القمري مكتوباً بالعربية دون إعجام[٨٥]وباللاتينية مع فتح القاف والميم al-kamari[٨٦].

وفي عام ١٧٨٧ كتب يانوش أوري[٨٧] فهرساً بأسماء المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبة البودلية (بودليانا) في أوكسفورد[٨٨]. وكتب اسم المؤلف بفتح القاف والميم[٨٩] كما فعل السمعاني (القمري = AL-CAMARI).

لكن فوستنفلد عام ١٨٤٠[٩٠]قرأ اسم المؤلف قراءة مختلفة: بضم القاف وتسكين الميم (القُمْري =EL-COMRI)[٩١].

---

(٧٨) كتب الزميل الأستاذ صلاح محمي في (فهرس مخطوطات الظاهرية) أن القمري كان حياً قبل ٤٢٨هـ ١٠٣٧م انظر: ص٣٩٠.

(٧٩) اصطفان عوّاد السمعاني، ابن شقيقة يوسف سمعان السمعاني الشهير (الذي عاش بين ١٦٨٧-١٧٦٨) وقد عمل معه في إعداد فهرس المكتبة الشرقية في الفاتيكان. كما أعد فهرساً للمكتبة الميديتشية في فلورنسا. ويعرفه الغرب باسم S.E.ASSEMANUS.انظر: المستشرقون ١: ٤٠٩، ٤١٢، سزكين (مجموعات...) ٦١. الأعلام ط٧ ٨: ٢٣٣.

(٨٠) ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ١: ٣٢٧.

(٨١) ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) الطبعة المصوّرة ٩: ٢٥٤.

(٨٢) صلاح الدين الصفدي في (الوافي بالوفيات) طبعة فيسبادن (١٩٨٥) ١٢: ٢٨٢.

(٨٣) الحاج خليفة في (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) ٢: ١٢١٠، ١٧٥٠.

(٨٤) انظر: المستشرقون ١: ٤١٢. سزكين (مجموعات..) ٦١. ويضم هذا الفهرس محتويات المكتبتين اللورنسيانية والبلاتينية Lourentiana palatina، طبع هذا الفهرس في فلورنسا عام ١٧٤٢-١٧٤٣.

(٨٥) انظر: فهرس هذا الكتالوج ص٦٥ السطر الخامس.

(٨٦) انظر: الكتالوج ص٣٦٨ رقم ٢٤٧.

(٨٧) Janos URI* يانوش أوري مستشرق مجري توفي عام ١٧٩٦.
*أصدر عام ١٧٨٧ فهرساً للمخطوطات الشرقية في المكتبة البودلية.
*حول أوري أنظر: المستشرقون ط٤ ٣: ٣٨.

(٨٨) *حول هذا الفهرس انظر: سزكين (مجموعات..) ص٧٠-٧١.
*يقع وصف المخطوطات العربية في هذا الفهرس بين الصفحتين ٩٩-٢٦٨.
*أتمه نيكول Nicoll سنة ١٨٢١، ونقحه بوساي Pusey سنة ١٨٣٥.

(٨٩) انظر: فهرس أوري صفحة ١٤٧ رقم (٦٤٦) الذي يصف مخطوطة كتاب القمري (غنى ومنى) رقم (مارش-٨٠).

(٩٠) فرديناند فوستنفلد Ferdinand Wüstenfeld وذلك في كتابه (تاريخ الأطباء وعلماء الطبيعة العرب) Geschichte der Arabischen Ärzte und Naturforscher.

فمن أين أتى فوستنفلد بهذا النطق المختلف؟ هل نقله عن غيره معتمداً طريقة جديدة في قراءة الاسم ومعارضاً ماذهب إليه السمعاني وأوري؟ أم أنّه صاحبُ اجتهاد خاص؟.

ومن المعروف أن فوستنفلد استعمل عدداً كبيراً من فهارس المكتبات الأوربية[٩٢]، كما استعمل بعض كتب التاريخ أو التراجم العربية مصدراً لكتابه[٩٣].

فهل يستحق الأمر عناء البحث في كل هذه الفهارس القديمة التي صدرت في القرن السابع عشر أو الثامن عشر أو مطلع التاسع عشر لمعرفة المؤلف الذي يمكن أن يكون فوستنفلد قد أخذ عنه هذا النطق الجديد لاسم أبي منصور الحسن بن نوح (القُمْري)؟ ذلك أنه في حدود مانعلم فإن فوستنفلد هو أول المؤلفين الأوربيين الذين اعتمدوا هذا النطق فصار كِتابهُ بذلك مصدراً أُخِذَ عنه على مايبدو:

لوكلير[٩٤]عام ١٨٧٦ EL-COMRY.

بروكلمان[٩٥]عام ١٨٩٨ AL-QUMRI.

مايرهوف[٩٦]عام ١٩١١ AL-QUMRI.

سارتون[٩٧]عام ١٩٢٧ AL-QUMRI.

ريتر[٩٨]عام ١٩٥٠ AL-QUMRI.

وهذا يكفي لتفشي هذا النطق وخاصّة حينما نعلم أن أصحاب كتب التراجم لم يضعوا الحركات على أحرف كلمة (القمري)، وبذلك لم يحدّدوا طريقة لفظها:

- الحاج خليفة[٩٩] في كشف الظنون (بإخراج فلوغل سنة ١٨٣٥- ١٨٣٧) كتبه (القمري) وهكذا فعل البغدادي[١٠٠] صاحب (إيضاح المكنون...).
- وابن أبي أصيبعة[١٠١] (بإخراج مولر عام ١٨٨٢) كتبه (القمري).

---

[٩١] انظر: فوستنفلد (تاريخ..) ص٥٦ رقم (١٠٩).

[٩٢] نحو عشرين مكتبة، منها مكتبات في: لندن، باريس، برلين، الفاتيكان، فلورنسا، درسدن، غوتا، الإسكوريال. ولعل أحد أقدم هذه الفهارس هو فهرس هوتنجر (J.H.Hottinger) عن مكتبة هايدلبرغ (١٦٥٨)؛ انظر: مقدمة كتاب فوستنفلد ص٧-٨.

[٩٣] • ومنها كشف الظنون لحاجي خليفة بإخراج G.Flügel طباعة لايبزغ ١٨٣٥-١٨٣٧.
• ومنها مختصر تاريخ الدول لابن العبري بإخراج Ed. Pocock عام ١٦٧٢.
• ومنها تاريخ أبي الفداء باعتناء رايسكة J.J.Reiske وإخراج أدلر J..Chr. Adler عام ١٧٨٩.
• وآخرها وفيات الأعيان لابن خلكان الذي عمل عليه فوستنفلد نفسه. (بدأ بإخراجه عام ١٨٣٥).
انظر: مقدمة كتاب فوستنفلد ص٧-٨.

[٩٤] في (الطب العربي) ١: ٣٥٨.

[٩٥] في تاريخ الأدب العربي ١: ٢٣٩ وفي الطبعة الثانية ١: ٢٧٥.

[٩٦] في مقالته المشتركة مع بروفر حول ثابت وفي مقالة حول كتاب (الذخيرة) انظر: Isis المجلد ١٤ (١٩٣٠) ص٥٩.

[٩٧] في (تاريخ العلم) ١: ٦٧٨.

[٩٨] في Oriens المجلد ٣ (١٩٥٠) ص٨٦.

[٩٩] ألف الحاج خليفة كتابه في القرن السابع عشر وطبع الكتاب لأول مرة عام ١٨٣٥ انظر: (كشف الظنون) ٢: ١٢١٠، ٢: ١٧٥٠.

[١٠٠] في (إيضاح المكنون- ذيل كشف الظنون) ٢: ٥٦-٥٧ وفي (هدية العارفين) ١: ٢٧٢.

وعلى ذلك فإنّ بيرتش[102] عام ١٨٨٣ آثر الحياد فلم يكتب الاسم بالأحرف الألمانية وإنما كتبه بالعربية كما كتبه من قبله فلوغل ومولر (القمري) ولم يحقق كيفية كتابة الاسم.

فوستنفلد إذاً -على الأرجح- هو الذي ابتدع هذا النطق لاسم (القَمَري)، فصار (القُمْري).

لكن فوستنفلد وحده ماكان يكفي لإذاعة هذا النطق الجديد. المسؤولون هم الأساتذة الكبار الذين نسجوا على منوال فوستنفلد دون أن يحققوا الاسم: بروكلمان وسارتون(وغيرهما). فهم إذاً يتحملون مسؤولية إشاعة هذا النطق باللغات الأجنبية إذ كتبوه AL-QUMRI حسب الكتابة المعتمدة في الأوساط الاستشراقية للأسماء العربية.

فهل من سبيل لتصحيح هذا الاسم بعد أن دخل في أمهات المراجع الأجنبية المعنية بالتراث العربي؟ (قاموس التراجم العلمية[103]، سزكين[104]، أولمان[105].. إلخ) وفي المراجع العربية: عمر رضا كحالة[106]، وسامي حمارنة[107]، والترجمة العربية لبروكلمان[108]، وغيرهم.

ومن جهة أخرى هل تسعفنا المخطوطات فنجد في بعضها اسم أبي منصور مُعْجَماً (القَمَري) أو (القُمْري)؟

مخطوطتان على الأقل لهما هيبتهما التاريخية، ناسخاهما اعتمدا اسم (القَمَري):

•المخطوطة الأولى[109] هي مخطوطة مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري.

•والأخرى[110] هي مخطوطة الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي.

لكن الناسخ -بطبيعة الحال- ليس ثقة، الثقة هي المخطوطة الأم التي كتبها المؤلف.

- أما مخطوطات كتابي القَمَري (غنى ومنى، والتنوير) فهي بدورها لاتحلّ المشكلة.. ذلك أنها جميعاً بخط ناسخين متأخرين عن ابن فضل الله العمري والصفدي.

لكن ثمة قرينة قد توحي بأن اسم مؤلفنا هو (القَمَري) المشتق من (القَمَر) ذلك أن كتابه الشهير (غنى ومنى) يسمى في كثير من الحالات (الشمسية المنصورية).

---

[101] عاش ابن أبي أصيبعة في القرن الثالث عشر وطبع كتابه لأول مرة عام ١٨٨٢ انظر: (عيون الأنباء) ١: ٣٢٧.

[102] W. Pertsch في فهرس مخطوطات Gotha- غوتا انظر: بيرتش ٤: ١، ٦٣.

[103] كتب سامي حمارنة في قاموس التراجم العلمية عن (الهوسي) فذكر القمري. انظر: القاموس.. ٩: ٤٠ (aL-Qumri)

[104] سزكين ٣: ٣١٩.

[105] أولمان ١٤٧.

[106] انظر: معجم المؤلفين (١٩٥٧-١٩٦١) ٣: ٢٩٩.

[107] انظر: مخطوطات المكتبة الظاهرية (١٩٦٩) ٢٤٢.

[108] قام بها الدكتور السيّد يعقوب بكر والدكتور رمضان عبد التوّاب عام (١٩٧٥) انظر: ٤: ٢٩٩. وفي طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٣) القسم الثاني ص٧٠٨.

[109] وقد نشر سزكين صورة لها انظر: ٩: ٢٥٤.

[110] مخطوطة في استنبول. انظر: المطبوع: ١٢: ٢٨٢ رقم ٢٥٨.

أفلا توحي القرابة بين (الشمس) و(القمر) بأن الذين أطلقوا على ذلك الكتاب (غنى ومنى) هذه التسمية (الشمسية) كانوا يعرفون أن اسم المؤلف (القَمَري) وليس (القُمْري)؟

ومن ناحية أخرى يقول ابن فضل الله العُمَري (القَمَريّ): (ومنهم أبو منصورٍ الحسن بنُ نوحٍ القَمري قَمر سماءٍ ورقم عذار ظل في وجنةِ ماءٍ...).

لذلك فإننا نميل إلى أن اسم المؤلف هو (القَمَري) وليس (القُمْري).

وكانت الزميلة الدكتورة غادة الكرمي قد تقدمت لنيل الدكتوراه في الفلسفة (تاريخ الطب) عام (١٩٧٨) بأطروحة حول: (الكُنّاش الطبي العربي في القرن العاشر الميلادي) وتبنت فيها اسم (القَمَري)[١١١].

ولأن هذه الأطروحة لم تنشر، فإن أحداً لايعرف بعد الأسباب التي دعت الزميلة إلى اختيار هذا النطق للاسم (القَمَري).

معجم (التنوير في الاصطلاحات الطبيّة)

*التبويب

*من خطبة الكتاب

*مطلع الباب الأول

*نموذج من التحقيق النقدي

- ◻ الماليخوليا
- ◻ الكابوس
- ◻ الصرع

التبويب

هذا المعجم صغير الحجم، لاتكاد كلماته تزيد على الآلاف الخمسة[١١٢]، وفيه نحو ٣٥٠ مدخلاً.

ينقسم الكتاب إلى عشرة أبواب، الخمسة الأولى منها تعرّف ألفاظاً طبيّة وفق تصنيف المؤلف: (العلل، الحمّيات، الأعضاء..إلخ) والخمسة الثانية تهم الطبيب والصيدلاني (العلاجات، الأطعمة، أوزان الأدوية..إلخ).

---

[١١١] ذكر ذلك فريد سامي حداد وهانس هينرش بسنرفيلد (عام ١٩٨٤). انظر: فهرس مكتبة سامي حداد ص٤٩. كما ذكرت ذلك الزميلة الدكتورة غادة الكرمي في مطلع تحقيقها لكتاب (التنوير...) (عام ١٩٩١). انظر: مقدمة التحقيق، ص٢١.؟

[١١٢] انظر: مقالتنا (المعجمات..) في مجلة المجمع ٦٠ (١٩٨٥)، ص ١٢٣، وانظر كذلك الدكتورة غادة الكرمي (١٩٩١)، ص٢١-٢٢، ووفاء تقي الدين (١٩٩١)، ص٦.

وكنّا قد انتهينا من تحقيق[١١٣]هذا الكتاب عام ١٩٨٤، ونشرنا مقالة عنه في مجلة المجمع بدمشق[١١٤]، وفيها ذكرنا هذه الأبواب[١١٥]، لكنّ لابد من إعادة ذكرها هنا.

الباب الأول: في أسامي العلل الحادثة من الفرق إلى القدم.

الباب الثاني: في أسامي العلل الحادثة في سطح البدن.

الباب الثالث: في أسامي الحميات وتوابعها.

الباب الرابع: في أسامي مافي بدن الإنسان من عضو وغيره مما يجري مجراه.

الباب الخامس: في أسامي الطبائع ومافي معناها من الألفاظ والحوادث في بدن الإنسان.

الباب السادس: في أسامي الأشياء التي تستعمل في العلاجات.

الباب السابع: في أسامي الأطعمة والأشربة.

الباب الثامن: في أسامي ألفاظ الأقراباذينات.

الباب التاسع: في أسامي الأوزان والأكيال.

الباب العاشر: في اتّخاذ الأشياء التي لابدّ منها كل يوم.

ولابدّ أيضاً من أمرين اثنين:

أولهما إعطاء نموذج من هذا المعجم، وقد اخترنا فقرةً من خطبة الكتاب، وعشرةَ مداخل من مطلع الباب الأول، وذلك لإعطاء فكرة سريعة للقارئ.

وثانيهما إعطاء فكرة عن طريقتنا في (التحقيق النقدي). وكنّا قد نشرنا[١١٦]تحقيقاً لمصطلحات (أمراض العين) في الكتاب، وذلك في محاولة لتقييم عمل المؤلف. كما نشرنا شرحاً لبعض الفقرات المتعلقة بالصيدلة[١١٧]، وأخرى تتعلق بالأمراض العصبيّة[١١٨].

من خطبة الكتاب[١١٩]

يقول المؤلف:

"... وقد أحببت أن ألتقط من بطون الكتب وتضاعيف الكُنّاشات ألفاظاً هي عند أهل الصناعة معروفة، واتخاذ أشياء لابدّ منها في كلّ يوم، ثمّ لاتوجد تلك الأشياء إلاّ متفرقة في كتب شتّى،

---

[١١٣] انظر: مقالتنا في مجلة المجمع (المعجمات...) المجلد٦٦ (١٩٩١)، ص٤٧١.

[١١٤] بين أعوام، ١٩٨٥، ١٩٩١ في المجلدات ٦٠، ٦٢، ٦٦.

[١١٥] في مقالتنا (المعجمات..) مجلة المجمع، المجلد ٦٠ (١٩٨٥)، ص١١٩-١٢٣. كما عرضتها الزميلة الكرمي (١٩٩١)، ص٢٣-٢٩. وعرضتها أيضاً الزميلة تقي الدين (١٩٩١)، ص١٣-١٤.

[١١٦] مقالتنا: المعجمات... مجلة المجمع المجلد ٦٠ (١٩٨٥) ٤٨٤-٥١٤.

[١١٧] مقالتنا: المعجمات... مجلة المجمع المجلد ٦٦ (١٩٩١) ٤٨٠-٤٨٨.

[١١٨] مقالتنا: المعجمات... مجلة المجمع المجلد ٦٦ (١٩٩١) ٤٩٥-٥٠٤.

[١١٩] الدكتورة غادة الكرمي: ٤٩-٥٠. وفاء تقي الدين: ١٢-١٣.

والطارئ على هذا العلم يحتاج في تحصيلها والوقوف على معانيها إلى تكلّف شديد، ومقاساة تعب كثير. ولعلّ التبرّم بها ومعاناة التعب في طلبها يحمله على نبذها جانباً والإعراض عنها.

وأحببت أن أفسّر كلّ لفظة منها تفسيراً مجرّداً، من غير أن أذكر أسبابها وعللها، وأشرح اتخاذ كلّ شيء شرحاً كافياً، وأن لا أعدو فيها مذهب أهل هذه الصناعة وإنْ كانت اللغة تحتملُ غيره، وأهل البلدان والأقاليم مختلفون فيه".

مطلع الباب الأول[120]

١-الصداع: وجع الرأس كلّه.

٢-والشقيقة: وجع أحد شقّيه.

٣-البيضة: صداع ينوب بأدوار فيطلب صاحبه الظلمة والوحدة.

٤-الدّوار: أن يدور رأس الإنسان إمّا متحركاً وإمّا ساكناً.

٥-السّدَر: أن يرى إذا قام كأنّه في ظلمة أو ضباب.

٦-السّبات: إغراق الإنسان في نوم غير طبيعي، فإن تُرِكَ نام وإن حُرّكَ أو صيح به انتبه.

٧-الشّخوص: أن يبقى الإنسان شاخص العين لايطرف ولايميّز، والفرق بينه وبين السّبات أن السّبات مغموض العين والشخوص مفتوح العين.

٨-السبات السهري: أن ينام تارة ويسهر أخرى.

٩-السهر: ألاّ ينام البتّة.

١٠-السّرسام: هو ورم أغشية الدماغ.

نموذج من التحقيق النقدي

نسوق هنا تحقيقنا ثلاث اصطلاحات طبية وهي المداخل التي تحمل الأرقام ١٣-١٥ من الباب الأول من الكتاب: (الماليخوليا، الكابوس، الصرْع).

وقد حرصنا على مقارنة ماقاله المؤلف بما قاله أصحاب المعجمات الطبية، وكذلك بما ورد في أهم المؤلفات الطبيّة الأقدم التي صارت مفرداتها أنموذجاً للمصطلحات الطبيّة: (علي بن ربن الطبري الذي أخذ عن حنين)، (وصاحب الذخيرة الذي تأثّر كثيراً بحنين)، (والرازي الذي سار على خطا مصطلحات حنين بن إسحق).

---

[120] مقالتنا: المعجمات... مجلة المجمع المجلد ٦٦ (١٩٩١) ٥٠٥-٥٠٦. رناء تقي الدين (١٩٩١) ١٤-١٦. د.غادة الكرمي (١٩٩١)، ٥١-٥٦.

ويتّضح للقارئ أننا اقتصرنا على كتب الطب الموسّعة التي ظهرت باكراً (فردوس الحكمة) لعلي بن ربن الطبري، و(الذخيرة في الطب) المنحول لثابت بن قرّة، و(الطب المنصوري) لمحمد بن زكريّا الرازي، وكذلك كتاب (التقسيم والتشجير) للرازي، وهي كلها من القرن الثالث الهجري (=القرن التاسع الميلادي).

أما كتب القرن العاشر الميلادي فلم نستعمل منها إلاّ كنّاش الكشكري وكتاب كامل الصناعة الطبيّة (الكتاب الملكي) لعلي بن العبّاس المجوسي.

واستعملنا كذلك كتاب القانون لابن سينا لأهميته، وقد ظهر هذا الكتاب بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين (الرابع والخامس الهجريين).

ومن الكتب التي تندرج تحت تسمية (المعجمات الطبيّة) استعملنا مؤلفات:

- *الخوارزمي: مفاتيح العلوم.*
- *ابن هندو: مفتاح الطب.*
- *السجزي: حقائق أسرار الطب.*
- *ابن الحشّاء: مفيد العلوم ومبيد الهموم.*
- *الهروي: بحر الجواهر.*
- *لسان الدين بن الخطيب: الوصول لحفظ الصحّة في الفصول.*
- *القوصوني: قاموس الأطبّاء وناموس الألبّاء.*

أمّا معجمات اللغة فقد استعملنا منها: التقفية، جمهرة اللغة، الصّحاح، العين، فقه اللغة، لسان العرب، المحيط، المخصّص، ومقاييس اللغة.

كما اضطررنا إلى استعمال كتاب التهانوي وكتاب دوزي الشهيرين.

وذكرنا بشكل خاصّ تحقيق الزميل عبد العلي الودغيري لكتاب لسان الدين بن الخطيب بعنوان (مفردات ابن الخطيب).

المـــاليخـــوليا

(مرض سوداوي يُضِرُّ بالفكر من غير تعطّل الأفعال السياسيّة كما في الجنون واختلاط العقل. ومن أنواعه: القطرب والرعونة).

ورد هذا المصطلح في معظم كتب الطب[١٢١]، وأصله يوناني[١٢٢]. وقد جاء رسمه مختلفاً[١٢٣]: ماليخوليا، مالنخوليا، مالِخونيا.

---

[١٢١] من الكتب التي ظهرت قبل عصر المؤلف ولم تستعمل المصطلح: فردوس الحكمة: ١٣٨. وقد حاول المؤلف ترجمة الاصطلاح: (الوحشة وسوء الظن). وكذلك فعل صاحب الذخيرة: ٢٨. أما الرازي فقد استعمل: (الماليخوليا) في المنصوري (٢٨٦) والتقسيم.. (٨٦).

وقد لاحظ الوذغيري[١٢٤]أن المعجمات اللغوية خلت من هذا اللفظ، فحقّ لدوزي أن يستدركه[١٢٥].

ومن المهم أن نذكر أن المعجمات الطبيّة العربية قد أوردت هذه اللفظة[١٢٦].

وفي عصر المؤلف سمّى ابن هندو[١٢٧]الماليخوليا (الوسواس السوداوي) متأثراً بالمجوسي[١٢٨].

وقد اعتبر الأطبّاء العرب أن هذا المرض "ضرب من الجنون[١٢٩]" وميّزوه عن أنواع الجنون الأخرى[١٣٠].

ويؤكد القمَري في تعريفه أن المرض يضرّ بالفكر وهذه مقولة شائعة[١٣١].

ولهذا المرض أنواع منها: القطرب[١٣٢] والرعونة[١٣٣].

وفي الحقيقة فإن الأطباء العرب لايتفقون في مسألة تصنيف الجنون.

الكـــابـــوس

(أن يحس الإنسان في نومه كأنّ شيئاً ثقيلاً وقع عليه).

هذا التعريف أخذه القمري حرفيّاً عن الرّازي[١٣٤]، وكذلك فعل ابن هندو[١٣٥].

وكان المجوسي[١٣٦]قد وسّع عبارة الرّازي: "... أو كأنّ إنساناً.. يخنقه"، وهذا الجزء الإضافي اختاره الخوارزمي[١٣٧].

---

[١٢٢] أكّد على الأصل اليوناني من أصحاب المعجمات الطبيّة: الهروي (٦٦٠) والقوصوني (١: ١٤).

[١٢٣] ابن الحشّاء: مالنخوليا: (٦٧٩) ٧٣.

الهروي: (بعد اللام الأولى نون، وقبل ياء) ٦٦٠.

القوصوني: (بالنون الساكنة وفتح اللام الأولى وكسر الثانية) ١: ١٤.

ابن الخطيب: مالِنخونيا (٣٩٦) ٧٩.

[١٢٤] الودغيري: (وهي مهملة في ابن منظور والمنجد والمعجم الوسيط)، (وقد استدركها دوزي)، ص٧٩ الهامش.

[١٢٥] دوزي: ٢: ٥٧٣.

[١٢٦] الخوارزمي: ١٦٠، ابن هندو: ١٢١، ٧٠٣، ابن الحشّاء: (٦٧٩) ٧٣، السجزي: ص١١٧أ. ابن الخطيب: ٧٩، الهروي: ٦٦٠، القوصوني: ١: ١٤-١٥.

[١٢٧] مفتاح الطب: ١٢١، ٧٠٣.

[١٢٨] كامل الصناعة: ١: ٣٣٢.

[١٢٩] الخوارزمي: (١٨٧) ١٦٠. الثعالبي: ٨٥. وكلاهما تأثر بالرازي حينما وصف المرض. انظر: المنصوري: ٣٨٦.

[١٣٠] مثلاً: الجنون السبعي. انظر: الهروي: ٦٦٠.

[١٣١] المنصوري: (أفكار رديئة...): ٣٨٧. التصريف: (فساد الفكر...): ٧٧ وكذلك ابن سينا فيما بعد: (... تغيّر الظنون والفكر..): ٦٥.

وعن ابن سينا أخذ الآخرون، مثلاً: ابن الحشّاء: (فساد الفكر وسوء الظنون): (٦٧٩) ٧٣. الهروي: (تغيّر الظنون والفكر...): ٦٦٠.

[١٣٢] انظر: الهروي:٢٣٧. والقوصوني: (القطرب نوع من المالنخوليا) ١: ٥٥.

[١٣٣] الرعونة: (الحمق). ابن الحشّاء: (٤٨٤)٥٢. الهروي: ١٤١. القوصوني: ٢: ١٥٧.

[١٣٤] المنصوري: ٣٨٦.

[١٣٥] مفتاح الطب: ١٢٢، ٧٠٤.

وبينما استعمل القمري كلمة (شيئاً ثقيلاً)[١٣٨]، واستعمل الخوارزمي كلمة (إنساناً ثقيلاً) - وأصلها من المجوسي-، استعمل آخرون[١٣٩] (خيالاً ثقيلاً).

ومصطلح (الكابوس) معروف منذ القرن التاسع[١٤٠].

ويحاول الهروي أن يفسّر سبب اختيار هذه الكلمة مصطلحاً: (... وإنما سُمّي به لأن البخارات الغليظة تكبس جرم الدماغ..)[١٤١].

ويقول القوصوني: (.. قال بعض أهل اللغة:" ولاأحسبه عربياً.."[١٤٢]

وكتب القوصوني[١٤٣]: إن الكابوس سمّي بالعربية: (الجاثوم) أو (النِّيْدُلان)[١٤٤].

وفي لسان العرب: النِّيدِلان وهو الباروك والجاثوم[١٤٥]. وعند الهروي: الخانق[١٤٦] والضاغوط[١٤٧].

وكلمة (الكابوس) معروفة منذ أيام الخليل[١٤٨].

---

[١٣٦] كامل الصناعة: ١: ٣٣٦.

[١٣٧] مفاتيح العلوم: ١٦٠.

[١٣٨] كما في المنصوري وكامل الصناعة.

[١٣٩] ومنهم:

- السجزي: برلين ١١٨أ- ١١٨ب.
- الهروي: ٢٤٣.
- القوصوني: ١: ٢١٨.

[١٤٠] مثلاً عند:

- الطبري: ١٥١.
- وصاحب الذخيرة: ٣٤.

[١٤١] بحر الجواهر: ٢٤٣.

[١٤٢] القوصوني ١: ٢١٩ وكذلك: جمهرة اللغة: ١ : ٢٨٧(وأحسبه مولّداً).

المخصص ٥: ١٠٩(ولاأحسبه عربياً).

وفي اللسان٣: ٢١٣ مثل المخصص.

[١٤٣] القوصوني: ١: ٢١٨.

[١٤٤] ابن الحشاء: (٦١٥) ٦٦: (النِّيْدُلان) وكذلك:

- المخصص ٥: ١٠٩، والقانون.
- القوصوني: (بكسر النون وتثليث الدال، وبفتح النون وضم الدال وفتحها) ٢: ٤٦. ووردت الكلمة بأشكال أخرى:
- النِدلان: في تهذيب اللغة ١٠: ٨٠.
- النيدلان: في اللسان ٣: ٢١٣.

[١٤٥] الباروك: في تهذيب اللغة أيضاً: ١٠: ٨٠.

الجاثوم: في تهذيب اللغة أيضاً: ١٠: ٨٠، وكذلك في القانون: ٢: ٧٦.

[١٤٦] الخانق: بحر الجواهر: ١١٠، وقبله: القانون.

[١٤٧] الضاغوط: بحر الجواهر: ١٨٨.

[١٤٨] العين: ٥: ٣١٦: (مايقع على الإنسان بالليل). ومثله:

- مقاييس اللغة: ٥: ١٥٤.
- المحيط: ٧٣٤.

الصَّرْع

(أن يخرّ الإنسان ويفقد العقل، ويلتوي على نفسه ضروب الالتواء، وتتعوّج أعضاؤه، وربما أزبد أو بال أو أنجى أو قذف المني، ثم يفيق ويرجع إلى حاله).

الطبري[149]: سقط، خرّ، تزبّد فمه.

الرازي[150]: خرّ، التوى، أزبد، أنجى، أمنى.

من الواضح أن القمري ينقل تعريفه لهذه العلّة عن (المنصوري)[151].

والصَّرْع كلمة معروفة في العربية بمعنى (السقوط بالأرض)[152]،وعلى ذلك فإن الهروي والقوصوني يفهمان أن هذا الداء سُمي (باسم عَرَضٍ يلزمه وهو السقوط)[153].

ولم تذكر المعجمات القديمة[154]المعنى الطبيّ الاصطلاحي لكلمة (الصَّرْع)، ولكنّ المعجمات الحديثة[155]أوردتها بهذا المعنى: (علّة).

وقد عرف العرب الكلمة اليونانية: افلبسيا[156]، ابيلمسيا[157]، وسمّو هذا المرض أيضاً (بالمرض الكاهني)[158].

ولكن مصطلح (الصَّرْع) كان مسيطراً منذ أن ترجم العرب أعمال المؤلفين الإغريق[159].

ولايزال المصطلح اليوناني حيّاً[160].

□□□

*الصحاح: ٢: ٣٧٢؛ ومثلها: جمهرة اللغة واللسان.

[149] فردوس الحكمة: ١٣٨-١٤٦.

[150] المنصوري: ٣٨٥.

[151] المنصوري: ٣٨٥.

[152] القوصوني: ١: ٢٥٩. وكذلك في المعجمات، مثلاً:

*العين: ١: ٢٩٩.

*مقاييس اللغة: ٣: ٣٤٢.

*اللسان: ٢: ١٤٣٠، وفي طبعة أخرى: ٨: ١٩٧.

[153] الهروي: ١٦١.

[154] مثلاً: (العين) و (التقفية).

[155] الصحاح: (١: ٧١٦): (علّة عصبيّة).

اللسان: (٢: ٤٣١): (علّة معروفة).

[156] الطبري: ١٣٨.

[157] الكشكري: ٢٤٣.| الهوسي: ١: ٣٣٠-٣٣٦.

[158] القوصوني: ١: ٢٥٩.| التهانوي: ١: ٩١٦.

[159] ينقل القمري في (غنى ومنى) -الباب العاشر- عبارات مترجمة عن اللغة اليونانية استعملت جميعها مصطلح (الصَّرْع)، ومنها عن: أبقراط، جالينوس، روفس وغيرهم.

[160] في اللغات الأوربية اليوم Epilepsie.

اللوحات في آخر المقال :

الصفحة ١٥١

التنوير في الاصطلاحات الطبية :

- مخطوط استانبول المحفوظ في مكتبة طوبقابوسراي.
- أحمد الثالث رقم ٢٠٤٠/ ١
- انظر ششن ص ٣١٧.

الصفحة ١٥٢:

- مخطوط دبلن من كتاب التنوير..
- محفوظ في مكتبة تشستربيتي برقم /٤٠٠١/.
- الصفحة الثالثة من المخطوط.

الصفحة ١٥٣:

- قفا الورقة ٣٨ ووجه الورقة ٣٩ من كتاب التنوير.
- مخطوط استانبول المحفوظ في المكتبة السليمانية.
- أيا صوفيا رقم ٣٧٣٧.

الصفحة ١٥٤

الصفحة ٢٥٤ من ترقيم سزكين لمخطوطة (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)
وكان قد نشرها مصوّرةً (فاكسيميلي) عام ١٩٨٨
الكتاب لابن فضل الله العمري المتوفي عام ٧٤٩هـ.

الصفحة ١٥٥:

- جزء مفصل من فهرس المكتبة البودلية بأوكسفورد.
- نشرة يانوش أوري عام ١٧٨٧.

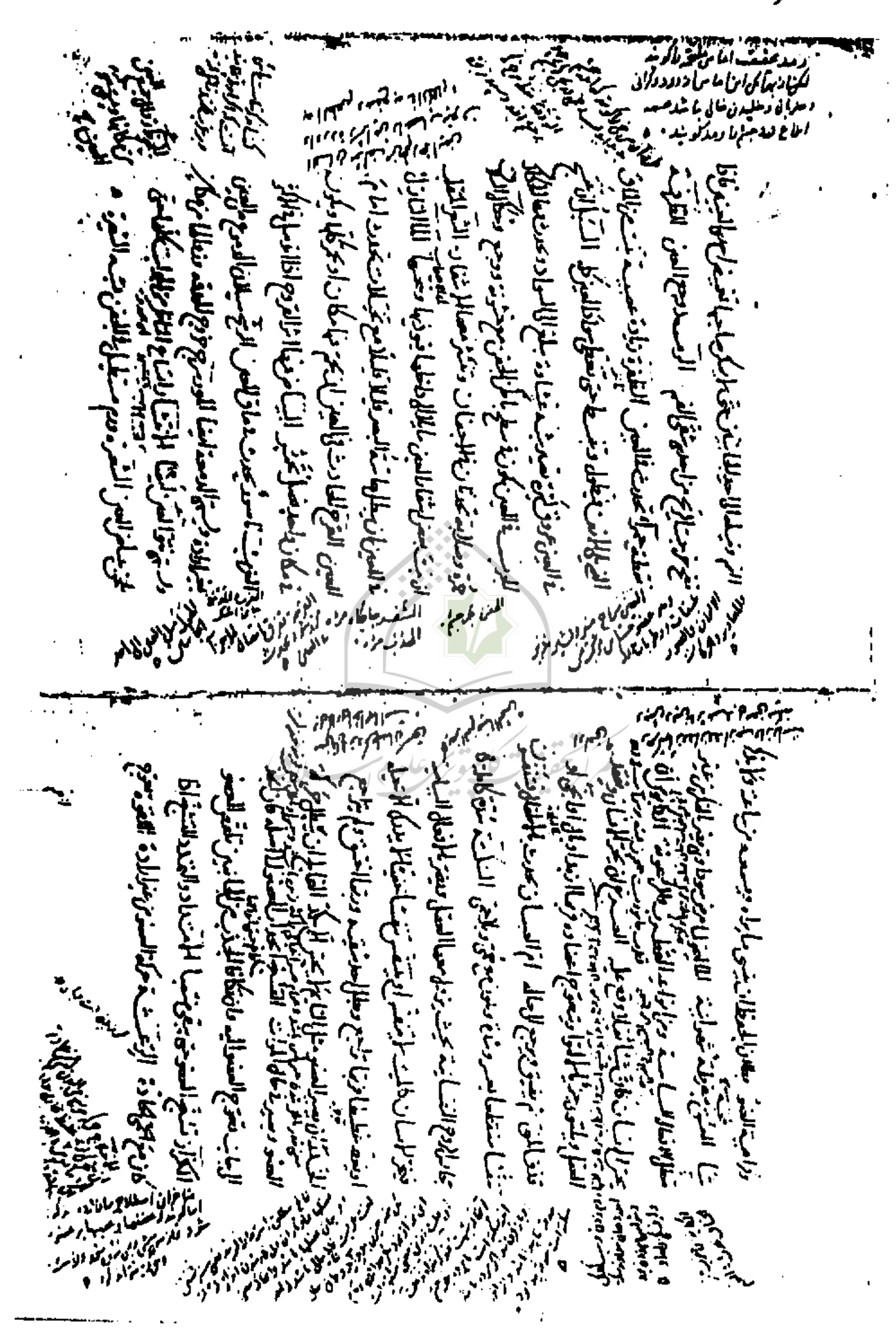
□□□

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابو منصور الحسن بن نوح القمري رحمة الله
عليه اني لكنه معرفتي بفضل علم الطب على ساير العلوم
وعلمي بحاجة كل شخص في كل وقت وكل مكان اليه وشدة
حرصي على ما يرغب الناس في تعلمه لا زلت متفكرا في جميع ما
يقرب منه البعيد ويسهل الوعر ليزداد المبتدي الشارع
فيه قوة عزيمته وثبات عزيمته على دراسته واستكمال
الحكمة منه وقد احببت في هذا الوقت ان التقط من
بطون الكتب وتصانيف الكناشات الفاظا هي عند
اهل الصناعة معروفة واتخذ الاشيا التي يحتاج
الطبيب اليها في كل وقت ثم لا يوجد تلك الاشيا الا في
كتب متفرقة والطاري على هذا العلم يحتاج في تحصيلها
والوقوف على معانيها الى تكلف شديد ومقاساة
تعب كثير ولعل معاناة التعب في طلبها يحمله على نبذها
جانبا والاعراض عنها وافسر كل لفظة تفسيرا مجردا
من ان اذكر عللها واسبابها واشرح كل شي شرحا كافيا
وافيا وفيها مذهب اهل هذه الصناعة وان كانت
اللغة تحتمل غيره واهل البلدان والاقاليم مختلفون فيه
وادخلها عشرة ابواب واقيد كل لفظة بصواحبها
في الباب الذي افردها لئلا يلتبس بعضها ببعض ويعسر
وجودها ويبعد متناولها الاول في اسامي العلل الحادثة
من القرن الى القدم الثاني في اسامي العلل الحادثة في
سطح البدن الثالث في اسامي الحميات و[illegible]
الرابع في اسامي ما في بدن الانسان من عضو وغيره

الشعيرة ورم مستطيل في الجفن يشبه الشعير. الجرب خشونة تحدث في الاجفان
تعسر فتحها بعد النوم. العشا ان لا يبصر بالليل والجهر ان لا يبصر نهارا.
الخفش ان يبصر بصرا ضعيفا كما يبصر الخفاش. الطرش بطلان حاسة السمع.
الخشم بطلان حاسة الشم. الناسور في الانف قرحة [illegible] فيسيل منه صديد
وربما طال حتى ينتن منه. الرعاف سيلان الدم من الانف. الضفدع ورم يحدث
تحت اللسان. القلاع بثور وقروح حارة تحدث في جلد الفم اما بيض او
صفر او حمر او سود. البخر نتن رائحة الفم. الخوانيق ورم يحدث
في الحنك واللهات والبلع ومن انواعه الذبحة والذئبة واللوزتان. الزكام
تحلب الرطوبات من الرأس الى المنخرين او نحوها. والنزلة تحلب الى الحلق
والصدر. الربو [illegible] اسباب النفس [illegible] ذات الرئة
ورم في الرئة. ذات الجنب ورم في الصدر والحجاب [illegible] الاضلاع ومن انواعه الشوصة
البرسام ورم الحجاب الحاجز المسمى [illegible]. السل قرحة في الرئة مع حمى دقيقة
ونحول الجسم. السعال [illegible] الخفقان اضطراب
القلب لوجع ونحوه. القيء [illegible]. الفواق تشنج يعرض من
في فم المعدة مضطرب. الشهوة الكلبية جوع مفرط [illegible] صاحبه. العطش
عطش مفرط لا يروى صاحبه. القيلة(؟) الاشتياق الى الاشياء الردية الغير المعتادة
مثل الطين والفحم والجص ونحوها. الهيضة(؟) ان يخرج الطعام على [illegible] ٥
[illegible] استطلاق [illegible]. الذرب استطلاق البطن. زلق الامعاء
[illegible] النفس وجع الامعاء. [illegible] الخلفة
[illegible] البطن [illegible]. الزحير [illegible] الى البراز فيخرج [illegible]
[illegible] ودم [illegible] في المقعدة. القولنج [illegible]
[illegible]. اليرقان اصفرار البدن كله او اسوداده.
الاستسقاء [illegible] البطن [illegible] الطبلي والزقي واللحمي

الربو [illegible] النفس [illegible]



الابدان ويقوم طبه مقام المشمس في برء البلدان ولم يعدم ومضة ادب بدت له تضيء لمعانها ويجيء بمسودة اللمم ريعانها ويدنو مداها ويبعد امكانها

قال ابن النديم علي بن ربل باللام كان يكتب للمازيار بن قارن فلما اسلم علي بد المعتصم قربه وظهر فضله وادخله المتوكل في ندمائه وكان بموضع من الادب وهو الذي علم العين زري صناعة الطب وكان مولده ومنشاؤه بطبرستان ومن كلامه الطبيب الجاهل مستحث الموت

ومنهم احمد بن محمد الطبري ابو الحسن تقدم بتقدم المعرفه وتقدم الى الدراء فضرفه مع اتقان لتشريح الاعضاء واتقاء لغير صريح الارتضاء بفهم حسن للاستنباط وعلم يحسب في معرفة ما بين القصب والرباط هذا الى استقصاء الاعراض والدلايل والامراض بسبب من خارج او داخل لم يعد الصواب حدسه ولا عدى ذوي الخطا حسه حتى قيل انه لو اراد لاطال شعر الاجفان واقام الاموات من الاكفان بتلطف يحاذ بمسك بورمق النهار ويرم في الصباح صبغة الليل الشايب

قال ابن ابي اصيبعة فاضل عالم بصناعة الطب وكان طبيب ركن الدولة وله الكناش المعروف بالمعالجات البقراطيه وهو من اجل الكتب وانفعها يحتوي على مقالات كثيرة وقد استقصى فيه ذكر الامراض ومداواتها على اتم ما يكون

ومنهم ابو منصور الحسن بن نوح القمري قمر سماء ورم عزار نمل في وجنة ماء ونو حكمة ما تقشع سحابها ولا توشع بغير مطرف الفضايل سحابها اتي مجلس الرئيس ابن سينا وحضره وشاهد سيما سمته ونظره وكان يعده فيمن ادركه ويعد من العلم له ما تركه ويطوي في حفظه من

DCXLII.

Codex bombycinus, fine decurtatus, foliis 60 conftans, quo comprehenditur Tractatus Medicus, in fectiones tres diftinctus, quarum prima de morbis differit particularibus; fecunda, de morbis externis; tertia, de febribus. Auctor eft ABU MANSUR ALHASAN BEN NUH ALCAMARI[h]. Laudantur HIPPOCRATES et GALENUS. [Marfh. 80.]

أخبار التراث العربي

تهتم بأخبار العلماء والباحثين والجامعات والمراكز العلمية

فيما يتعلق بشؤون التراث العربي

محمود الأرناؤوط

•معرض الكتاب العربي في دورته الخامسة عشرة بمكتبة الأسد الوطنية بدمشق:

رعاية السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية تم افتتاح معرض الكتاب العربي الخامس عشر في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، وذلك يوم الأربعاء (٥جمادى الآخرة لعام ١٤٢٠هـ=١٥ أيلول- سبتمبر ١٩٩٩م) وقد نابت عن السيد الرئيس حافظ الأسد في حفل الافتتاح السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة، وحضر حفل الافتتاح عدد كبير من المسؤولين في الجمهورية العربية السورية، كما حضره عدد كبير جداً من المعنيين بشؤون العلم والفكر والثقافة من سورية وخارجها، واستمرت فعاليات المعرض إلى مساء يوم السبت (١٥جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ=٢٥ أيلول- سبتمبر) وشارك فيه إضافة إلى سورية عدد من الأقطار العربية الشقيقة من خلال أجنحة مختلفة زادت على (٢٣٠) جناحاً، ورافقت أيام معرض الكتاب ندوة علمية هامة في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد تحت عنوان (حوار الحضارات) شارك فيها الأساتذة المحاضرون التالية أسماؤهم:

١-الدكتور يوسف سلامة من سورية
٢-الدكتور حسن حنفي من مصر
٣-الدكتور مروان فارس من لبنان
٤-الدكتور سامي الخيمي من سورية
٥-الدكتور رضوان السيد من لبنان
٦-الدكتور عادل العوا من سورية
٧-الدكتور سمير أمين من مصر
٨-الدكتور عبد الباقي أمين من مصر.

وقد لقيت المحاضرات اهتماماً واسعاً من قبل جماهير المثقفين والمهتمين بشؤون العلم والحضارة.

*الدكتور مسعود بوبو في ذمة الله:

انتقل إلى رحمته تعالى الزميل الأستاذ الدكتور مسعود بوبو، عضو هيئة تحرير مجلة التراث العربي، عضو جمعية البحوث والدراسات في اتحاد الكتاب العرب، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، المدير العام لهيئة الموسوعة العربية في سورية، وذلك يوم الاثنين الواقع في ١٠/ جمادى الأخرة/ ١٤٢٠هـ، الموافق ليوم ٢٠ أيلول- سبتمبر ١٩٩٩م، أثناء زيارة له لباريس بفرنسا.

ولد الأستاذ الدكتور مسعود بوبو في اللاذقية سنة (١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م) وتلقى تعلميه الأولي فيها، وتخرج من قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق، وحصل على درجة الدكتوراة من جامعة الاسكندرية بمصر، ومارس التدريس في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة دمشق سنوات طويلة، وتأثر بالعلاّمة الأستاذ أحمد راتب النفّاخ، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وأقيم له حفل استقبال في قاعة المحاضرات الجديدة في المجمع تحدث فيه المترجم، وأستاذنا الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق،، والأستاذ الدكتور إحسان النص نائب رئيس المجمع، وحضره جمع غفير من المهتمين والدارسين. وكان له نشاط واسع في خدمة العربية ومايتصل بها في المنتديات والصحف والإذاعة في سورية، وخلّف عدداً من البحوث والدراسات، منها: "أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج"، و"نافذة على اللغة" و"أبحاث في اللغة والأدب" و"في فقه اللغة"، وأشرف على إعداد عدد من رسائل التخرج بجامعة دمشق، وناقش عدداً آخر منها، وكتب عن أعماله العلمية دراسات عدة. وكان خلوقاً متواضعاً، يصغي للآخرين ولو خالفوه الرأي وينشد الفائدة حيثما وجدها، مبتعداً عن الغرور والتباهي، رحمه الله وأحسن إليه.

*من أخبار المراكز العلمية والجامعات:

- عن مجمع اللغة العربية بدمشق صدر الجزآن الثالث والرابع من مجلة المجمع (المجلد الثالث والسبعون) بعد طول انتظار، وفيها بحوث الندوات التي انعقدت في المجمع عام (١٤١٧هـ=١٩٩٧م) تحت عنوان: "اللغة العربية وآفاق المستقبل" وقد احتوى الجزء الثالث منهما على الكلمات الافتتاحية التالية:

أ- كلمة السيدة الأستاذة الدكتورة صالحة سنقر وزيرة التعليم العالي في الجمهورية العربية السورية.

ب-كلمة الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

ج- كلمة الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب رئيس مجمع اللغة العربية في السودان ممثل الوفود العربية.

كما احتوى هذا الجزء أيضاً على البحوث التالية:

•اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين، للدكتور محمود فهمي حجازي.

•إحياء العروض، للدكتور محمد حسّان الطيان.

•الحاسوب في خدمة اللغة العربية، للدكتور محمد مراياتي.

•المعجم الحاسوبي للعربية، للأستاذ مروان البواب.

•مشكلة الأاء في اللغة العربية، للدكتور عبد اللّه الطيب.

•مشكلة الأداء في اللغة العربية، للدكتور عبد الكريم الأشتر.

•مشكلة الأداء في اللغة العربية، للدكتور مسعود بوبو.

• ضعف الأداء في اللغة العربية، أسبابه وعلاجه، للدكتور محمد المختار.

• الأداء في اللغة العربية، أسباب الضعف ووسائل العلاج، للدكتور محمود السيد.

•المعجم، العربي، للأستاذ جورج متري عبد المسيح.

•المعجم العربي الحديث اللااشتقاقي، للدكتور عبد الإله نبهان.

•العروض العربي بين اللسانيات والإيقاع، للدكتور إسماعيل الكفري.

•المصطلح العربي في عصر العولمة، للدكتور أحمد بن محمد الضبيب.

واحتوى الجزء الرابع من أجزاء (المجلد الثالث والسبعون) على بقية الأبحاث التي ألقيت في الندوة وهي:

•نحو منهجية للتعريب اللفظي، للدكتور ممدوح خسارة.

•التعريب والمصطلح، للأستاذ شحادة الخوري.

•كلمة حول جهود أكاديمية المملكة المغربية في السهر على حسن استعمار اللغة العربية في المغرب، للدكتور محمد بن شريفة.

•الإعلان وتأثيره في اللغة العربية، للدكتور عصام نور الدين.

•تيسير البلاغة، للدكتور أحمد مطلوب.

•نحو تيسير قواعد اللغة العربية، للدكتور أحمد حسن حامد.

•تيسير مباحث النحو والصرف، للدكتور سامي عوض.

•قواعد الإملاء العربي، نظرات في غابرها وحاضرها، للدكتور عمر الدقاق.

•إعادة صوغ قواعد العربية، للأستاذ يوسف الصيداوي.

•إعادة بناء مفاهيم النحو، للدكتور حورية الخياط.

*العلل التعليمية وأهميتها في النحو العربي، للدكتور سعد الكردي.
*أبواب الفعل الثلاثي: دراسة لغوية تحليلية إحصائية باستخدام الحاسوب، للدكتور محمد جواد النوري.
*من تاريخ التعريب والمعرب (تقريب) الشيخ طاهر الجزائري، و(تهذيب) الدكتور أحمد عيسى، للدكتور عز الدين البدوي النجار.

*توصيات الندوة.

*كلمة جلسة الختام لأستاذنا الدكتور شاكر الفحام، رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

ويمثل نشر أبحاث الندوة في مجلة مجمع اللغة العربية اهتمام هذا الصرح العظيم بشؤون العربية وقضايا دارسيها في كل مكان وصل إليه حرف الضاد ودرس، ولكن يؤخذ على هيئة المجلة أمر هام ألا وهو عدم التعريف ولو بإيجاز بالمشاركين على صفحات المجلة مع ذكر أسماء الأقطار التي يمثلونها وهو مادرجت عليه المجلات والجهات العلمية عند نشر بحوث أمثال هذه الندوة، كما يؤخذ عليها عدم نشر التعقيبات والمناقشات التي شهدتها الندوة لاكتمال الفائدة ووصولها إلى أيدي الدارسين والباحثين.

*وعن جامعة آل البيت في المملكة الأردنية الهاشمية، صدر حديثاً مجلد كبير احتوى على أوراق العمل التي قدمت للندوة الدولية التي انعقدت في الجامعة المذكورة في المدة من (٢١-٢٤محرم ١٤١٨هـ= ١٨-٢١أيار- مايو ١٩٩٨م) تحت عنوان (ترجمات القرآن الكريم إلى لغات الشعوب والجماعات الإسلامية) وقد تصدرت هذا المجلد الهام كلمة تقديم لرئيس الجامعة العالم الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، ثم كلمة أخرى لمدير معهد بيت الحكمة التابع للجامعة والمشرف على أعمال الندوة الصديق الدكتور محمد موفق الأرناؤوط، وقد تمثلت أوراق العمل المقدمة للندوة بما يلي:

*شهادة عن تفسير ترجمات القرآن الكريم إلى اللغة الانكليزية، للدكتور محمد محمود غالي، من مصر.
*شهادة عن الترجمة الانكليزية للقرآن الكريم، للشيخ عز الدين الحايك، من سورية.
*شهادة عن الترجمة الألمانية للقرآن الكريم، للدكتور عادل خوري، من ألمانيا.
*شهادة عن الترجمة الجديدة المفسرة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الألمانية، للأستاذ عبد الحليم خفاجي، من ألمانيا.
*شهادة حول الترجمة البرتغالية للقرآن الكريم، للأستاذ سمير الحايك، من البرازيل.
*شهادة حول الترجمة البلغارية للقرآن الكريم، للدكتور نديم حافظ إبراهيم غندجيف، من بلغاريا.
*شهادة حول الترجمة التفسيرية للقرآن الكريم إلى اللغة الكردية، للأستاذ نظام الدين عبد الحميد،

من انكلترا.

•شهادة عن الترجمة الأولى للقرآن الكريم إلى اللغة الألبانية، للدكتور فتحي مهدي، من كوسوفا.

•ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية، للدكتور ديمتري ميكولسكي، من روسيا.

•الترجمة الروسية الجديدة للقرآن الكريم، للدكتور عماد حاتم، من الأردن.

•ترجمات القرآن الكريم إلى اللغة البوسنوية وقيمها الأسلوبية، للدكتور أسعد دوراكوفيتش، من البوسنة.

•نظرة مقارنة بين الترجمتين الأوليين (الصربية والألبانية) للقرآن الكريم في البلقان، للدكتور محمد موفق الأرناؤوط (مدير معهد بيت الحكمة بجامعة آل البيت في الأردن) من سورية.

•ترجمة معاني القرآن الكريم في ألمانيا (دراسة مقارنة) للدكتور محمود العلي حسينات، من الأردن.

•دراسة نقدية لترجمة يوسف علي (وهو عبد الله يوسف علي من علماء الهند) للدكتور بهجة الحباشنة، من الأردن.

•دراسة نقدية لترجمة القرآن الكريم باللغة الانجليزية لـ (ن.ج. داود) للدكتور عبد الله الخطيب، من الأردن.

•الترجمة الأمريكية الأولى لمعاني القرآن الكريم، للدكتور كمال كامل نمر، من الولايات المتحدة الأمريكية.

•الترجمة التفسيرية للشيخ أشرف علي التهانوي وقيمتها العلمية في فهم رسالة القرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي.

•الترجمة الأوردية لسورة الفاتحة في ترجمات القرآن الكريم لأبي الكلام آزاد، للدكتور جلال الحفناوي، من مصر.

•بعض العقبات التي تواجه الترجمات الفرنسية لمعاني القرآن الكريم، للدكتور حسين رحيل، من الأردن.

•أهمية ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى، من زاوية موضوع العقيدة، للدكتور عبد الرحيم كوزال، من جامعة أرجيس.

•الاختلاف حول ترجمات القرآن الكريم، للدكتور محمد كمال عاتك، من جامعة أرجيس.

•ترجمات القرآن الكريم في تركيا والمشاكل التي طرأت في الاصطلاحات القرآنية، للدكتور طلعت صاقلي، من تركيا.

•مشكلة ترجمة القرآن الكريم بين اللغات (نماذج من الترجمات الفارسية) للدكتور نصر اللّه شاملي، من إيران.

•الوجوه الإعرابية ودورها في ترجمة القرآن الكريم، للدكتور علي مير لوحي فلاورجاني، من إيران.

•العقبات التي تعترض ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الألبانية، للدكتور رامز زكاي، من ألبانيا.

من أخبار دور النشر في سورية والوطن العربي:

•إصدارات جديدة:

*عن دار المعارف للنشر والتوزيع في الرياض، صدرت:

•"موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعية" مرتبة على نسق حروف المعجم، واشترك في تصنيفها الأساتذة: د. إبراهيم طه القيسي، د. حمدي محمد مراد، علي حسن علي الحلبي، وتقع في خمسة عشر مجلداً الثلاثة الأخيرة منها للفهارس العامة.

ويؤخذ على المشتغلين في هذه الموسوعة الاكتفاء بإيراد الأحاديث والآثار من مصادرها مع الإشارة إلى ورودها في المصادر الأخرى فقط، وعدم الاهتمام بإيراد آراء وأحكام العلماء المحدثين من متقدمين ومحدثين بالأحاديث والآثار ولو على سبيل الاختصار لتكمل الفائدة المرجوة من الموسوعة، يضاف إلى ذلك اعتماد بعض المصادر في طبعات ليست معتمدة بين أيدي المشتغلين بالبحث والتحقيق.

*وعن دار الصميعي في الرياض، صدر الكتاب الآتي :

•الإمام مسلم بن الحجاج ومنهجه في الصحيح وأثره في علم الحديث، ومعه "غرر الفوائد المجموعة من الأحاديث المقطوعة" لرشيد الدين يحيى بن علي العطار، المتوفى سنة (٦٦٢)هـ، ويقع في مجلدين، وهو من إعداد وتحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن سلمان.

*وعن دار طيبة في الرياض صدرت الكتب التالية:

•التصحيف وأثره في الحديث والفقه وجهود المحدثين في مكافحته، وهو من إعداد أسطيري جمال، ويقع في مجلد واحد.

•وكتاب الأحكام، لابن القطان المتوفى سنة (٦٢٨)هـ، بتحقيق د.الحسين آيت سعيد، ويقع في ست مجلدات.

•علم تخريج الحديث (أصوله، طرائقه، مناهجه) من تأليف د. محمد محمود بكار، ويقع في جزء صغير.

*وعن دار ابن حزم في بيروت صدرت الكتب الآتية:

•تسمية شيوخ أبي داود السجستاني، للغساني، ومعه حاشية لابن الدباغ، تحقيق جاسم بن محمد ابن حمود الفجي.

•علم زوائد الحديث (دراسة ومنهج ومصنفات) تأليف عبد السلام محمد علوش.

*إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر، للشوكاني، تحقيق خليل بن عثمان الجبور السبيعي.

*مشكلات موطأ مالك بن أنس، للبطليوسي، دراسة وتحقيقه طه بن علي بوسريح التونسي.

*تنقيح الكلام في الأحاديث الضعيفة في مسائل الأحكام، تأليف زكريا بن غلام قادر الباكستاني.

*رفع اليدين في الصلاة، للبخاري، بتخريج بديع الدين الراشدي.

*الجمع بين الصحيحين (البخاري ومسلم) للحميدي، تحقيق د. علي حسن البواب، ويقع في أربع مجلدات، وينشر لأول مرة وهو على جانب كبير من الأهمية.

*المجالسة وجواهر العلم، للدينوري، في عشر مجلدات، بتحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

*وعن دار الفكر بدمشق صدر كتاب "شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم" للعلاّمة نشوان بن سعيد الحميري اليمني، المتوفى سنة (٥٧٣)هـ، وقد أحاط -رحمه اللّه- بعلوم عصره، فاهتم بالأدب والتاريخ والأخبار والآثار القديمة، وتميز باستقلالية فكرية وبميل إلى الاعتدال والإنصاف، وعاب على المقلدين قصورهم عن إعمال العقل وأوغل في انتقادهم، رابطاً بين التقليد وضعف الدين، متخذاً من القرآن الكريم وأقوال من سبقه وعاصره أدلة تعزز موقفه، وكتابه موضوع الكلام اسم على مسمىً، فهو كالشمس للباحث يضيء له الدرب، ويعينه على الوصول إلى مراده من أيسر سبيل، وليس هو بالمعجم اللغوي وحسب، بل يعد موسوعة جامعة ضمت بين دفتيها معارف زاخرة ومعلومات ثرة في شتى العلوم الشائعة من علوم الأوائل وعلوم العرب والمسلمين، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والمسائل الفقهية، وذكر الفرق الإسلامية، وتراجم الأعلام، وأنساب الأشراف وأخبارهم، والمعلومات الجغرافية، وعلوم الطب والفلسفة، وشواهد بليغة من الشعر والنثر وعلوم الفلك والنبات والمعادن والأحجار، وغير ذلك كثير.

وقد تولت تحقيق هذا السفر الكبير لجنة من علماء اليمن مؤلفة من الأستاذ الدكتور حسين بن عبد الله العمري، والأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد اللّه، والأستاذ الدكتور مطهر بن علي الإرياني.

*وعن دار البشائر الإسلامية ببيروت صدرت الكتب الآتية :

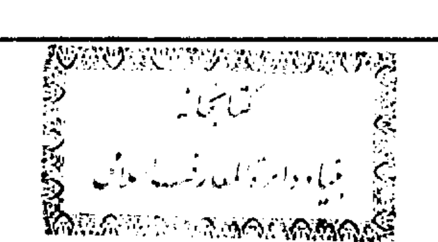
*ثبت مسموعات الحافظ ضياء الدين المقدسي، تحقيق الدكتور محمد مطيع الحافظ، ويقع في مجلد صغير، وهو هام ونافع للمشتغلين بالحديث النبوي الشريف.

*كتاب الأدب، لأبي بكر بن أبي شيبة، تحقيق الدكتور محمد رضا قهوجي.

*معجم شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، للدكتور عامر حسن صبري.

*الاجتهاد في علم الحديث وأثره في الفقه الإسلامي، للدكتور علي نايف بقاعي.

*كتاب الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين، للهمذاني، تحقيق الدكتور عبد الستار أبو غدة.



*وعن جامعة دمشق صدر كتاب "المكتبة العربية"، وهو مقرر على طلاب السنة الأولى في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق، وقد اشترك في تأليفه ثلاثة من أساتذة القسم المذكور وهم: الدكتور شوقي المعرّي، والدكتور محمد شفيق البيطار، والدكتور محمد علي دقة، وهو كتاب نافع يأخذ بيد الدارس ويضعه وجهاً لوجه مع عدد كبير من أسفار المكتبة العربية في مجالات مختلفة كالشعر والأدب والتراجم والموسوعات، ولو أن لجنة التأليف تعرضت لكتب علوم القرآن وعلوم الحديث، لجاء الكتاب أكثر شمولاً وأعظم فائدة، إذ لايصح إسقاط علوم القرآن وعلوم الحديث من كتاب مثل هذا خصص في الأساس لتعريف الطالب بالمكتبة العربية، وتلك الكتب التي لم تدرس فيه تعد من أهم كتب المكتبة العربية على الإطلاق.

*وعن مكتبة الخانجي بالقاهرة صدر الكتاب الآتي :

التذكرة بمعرفة رجال الكتب العشرة، للحسيني، ويحتوي على تراجم رجال الكتب الآتية: صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي دواد، سنن الترمذي، المجتبى من سنن النسائي، سنن ابن ماجه، مسند الشافعي، مسند أبي حنيفة النعمان، مسند أحمد بن حنبل، موطأ مالك بن أنس، وقد حققه الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، وصدر في أربعة مجلدات كبيرة، وهو في غاية النفع للمشتغلين بالحديث النبوي ومايتصل به.

*من أخبار المحققين والباحثين:

*انتهى الدكتور محمد مطيع الحافظ، والدكتور نزار أباظة من تأليف كتاب "علماء دمشق وأعيانها في القرن الحادي عشر الهجري" وهو تحت الطبع الآن في دار الفكر بدمشق.

*وانتهى الدكتور محمد مطيع الحافظ من تأليف دراسة عن المدرسة العمرية الشهيرة بدمشق، وهو تحت الطبع الآن بدار الفكر بدمشق.

*وانتهى الأستاذ الدكتور محمد رضوان الداية من تحقيق كتاب "الجمان في تشبيهات القرآن" لابن ناقيا (عبد الله بن محمد بن الحسين بن ناقيا الشاعر اللغوي، المتوفى سنة (٤٨٥هـ-١٠٩٢م).

*وانتهت الأنسة مها بنت مازن المبارك من تحقيق كتاب "العلل في النحو" للعكبري (عبد الله ابن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي أبو البقاء، المتوفى سنة ٦١٦هـ-١٢١٩م) وقدمته لدار الفكر بدمشق ليصدر عنها، وكانت الباحثة المذكورة قد حصلت بتحقيقها لهذا الكتاب على درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة دمشق.



